تشارلز ڤايبونت

وريث كريغز



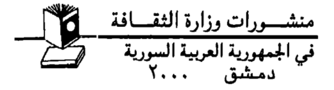
ترجمة: لمى نجيب

تشارلز فايبونت

وريث كريغز

رواية عالمية

ترجمة: لمى نجيب



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب:

CHARLES VIPONT

THE HEIR OF CRAIGS

ILLUSTRATED BY
TESSA THEOBALD
LONDON
OXFORD UNIVERSITY PRESS

وريث كريغر: رواية عالمية = The heir of craigs/ تشارلز فايبونت؛ ترجمة لمى نجيب - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ٢٤٠ص؛ ٢٤ سم.
(روايات عالمية؛ ٨١)

١- ٨٢٣ ف اي و ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- فايبونت ٥- نجيب ٦- السلسلة مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٢٠٥٥/ ١١/ ٢٠٠٠

روايات عالمية
«٨١»

الاهـــداء

إلى عمي

الأستاذ هشام نجيب

علمني اللغة العربية

وإلى خالتي

الدكتورة دلال الأرسوزي

وأفراد عائلتي

شجعوني على ترجمة

هذا الكتاب .

لمى نجيب

مقدمة

إن أصل هذا الكتاب في أول مكان اكتشفته فيه بين بعض الكتب القديمة المتوارثة في عائلتي، يدين لكتاب صغير رث بعنوانه المطوّل جداً :

«إن العناية الإلهية الحامية والمساعدة والدفاع الإنسانيين الموثوقين في أصعب الأوقات وعندما يكون الخطر أكثر ما يكون وشيكاً قد ظهرا جلياً في عملية إنقاذ روبرت بارو الملفتة للنظر بروعتها وذلك مع الكثير من الأشخاص الآخرين، من أمواج البحر المفترسة التي قاسوا وسطها من غرق السفينة وأيضاً من الفكوك المفترسة الوحشية لأكلة لحوم البشر الهمجيين في فلوريدا .

مرويّة بأمانة من قبل جوناثان ديكنسون أحد الأشخاص ذوي العلاقة بتلك المسألة» . وهكذا فإن الرحلة المشؤومة لحركة الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر والأحداث غير العادية التي جرت في فلوريدا والمدّونة في قصتي هي واقعية تماماً، المآثر التي قامت بها ماري كروس وعمليات الاضطهاد التي قاساها الأب آرو سميث المنعم عليه بالسعادة الروحية، جورج فوكس ومارغريت فيل والمحاكمات الكاثوليكية في مانشيسترعام ١٦٩٤ هي بالطبع وقائع تاريخية .

ومن الأحداث الواقعية أيضاً أنه خلال عهد الحكومة الانكليزية في ظل أوليفر كرومويل وابنه (١٦٤٩-١٦٦٠) قد عُرِضَ على تشارلز الثاني أن يجلس على العرش في فيرجينيا وأن المحاولة الأخيرة لاستعادة التاج البريطاني من قبل جيمس الثاني قد تم القيام بها عام ١٦٩٦ .

أما المؤامرة المتعلقة بهذه الأحداث والشخصيات الرئيسية في الكتاب بما في ذلك سلالة كريغز الحاكمة فهي تخيليّة تماماً .

الفصل الأول

ابن عمي نيكولاس



كانت المرة الأولى التي رأيت فيها ابن عمي نيكولاس في فترة ما بعد ظهر أحد الأيام المشمسة في بداية عام ١٦٩٦ وكان عمري عندها أربعة عشر عاماً.

كان يمتطي جواده على طول الشاطىء باحثاً عن كريغز بينما كنت مختبئاً في التجويف بين الصخور حيث كان ملجئي المفضل.

هناك كان بإمكانك أن ترى ما حولك دون أن يراك أحد وهناك أمضيت ساعات عديدة بهيجة ومعي كتاب قديم وملء جيب من التفاح.

يمكنك أن تستلقي بشكل مستو على ظهرك ولا ترى شيئاً غير السماء الزرقاء من فوقك

أو يمكنك أن تستلقي على بطنك سانداً ذقنك فوق يديك، تنظر عبر الامتداد العريض للخليج إلى التلال القابعة وراءه والتي تبدو على شكل خط مسنن، أو تراقب قدوم المد مندفعاً لتفيض به القنوات الضيقة ولينسفح فوق الرمال.

عندما يكون البحر في حالة المد يمكنك أن تشاهد السفن تطفو جيئة وذهاباً. سفن صيد من القرى المحيطة بالخليج أو مراكب ساحلية تجارية.

كنت أختبىء مراراً هناك في الليالي الصيفية بعد هبوط الليل وكنت أرى واحداً من مراكب عمي آسكو ذات الأشرعة رباعية الأضلاع تنسل خفية لتحتمي عند مصبّ الجدول الضيق وتُنزل حمولتها لتجد بانتظارها صفاً من الجياد المعدَّة للتحميل في الممر الضيق الهادىء.

كان مكاناً جيداً للاختباء. بقدر ما أستطيع التذكر، لم يجدني أحد هناك عدا توم هابرستي العجوز ولم يكن لذلك أهمية لأن توم كان صديقي.

كان لدي القليل من الأصدقاء في تلك الأيام، كما كان لدي مبرر ضئيل لأتوقع أن يكون ابن عمي نيكولاس واحداً منهم. أنعمت النظر من بين الصخور لأراقبه عندما كان مقبلاً، كان حصانه المتعب يتعثر في القنوات الضيقة التي شطرت مرج البحر الأخضر.

أوشك الحيوان المسكين في أحد المواضع على السقوط فتوقف راكبه ليربِّت على رقبته اللامعة قبل أن يردّه نحو الرمال المنبسطة.

بدت الرمال آمنة بشكل كاف للجواد ولراكبه، وكنت أنا، المراقب المختفي في التجويف، الشخص الوحيد الذي كان يعرف أن الرمال كانت مصيدة الموت.

لم أكن أُكِنّ الحب للغرباء. لم يكن الكثيرون، من بين الناس الذين أعرف في هذا العالم، لطفاء أو مجاملين أو حتى مستقيمين في أحسن الأحوال.

لم يكن هذا الغريب ذو الأطراف الطويلة، الوسيم، بثيابه الجميلة وحصانه المتعب ليهمني في شيء كي أشفق عليه. وإن هو تابع في طريقه فإن الرمال ستبتلعه قريباً. أما حصانه فسيسقط في الشرك ويتخبط فيه بلاحول ولا قوة رافعاً رقبته

الطويلة للوراء وناظراً في ذعر في اتجاه بعد آخر على نحو متواصل. أما هو فسيقفز طلباً للنجاة ليسرّع ذلك في انغماسه أكثر. سوف يبكي طالباً المساعدة، لكن أحداً لن يستجيب له. ولسوف تطلق طيور النورس صرختها الرتيبة في السماء الزرقاء من فوقه ضاربة بأجنحتها البيضاء في الريح المواتية بعد وقت طويل من غيابه عن الأنظار وكأنه لم يكن موجوداً أبداً.

كان بالإمكان أن يحدث ذلك حقاً. لولا أنني عندما رأيته يربّت على رقبة حصانه صرخت:

«أنت هناك». إلا أن صوتي كان قد ضاع في الهواء قبل أن يصله.

وقفت في التجويف الصخري وصرخت ثانية واضعاً يديّ حول فمي على شكل قمع: «أنت هناك». جفل وكبح جماح فرسه ومن ثم وضع يده على مقبض سيفه ناظراً ذات اليمين وذات الشمال.

«أنت هناك، خطر! هناك وعث [١] في هذا الطريق».

رآني في النهاية وسمعني، أدار رأس حصانه نحو الداخل ثانية.

عندما قاد حصانه عائداً إلى المرج المحزز استطعت أن أرى وجهه وقد أشرق بابتسامة، لم أنزل لألاقيه، كنت أعلم أن الابتسامات يمكن أن تكون غادرة.

ناداني بصوت قوي واضح: «شكراً ياصبي. هل لك أن تدلني إلى الطريق المؤدية إلى كريغز؟»

نظرت إليه بارتياب. كان لا يزال أقل من أن أميل للوثوق به. قليل من الغرباء كانوا يأتون إلى كريغز ما لم يكونوا أصدقاء عمي آسكو. قلت: «سوف

---

(١) الوعث: رمل لين تغيب فيه الأقدام.

تجدها خلف الصخور هنا إذا بقيت قرب الشاطىء». لم يتحرك الغريب بعيداً. لم أستطع تمالك نفسي عن إبداء إعجابي بالطريقة التي امتطى بها صهوة جواده. كان معظم الرجال الذين عرفتهم راكبي أحصنة غير بارعين ما عدا عمي آسكو الذي كان يبدو الشيطان بعينه عندما كان يمتطي فحله الأسود داريوس.

نظرت في عينيّ الغريب بشكل غير مقصود. كانتا زرقاوين وقادرتين على الإخضاع.

ناداني: «انزل أيها الصبي». انزلقت للأسفل بسرعة. ترجل الغريب عن ظهر حصانه ووقف وإحدى ذراعيه ملقاة برفق على رقبة حصانه. حكّ الحيوان المتعب أنفه به كأنه يطلب منه شيئاً. تحسست داخل جيبي بارتباك وأخرجت قطعة من فطيرة الشوفان وقدمتها للحصان.

كانت كل ما لدي وكل ما كان محتملاً أن يكون لدي لأنني تغيبت عن المدرسة بغير إذن في فترة ما بعد الظهر وكنت سأذهب للفراش دون عشاء.

قال الغريب: «أعتقد أنك أنقذت حياتي منذ لحظات قليلة».

قلت بفظاظة: «أعتقد ذلك، كان ذلك بسبب حصانك».

لمعت الابتسامة ثانية، كانت ابتسامة جذابة. بعدئذ ضحك وقال: «في الواقع، أنت على الأقل خبير جيد في خيل الركوب. دعني الآن أرى ما إذا كنت خبيراً جيداً في الرجال. لقد سألت عن طريقي إلى كريغز إلى أن سئمت ذلك. لقد جعلوني أضل الطريق ووجهوني على نحو خاطىء أخبرني، ماذا يخاف الرجال في كريغز؟».

كنت صامتاً رغم كل شيء، فمن كان هو بالنسبة لي؟ وماذا كان سيحدث لي إن وصلت كل كلمة قلتها له إلى عمي آسكو؟. فجأة وضع يده القوية تحت ذقني

وأمال وجهي للأعلى إلى أن لاقت عيناي عينيه، قال: «جسناً؟ ماذا يخاف الرجال في كريغز؟».

غمغمت قائلاً: «كل شيء. دعني أذهب.» لكنه كان لا يزال ممسكاً بي وينظر بشكل ثاقب في وجهي، سأل فجأة: «ما اسمك أيها الصبي؟». لم أستطع أن أكذب عليه.

كنت كاذباً بارعاً بالنسبة لعمري كأي صبي، قبل أو بعد ذلك الموقف، بيد أنني لم أستطع أن أكذب عليه. قلت: «نايجل كريغ»، عندئذ أطلقني وقال: «إذاً تلك هي القضية، أنت ابن بيلهام». حرر جواده ليرعى المرج وجلس فوق صخرة وأشار إلي أن أفعل نفس الشيء. ترددت بارتياب. إن رفع الكلفة من قبل صديق لعمي آسكو لم يبشرني بخير.

تمنيت لو أنني لم أغادر أبداً مخبئي، لو أنني لم أعطه أبداً ذلك النداء التحذيري عبر الرمال.

قال: «اجلس»، وكان هنالك شيء ما في صوته جعلني أذعن له. جلست متجهم الوجه، مرتاباً، رافضاً أن أنظر إليه في وجهه. قال: «من الأفضل لنا أن نتوصل إلى تفاهم بسرعة لأنني أحتاج إلى مساعدتك، أنا ابن عمك نيكولاس كريغ».

عندئذ صوبت نحوه نظرة سريعة تتسم بالفضول أكثر مما تتسم بالصداقة. لقد سمعت بنيكولاس كريغ. والده بيريغرين كريغ الأخ الأصغر لجدي من زوجة أبيه، كان واحداً من وزراء الملك وقد تم نفيه معه إلى سانت جير مان. لو أن نيكولاس قد أتى باحثاً عن الخديعة فإنه كان سيجد الكثير منها في كريغز وربما أكثر مما قد توقع.

قال نيكولاس : «عرفت والدك». ونظرت للبعيد ثانية وتابع قائلاً : «لقد كان سيداً نبيلاً جداً، أنزل الله الراحة والسكينة على روحه . » غمغمت قائلاً : «آمين» . لقد مرت سنوات ست منذ قتل والدي في معركة بوين، ونادراً ماكنت أسمع أحداً يتكلم عنه في كريغز .

قال نيكولاس : «أخبرني الآن، من هناك في كريغز؟» . ترددت في بادىء الأمر، ولكني وجدت نفسي مكرهاً على الكلام، قلت : «هناك جدي» .

قال نيكولاس : « أتعني ألغرنون كريغ العجوز شقيق أبي من زوجة أبيه، كيف حاله» .

قلت : «لقد كان مريضاً لفترة طويلة، إن جراحه القديمة لا تزال تؤلمه، وهو والأب بنديكت يلا زمان زاوية الموقد في حجرة الجلوس الرئيسية معظم الأيام» .

قال نيكولاس وهو يدق المرج بحذائه : «لقد أصيب بتلك الجراح في بريستون، هكذا أخبرني والدي. إنه لأمر مرهق أن يدفع المرء ثمن ولائه لفترة طويلة من حياته» .

قلت : «ربما كان الثمن أكثر من ذلك» . ثم تذكرت نوبات غضب جدي التي لايمكن التنبؤ بها ومصايره المتهدمة والكآبة التي حلت على كريغز .

أقر نيكولاس : «ربما كان كذلك . الآن، الأب بنديكت هذا، ذلك هو القس هل أنا مصيب؟» .

قلت : «نعم، ومعلمي الخصوصي» .

«واليوم عطلة؟»

هزرت رأسي نافياً .

قال ببطء «أفهم» ونظر إليّ نظرة أخرى من نظراته العجلى الجادة والتي بدت أنها تريد أن تكتشف فيّ أكثر بكثير مما أردت أن أقول وتابع كلامه: «وهل لا يزال ابن عمي آسكو في كريغز؟»أومأت برأسي موافقاً.

سأل: «من أيضاً؟»

قلت: «ابنة العم إيزابيل، لكنها غالباً ما تكون متوارية عن الأنظار. البعض يقولون أنها مجنونة، وآخرون يقولون أنها عرافة. إنهم غالباً ما يكونون خائفين منها لكنني أخالفهم الرأي، إنني أحبها. علاوة على ذلك فإن هناك ابنتها جوديث. إنها ...».

أبعد نيكولاس الكلمة عن شفتيّ بلطمة جعلتني أدور. رفعت نفسي بذراع واحدة متخذاً وضعية الاستعداد منتظراً اللطمة التالية لكنها لم تأتِ أبداً. قال: «إذا كان لا بد لنا أنا وأنت أن نكون أصدقاء يا نايجل، فعلى كلٍّ منا أن يفهم الآخر. لا يستخدم أي سيد نبيل تلك الكلمة في حق سيدة في حضوري. الآن تابع، من هناك أيضاً؟».

قلت بعبوس«ذلك كل شيء»، ما عدا، توم هابرستي والخادمات، ورجال العم آسكو فرانك ليمون ودافت ويلي. إنهم يدعونه «دافت» (أي المجنون» لأنه يرى أشباحاً». سأل نيكولاس بتهكم: «وأنت هل ترى أشباحاً يا نايجل؟»

هززت كتفيّ غير مبال ولم أجب. لقد كان هنالك ما هو كاف لتراه في كريغز غير ذلك. وستحتاج إلى أن يكون لديك الكثير من الدهاء لتعيش هناك، وأحياناً يمكنك أن تعيش فقط لأنك تغض بصرك.

وقف نيكولاس على قدميه وصفّر برفق لحصانه. سأل: «هل لا يزالون مخلصين في كريغز؟».

قلت بحذر: «إنهم يشربون نخب الملك الموجود على الجانب الآخر من البحر».

استدار نحوي ثانية ونظر بشكل ثاقب في وجهي. سأل: «وهل كنت ستثق بولائهم؟»

قلت: «ما كنت لأثق بأحد على الإطلاق ما عدا توم هابرستي».

أجاب نيكولاس: «إذا لم تثق بأحد أبداً فإن الحياة لن تستحق أن تعيشها».

قلت ساخراً: «حقاً؟».

كانت تهب ريح باردة باعتدال عبر السهول الموحلة، وعندما عدت إلى كريغز عرفت أنني سأكون مرهقاً بعد وقت قصير. وفي معدتي الفارغة شعرت بالأثر المرضي الذي يتركه الخوف من شر مرتقب. وضع ابن العم نيكولاس يديه برفق على كتفيّ وقال: «ابقِ رأسك مرفوعاً يا صبي، تذكر أنك وريث كريغز».

كان بودي إخباره أن ذلك لم يكن ليبعث في نفسي الشعور بالأمان، ولم يكن هذا الأمر ليجعل الحياة تبدو جديرة بأن تعاش، غير أني لزمت الصمت. وبدل ذلك تملّصت من قبضته وحملت إليه ركابه. سألت: «هل ستقود يا سيدي؟».

وثب إلى السرج ومشيت بجانبه بينما قاد الحصان ببطء على طول الشاطىء كان الليل يهبط شيئاً فشيئاً بينما زحف السديم إلى ما تحت جوانب التل. وامتد الهدوء المصاحب لاقتراب المساء فوق الرمال. ورفرف طائر مالك الحّزين بجناحيه وحيداً من غير رفيق متخذاً طريقه في السماءبينما صفرت الريح بشكل مخيف بين أغصان الزعرور البري وأشجار البندق التي تذروها الريح بين الأجراف الشديدة الانحدار. عندما قمنا بجولة حول صخور الرأس البحري المتداعية

للسقوط استطعنا أن نرى الخليج الصغير وكانت كريغز تتوضع على مبعدة من الشاطىء صغيرة وكئيبة ومنفرة. فجأة وضعت يدي على العِنان وقلت: «عندما تصل إلى كريغز كن حريصاً». أومأ برأسه ولم أضف شيئاً على ذلك.

عندما اقتربنا من البيت خرج توم هابرستي ليلاقينا. هتف والدموع تنهمر من عينيه الرماديتين: «من المؤكد أنه السيد بيريغرين، إنها عودة السيد بيريغرين للوطن».

قال نيكولاس: »لقد توفي والدي، أتيت لأخبرهم بذلك».

حسر توم رأسه ورسم إشارة الصليب على قلبه. ترجّل نيكولاس عن ظهر جواده ورمى إليه بالعنان. قال: «لا بد أنك صديق والدي القديم على ما أعتقد، توم هابرستي، اعتنِ بحصاني و. » توقف فجأة عندما خرجت جوديث من الظلمة تحت الرواق الناتيء لمنزل كريغز. كانت تلبس بُرْداً شاحب الزرقة بكلفة من التخريمات قشدية اللون عند عنقها ورسغيها ووشاح قرمزي اللون عند حنجرتها. صاحت: « أين كنت يا نايجل؟ لقد بحثوا عنك في كل مكان، وابن العم آسكو غاضب». آنذاك رأت نيكولاس وتوقفت. عندما اقترب احمرّ وجهها ارتباكاً وقامت بانحناءة احترام خفيفة بينما تدلت لفائف شعرها الطويلة البنية اللون للأمام إلى أن أخفت وجهها.

قال نيكولاس منحنياً لها كما لو كانت سيدة عظيمة: «خادمك سيدتي. أنا ابن عمك نيكولاس كريغ».

استقامت ضاحكة وقدمت يدها، قالت: «كم كان من الغباء ألا يقدمنا نايجل إلى بعضنا، أهلاً بك في كريغز يا ابن العم نيكولاس. » قبلّ يدها ومن ثم تبعها إلى داخل المنزل، بينما مشيت ببطء.

كنت مغتاظاً منها لأنها هي التي قد رحبت به في كريغز ولست أنا.

جفل جدي المسن في زاوية الموقد وقد وضع يده الواحدة على شكل كوب حول أذنه. «نيكولاس، هل قلت نيكولاس؟ نيكولاس الشاب؟ لماذا، ادخل بنيّ ومرحباً بك! ما أخبار بيريغرين؟».

تردد نيكولاس وقال أخيراً: «لقد توفي والدي منذ شهرين، كان علي إخبارك أنه كان يذكرك بمودة وأرسل مباركته.»

كانت شفتا الأب بنديكت تتحركان، وعلمت أنه كان يصلي لروح الرجل المتوفى. لقد كان رجلاً مسناً وقد شهد الكثيرين من عائلة كريغز يموتون قبل الأوان.

قال فجأة بعنف: «ليس بيريغرين!، بيريغرين توفي وأنا لا أزال هنا! يقولون إن النفي يجرد الإنسان من القلب، لكن بيريغرين لماذا يا آسكو، هل سمعت أن بيريغرين قد توفي؟».

كان آسكو قد دخل بهدوء. إنه دائماً يدخل بهدوء. وقف في الظلال قرب السلم اللولبية وكان وجهه العابس مبهماً. قال: «خادمك يا ابن العم نيكولاس. كنت أتمنى لو أنها كانت رسالة أكثر بهجة تلك التي جاءت بك إلى كريغز».

سأل جدي: «هل ستبقى لمدة قصيرة يا بنيّ؟. أين توم هابرستي؟ أين معشر النساء؟ إنهن لا يظهرن هنا أبداً حين تريدهن، ولا حتى تلك الطائشة الصغيرة جوديث. لم يعد أحد يهتم بالرجل العجوز».

لكن جوديث كانت هناك، فقالت له وهي تجلسه ثانية في كرسيه وتسوّي الوسائد مطمئنة إياه من جديد: «لقد أخبرت الخدم يا سيدي والجميع سيكونون جاهزين. لا تقلق وإلا فإن ذلك سيسبب لك السعال. وفي الحقيقة، في الحقيقة

يا سـيـدي إنني حـزينة جـداً من أجلك ومن أجل المـسكين ابن العم نيكولاس، والمسكين، المسكين العم بيريغرين!».

كان هناك هرج ومرج من الرجال والخادمات، وكنت غير مبال بما يدور حولي إلى أن أشار إليّ عمي آسكو أن أصعد إلى غرفتي بحركة صغيرة من رأسه بينما وقف مراقباً المشهد بتركيز، لكنني أدركت قصده.

غادرت فوضى الردهة الكبرى وزحفت متجاوزاً إياه صاعداً السلم الملتوية إلى العلية الصغيرة تحت الروافد حيث كنت أنام. جلست هناك على حافة فراشي المصنوع من القش وتساءلت عما إذا كنت قد تصرفت بشكل جيد بترحيبي بابن عمي نيكولاس وإحضاري إياه سالماً إلى كريغز.

شعرت بالغثيان في مقدمة معدتي. بحثت في جيوبي، لكن لم يكن هناك ولا حتى كسرة باقية من فطيرة الشوفان التي أعطيتها للجواد. تمنيت في ذلك الوقت لو أنني احتفظت بها لنفسي. كانت الجياد تغذى بشكل جيد في كريغز. سمعت في النهاية صوت وقع خطوات آسكو على السلم، رفع مزلاج الباب بيده ودخل. حمل سوطه المستعمل في ركوب الخيل وسألني: «أين كنت طوال اليوم يا نايجل؟».

قلت: «كان لدي عطلة يا سيدي».

قال عمي: «تلك كذبة».

هززت كتفيّ غير مبال. أحياناً، فيما مضى، كان الأب بنديكت يحميني منه، أما هذه المرة فلابد أن العم آسكو قد أخذه على حين غرة. لم يكن ليهم. لا بد لي أن أضرب في النهاية.

قال عمي على نحو مفاجئ وبلهجة قوية: «حسناً»،

غمغمت قائلاً: «لقد عاهدت نفسي على اتباع أوامرك يا سيدي، ولكن يظهر أني لم أفهم درسي بعد».

«وهل تفهمه الآن؟».

«كلا يا سيدي، لن أتعلمه ما دامت ابنة عمي جوديث تسخر مني».

ابتسم عمي آسكو ابتسامته الخفيفة القاسية وقال: «إنها توفّق جيداً في التهكم عليك، الصبي الذي يدع فتاة تتغلب عليه هو شخص تليق به السخرية. تقول أنك لن تتعلم درسك يا نايجل، لكنك ستُضرب إلى أن تتعلمه، تعال إلى هنا».

لم أقم بأية حركة، أما هو فقد مدّ يده وهزني بعنف نحوه. قال: «أولاً ستجيبني على بعض الأسئلة. أخبرني، أين التقيت بابن عمنا نيكولاس؟».

«قرب الشاطىء».

قال عمي بلهجة حادّة: «أين؟».

لم أُرِدْ أن أفشي سر مخبئي. كررت: «قرب الشاطىء يا سيدي. ليس بالبعيد من هنا.

رأيته ممتطياً جواده منطلقاً به نحو الرمال، كانت الرمال ستبتلعه لو لم أحذره».

سأل عمي: «إذاً لم بحق الشيطان حذرته أيها الأحمق الصغير؟»، ثم أمسكني فجأة بإحكام من كتفيّ وهزني كما يهز كلب قوي فاراً صغيراً. «الآن، أجبني هل تكلمت معه؟».

قلت «فقط قليلاً يا سيدي».

«عمّ تكلمتما؟».

«لقد سألني أسئلة».

«أي نوع من الأسئلة؟ عجّل، أفصح عنها».

«سألني مَنْ مِنَ الناس في كريغز الآن، وقد أخبرته».

«فقط ذلك؟». نقل آسكو يده إلى معصمي، وعرفت ما هو آتٍ. بدأت أتلعثم في كلماتي.

«قال أنه يعرف والدي- قال أن والدي كان سيداً نبيلاً- قال-».

«لا بأس بذلك. ما الأسئلة الأخرى التي سألها؟». لوى ذراعي بعنف عندما تكلم، أما أنا فقد علمت أنني سأخبره بكل ما يريد أن يعرف، وقد كرهت نفسي لأجل ذلك.

«سأل ما إذا كنتم لا تزالون مخلصين في كريغز».

«وقد أجبت؟ تعال، أخبرني، ماذا قلت له؟».

«قلت إنكم تشربون نخب الملك على الجانب الآخر من البحر».

«وماذا قال عندئذ؟».

«دعني أذهب يا سيدي! آه، أرجوك، دعني أذهب! لقد سأل ما إذا كان يستطيع أن يثق بإخلاصكم».

«وأنت ماذا قلت؟ هيا ماذا قلت».

«قلت بأنني لا أثق بأحد، وأنا لا أثق بأحد».

لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء. كرهت عمي آسكو. كرهت كل العالم. كرهت ابن عمي نيكولاس.

قال عمي بوجه مكشر: «يمكنك الوثوق بي نايجل، لقد قلت لك أنني سأضربك إلى أن تتعلم درسك، ولسوف أفعل. لكن في البداية أصغ إلي. سوف

تقوم بمراقبة ابن عمنا لمصلحتي، سوف تصادقه، تتبعه كأنك كلبه الصغير، وإنك لكذلك، وتتكلم معه، وسوف تخبرني بكل ما يقول ويفعل، أتفهم؟».

غمغمت قائلاً: «لاسيدي».

قال عمي: «أعتقد أنك تفهم، وأعتقد أنك ستقوم بذلك. أما الآن فسأضربك».

كان أسوأ ما في الأمر عندما ضربني عمي آسكو ببرود. أخذ يراقبني بانتباه في النهاية، ناظراً للأسفل إلي بابتسامته القاسية. سأل: «حسناً، هل تعلمت درسك؟».

لم أجب. ضربني ضربة سريعة خفيفة برفق بسوطه المستعمل في ركوب الخيل. كرر قائلاً: «هل تعلمت درسك؟».

قلت: «نعم سيدي».

ضحك لنفسه مطمئن البال عندما غادر الغرفة. سقط المزلاج برفق في مكانه المخصص، وسمعت وقع خطواته الثابتة تهبط السلم الملتوية.

كان هناك صوت موسيقا في الردهة الكبيرة، وتمكنت من سماع صوت جوديث والأنغام الخفيضة لعودها. ثم شاركت أصوات الرجال في الغناء، سمعت صوت آسكو الجهير العميق وصوتاً آخر صادحاً مدوياً غير مألوف بالنسبة لي. فكرت، لا بد أن يكون ذلك نيكولاس. ولقد تمنيت لو أنه لم يأتِ أبداً إلى كريغز عندئذ سمعت أيضاً صوتاً آخر يقترب شيئاً فشيئاً، وفتح الباب برفق عندما دخلت الغرفة ابنة عمي المجنونة إيزابيل وهي تغني. سألت: «لم لا تغني أنت أيضاً يا نايجل؟».

لم أجب. وقفت بجانب النافذة الصغيرة وسقط ضوء القمر الموحي بالبرودة فوق ملابسها الباهتة اللون. قالت: «كان يضربك أليس كذلك؟ آه، لكن ذلك لا يدوم، لا شيء يدوم، وعندئذ تعود طيور السنونو وتبني أعشاشها ولا أحد

يخبرها بأن الشتاء سيأتي ثانية، الحبُ، الشتاء سيأتي ثانية. لم لا يخبرونها يا نايجل؟».

قلت مداعباً إياها ومتمنياً ذهابها: « ربما هي تعرف مسبقاً».

همست: «آه، لكنها لم تستطع، أو أنها ما كانت لتبني أعشاشها. صه، أصغ، هناك تغني جوديث وبيريغرين، أصغ، إنه بيريغرين يعود للوطن».

قلت: «لقد توفي بيريغرين».

همست بنظرة عارفة: «آه، لا. بيريغرين، بيلهام، روبرت، أمبروز، لم يتوفى أيٌ منهم، أنت تعلم. لا بد أن أحداً ما قد أخبرهم فلم يعودوا مطلقاً وهذا كل ما في الأمر. من أخبرهم يا نايجل؟ هل أنت من أخبرهم؟».

هززت رأسي، قلت: «ربما آسكو أخبرهم».

وضعت إصبعها على شفتيها، قالت: «اسكت! سأخبرك بسر. إنه يعرف كل شيء. ما عدا شيئاً واحداً يا نايجل، وذلك الشيء هو أين يتدخل الله. ها، ها، ها! أليس ذلك مضحكاً يا نايجل؟لم لا تضحك؟».

كنت أشعر بالغثيان والألم والبؤس. أردتها أن تذهب بعيداً. فجأة، انحنت فوقي ووضعت يدها فوق جبيني، قالت: «إنه لم يعد بمقدوره الضحك، إنه متقد بكامله ولم يبق هناك ماء في البحر». عندئذ اندفعت كالسهم بعيداً أما أنا فاستلقيت متمنياً لها أن تكون في قاع البحر، وأن يكون فيه مياه كثيرة لتحملها إلى هناك. وتمنيت لو أنها قد أغلقت الباب من خلفها بدلاًمن أن تعرضني لكل تلك الموسيقا السخيفة والتي صعدت للأعلى قادمة من الردهة.

بذلت جهداً لأنهض وأغلقه، لكنني أصبت بدوار وشعرت بالغثيان ثانية. عندئذ شعرت فجأة بحافة كأس من النبيذ عند شفتيّ. رفعت رأسي، وللحظة فقط كانت ذراعها دافئة ومواسية كذراع أم. أو أنني تخيلت ذلك لأنني لم أعرف والدتي أبداً. ثم إنها ضحكت ثانية وأصبحت ذراعها النحيفة مشدودة. أما الخيوط

الحريرية الباهتة اللون وتخريمات بردها الرث وتنورتها فقد نشرت عطوراً مبتذلة وروائح عفنة إلى أن احتججت بضعف وحاولت التملص بعيداً. بيد أنه ما كان منها سوى أن أمسكتني بمزيد من الإحكام والتشبث أكثر حين سكبت النبيذ الصافي داخل حلقي. ضحكت على نحو متقطع:

«لقد سرقته، سرقته من غرفته. أنا والصبي سنشربه معاً، وسنشرب ونشرب إلى أن تعود طيور السنونو إلى الوطن». وضعتني للأسفل ثانية وأعادت ملء الكأس بيد مرتعشة. ضحكت ضحكة خافتة: «حصص متعادلة يا نايجل، بمقدوري أن أسكر أي رجل من جماعة الجالسين حول الطاولة في الأسفل عدا أسكو، نعم عدا آسكو، هل تعرف لماذا؟ اسكت! سأخبرك! آسكو هو الشيطان ولهذا فهو لا يسكر أبداً.» ملأت الكأس ثانية ودفعتها إلى شفتيّ. احتججت بضعف. لقد كنت قوياً جداً. بعدئذ بدأت بالرقص، وأثناء رقصها غنت إحدى أغنياتها الصاخبة.

تمايلت الغرفة من حولها، أما أنا فقد أغلقت عينيّ لأن الألم انتابني ثانية. ومن ثم أصبح كل شيء مشوشاً إلى أن سمعت ضحك جوديث ذا طبقة الصوت العالية وشعرت بيديّ الأب بنديكت الرقيقتين من حولي. في مكان ما قال صوت آسكو ببرود: «سأزعجك لأبقيك بعيداً يا ابن العم. هذا ليس من شأنك».

فكرت، إنه لم يكن شأن أحد. أردت فقط أن أبقى وحدي.



الفصل الثاني

الأيام الخوالي



قدمت إلى كريغز عندما كان عمري ثماني سنوات. وقبل ذلك كنت أعيش مع جدي وجدتي في إلفورد.

إن إلفورد قرية صغيرة تقع في سوري، وهي مجموعة من الأكواخ المسقوفة بالقش المتحلقة حول كنيسة نورمندية وبيت القس الصغير الواقع في حديقة مغمورة بأشعة الشمس خلفها.

كان جدي هو القس البروتستانتي. كان رجلاً ساذجاً جداً، أما إلفورد فقد كانت مكاناً لاأهمية له البتة.

وربما يفسر ذلك أن كليهما قد نجح في أن يبقى بعيداً عن الإزعاج لوقت طويل، في الوقت الذي حدثت فيه تغيرات وانقضت في العالم الكبير خارج إلفورد.

كان الصيف في أوجه، هكذا اعتاد أن يخبرني والدي، عندما قاد حصانه باتجاه إلفورد باحثاً عن حداد ليضع حدوة لفرسه. وذلك لأن الحظ العاثر، مرة تلو الأخرى، قد فرّقه عن بقية الصيادين، وكذلك مرشد مضلل، صديق مشاكس، وحصان أعرج. وكان بالكاد قد أنهى سنوات مراهقته ولم يتعود بعد على أسرة الملك وحاشيته لكنه كان يلاقي استحساناً كبيراً عند الملك وكان شديد التوق ليعود بحصانه بحثاً عن الآخرين. لم تكن هناك حيوية أو حركة في إلفورد حيث كان الرجال والصبية في الحقول أما النساء فكن داخل بيوتهن. عندما نظر آخر الأمر بفضول إلى الكنيسة القديمة بمدخلها المنقوش، رأى الأزهار في حديقة بيت القس القابع خلف الكنيسة وتوقف للحظة لينظر إليها ذلك لأنه كان ريفياً في داخله ولم يكن قد ألِفَ بعد حياة القصر. وعندئذ رآها قادمة أسفل الطريق من خلال باب صغير وكانت يداها تحملان الكثير من الورود. سألها عن بيت الحداد فدلته على الطريق، وعندئذ طلب منها وردة. هزت رأسها في البداية وقالت: «إنني أحملها إلى أحد الكهنة المرضى في أبرشية والدي».

قال: «سيدتي، استبق لي واحدة، لأنني محزون الفؤاد على الورود في حديقة والدتي في الريف الشمالي».

أمسكت بوردة حمراء داكنة وأعطتها له، وانحنت له باحترام وجلال كأميرة رغم أنها لم تكن سوى فتاة نحيلة صغيرة السن تلبس ثوباً باهت اللون، ابنة قس ريفي. وعندما ودّعها، أدرك أن عليه ألا يأتي إلى ذلك المكان ثانية وذلك لأنه كان وريث عائلة منهارة أفلست دفاعاً عن الدين والملك. بيد أنه احتفظ بالوردة. لكنه سرعان ما أتى إلى ذلك المكان ثانية.

كان أبي ينسى العالم بأسره من أجل لوفداي ميريديث. وعندما رآها الملك، أدرك ما سيكون عليه الأمر.

لقد قام جلالته بامتطاء جواده سراً نحو إلفورد ترافقه مجموعة من رجال حاشيته ليجد والدي في حديقة بيت القس مع لوفداي ووالديها المسنّين. وعلى

الرغم من أنه قد حاول أن يتنكر إلا أنه لم يكن هناك من سبيل لإخفاء تلك القامة الطويلة، أو قسمات الوجه المألوفة السمراء التي كانت تبتسم دائماًمع أثر ضئيل للحزن. وهمست لوفداي« جلالة الملك» بينما انحنت باحترام.

لقد بدا غريباً أن يتوجب على الملك التسكع في حديقة بيت قس راشفاً نبيذاً بيتي الصنع من زهر نبات البلسان.

ألقى رجال الملك الملاحظات الساخرة وهم يتلهفون للعودة، بيد أن الملك مع ذلك تريّث.

وقبل أن يغادر المكان، سحب والدي جانباً وقال له: «إنك لن تقوم بإحضارها للقصر يا بيلهام؟».

هز والدي رأسه وقال: «إنني سأطلب الإذن من جلالتك بالزواج منها لأنني لن أحصل على موافقة من والدي. أما هي فستبقى هنا حيث تسكن».

قال الملك: «يمكنك أن تخبر والدك أنني أحسدك».

لولا جلالته لما تظاهر ألغرنون العجوز بمسامحة ابنه. لكن زواجهما لم يدم إلا لوقت قصير، إذ أنها غادرت العالم عندما قدمت أنا إليه. أما الملك الذي لم يأت ليشهد زواجها من والدي في الكنيسة النورمندية الصغيرة، فقد أتى ليقف بجانب قبرها، وليسمع جدي العجوز ينتحب لريح الشتاء قائلاً:

«من التراب إلى التراب، من الرماد إلى الرماد، من الغبار إلى الغبار». لأن التي كانت مصدر سعادته في الحياة قد دفنت في التربة المتجمدة.

عاد والدي إلى القصر. وأعتقد أن صداقته للملك هي التي حفظت له رشده. أما أنا فلم أكن أساوي شيئاً كنت مجرد طفل عليل باكٍ كلفت أمي حياتها. وفقط عندما بدأت أكبر، بدأ والدي يزور إلفورد أكثر من السابق. أثناء ذلك تركني مع جدي وجدتي والمرأة المخلصة التي قامت بإرضاعي. كنت في الثالثة من عمري عندما توفي الملك. وأذكر حين قدم والدي ليخبرنا بذلك، وحين وضعني

على ركبته محاولاً أن يشرح لي الأمر. لكنني كنت أعبث بالأزرار المرصعة بالجواهر على معطفه.

فيما بعد، أدركت أن ذلك الرجل الذي كان فيما مضى ملكاً، كان صديق والدي وأنه قد مضى ليلحق بوالدتي في النافذة الشرقية للكنيسة.

بقدر ما أستطيع التذكر، كنت أعتقد أن السماء هي النافذة الشرقية لكنيسة قريتنا. وذلك لأنهم عندما حاولوا أن يشرحوا لي أن والدتي في السماء أشاروا إلى صورة القديسين والملائكة الذين كانوا ينشدون حول السيد المسيح في بهاء، وكنت أعتقد أن والدتي هي الملاك الصغير القابع في الزاوية الواقعة إلى اليسار والذي ظهر في هالة قداسته ثقب سمح لأشعة الشمس بالمرور من خلاله.

عندما بلغت السادسة من عمري بدأ العالم ينقسم إلى أجزاء. إذ أتى والدي في أحد الأيام ووقف لوقت طويل ناظراً إلى قبر والدتي. كان الطقس شتاء، وتوضع الثلج فوق الأرض. ثم إنه قادني للداخل وجلس قرب الموقد، ثم أخذني بين ركبتيه وقال: «أصغ يا بني، إنك كبير بما يكفي لتفهم الآن ولتتذكر. إني مسافر لوقت طويل، وعليك أن تبقى هنا مع جدك وجدتك وأن تتعلم أن تكون ولداً طيباً وأن تكبر لتصبح رجلاً شجاعاً. ويوماً ما سأعود، إن شاء الله. لكن هذا ما عليك أن تفهمه. لقد أقصوا ملكنا بعيداً ووضعوا ابنته وزوجها على العرش، لكن جيمس الثاني هو ملكنا الشرعي وأمير ويلز هو وريثه القانوني. وأنا أؤمن بهذا، مهما حدث، ولأجل هذا سأعيش وأموت، وعليك أنت أيضاً أن تفعل ذلك يا صغيري».

قلت: «أجل يا أبي، لكن لماذا عليك الذهاب بعيداً؟».

قال والدي: «لأن علي أن أقف إلى جانب الملك إكراماً لأخيه إن لم يكن من أجل شيء آخر».

قلت باذلاً كل جهدي كيلا أبكي: «عندئذ سيضعونك في السماء مع والدتي وملكها. أفضّل أن تبقى هنا».

آخر الأمر فهمني ولكن ليس تماماً. قال: «سأعود إليك يا صغيري. ولكن إن لم أقدر، فإن عليك أن تتذكر أنك وريث كريغز».

لم أدرك ما معنى ذلك. إذ أن كريغز لم تكن بالنسبة لي سوى اسم.

قلت: «إنني أفضل أن أكون ابنك يا والدي».

قال لي: «إنك ستكون دائماً ابني، ولهذا السبب عليك أن تكون مخلصاً. عدني بذلك».

قلت: « أعدك يا والدي». لكن ذلك كان قبل وقت طويل من تعلمي أن أحفظ ذلك الوعد.

بيد أن والدي لم يعد أبداً. ولكم تمنيت لو أستطيع تذكرذلك الوداع الأخير والقبلة التي لابد أنه قد أعطاني إياها قبل أن يمتطي جواده مبتعداً. غير أنني في كل مرة أحاول فيها أن أتذكر، فإن كل ما يمكنني تذكره هو رائحة الخبز الزكية والكعكة الصغيرة التي صنعوها لي ليواسوني بعد ذهاب والدي.

كانت على شكل رجل، وكان فيها تابل، وعادت رائحتها إليّ بعد سنتين عندما أتيت راكضاً للداخل من الحديقة ليخبروني أن والدي قد توفي. ومنذ ذلك الحين، لم أعد أهتم بأية كعكة توابل أبداً.

كان جدي وجدتي سيبقياني معهما لولا أنهما كانا عجوزين ضعيفين ولم يكن هناك أقرباء آخرون لوالدتي ليعتنوا بي. وعندما بعث جدي الآخر، ألغرنون كريغ، رسالة بأنه سيرسل في طلبي إلى كريغز، لم يعد بإمكانهما أن يبقوني عندهما، وكنت أعلم أنني وريث كريغز. إذ أن والدي قد أخبرني بذلك.

فيما بعد كنت سعيداً أن عمي آسكو كريغ لم يأت ليحضرني إلى هنا. أما جدي وجدتي فلم يرياه أبداً.

علمت فيما بعد أن مدة خدمته في القصر كانت وجيزة وانتهت بفضيحة.

قام توم هابرستي بالقدوم نيابة عنه، ممتطياً جواده باتجاه الجنوب، قاطعاً انكلترا بطولها ليحملني نحو الشمال. وضعت جدتي يدها على كمّه الخشن وسألت: «ألم يكن باستطاعتهم أن يرسلوا معك خادمة أيها الرجل الطيب؟ إن حفيدنا أصغر من أن يُترك من غير إمرأة تعتني به».

قال توم الوفي: «لن يصيب الغلام أي أذى وهو برفقتي يا والدتي، كنت أعرف والده».

قلت معترضاً: «إنني كبير إلى الحد الذي لا أحتاج فيه إلى مربية يا سيدتي، عمري ثماني سنوات».

وسحبت نفسي للأعلى لأبلغ طول قامتي كاملاً الذي لم يكن بالشيء الكثير، إذ أنه في ذلك الوقت ولأعوام لا حقة كان حجمي صغير نسبة لعمري.

قبل أن أغادر إلفورد، أخذني جدي إلى داخل الكنيسة وصلّى معي، بعدئذ وقفنا ناظرين للأعلى إلى النافذة الشرقية وكانت أشعة الشمس تتدفق عبر الثقب الصغير الموجود في هالة قداسة والدتي لتأتي في وجهي. أدركت حينها أنها لم تكن والدتي. رغم أنها كانت والدتي وستكون دائماً كذلك.

قال جدي: « إن لديهم ديناً مختلفاً في كريغز. إنه جزء من نفس الدين الرئيسي بكل معنى الكلمة، وعلى الرغم من ذلك فإنه ليس نفسه وأنت صغير جداً على أن تفهم ذلك».

قلت: « هذه كنيسة أمي، أحبها».

قال جدي: « لقد كانت كنيسة والدك أيضاً، كم أحب أن أؤمن بأنك ستبقى أميناً لها، لكن كلما تقدمت بي السن ازددت ثقة بأن أحداً منا لا يملك الحقيقة الكاملة، ربما سندركها في السماء آخر الأمر».

قلت: « إذن أبي وأمي يعلمان كل ما يتعلق بها في الوقت الحاضر، وأنت أيضاً ستعلمها قريباً يا جدي».

كنت قاسي الفؤاد كمعظم الأطفال. وكنت أفترض أن جدي العجوز لا بد سيموت قريباً، ورغم ذلك كنت أفترض أيضاً أنني لا بد سأراه ثانية قبل أن يمضي وقت طويل. لكن الافتراض الأول فحسب كان صحيحاً.

قال موافقاً: « أجل، لا يمكنني أن أنتظر لوقت طويل. لكن مهما علموك يا حفيدي تذكر أنك قد عُمدت في كنيسة انكلترا التي من أجلها قام ملكنا الراحل تشارلز الأول، صاحب الذكرى المباركة، بوضع رأسه فوق لوح الإعدام. وتذكر أيضاً بأن الدين الخالص وغير المدنس أمام الله والأب، هو بأن تزور اليتامى والأرامل في مرضهم، وبأن تحفظ نفسك غير ملطخ بالعيوب الأخلاقية للعالم».

كررت: « أن أحفظ نفسي غير ملطخ بالعيوب الأخلاقية للعالم. هل العالم إذن مكان قذر جداً يا جدي؟».

قال: « ليس بالنسبة لك، كما آمل يا حفيدي الصغير. لكنه ربما سيكون كذلك، آه نعم، سيكون كذلك».

استمتعت بالرحلة الطويلة على ظهر الجواد نحو الشمال برفقة توم هابرستي. لم أكن قد غادرت إلفورد في حياتي.

قدنا الحصان عبر لندن ورأيت جسر لندن ومبنى القديس بول الجديد والذي كان قيد الإنشاء ليحل محل المبنى الذي دُمِّر في حريق لندن الكبير.

سرنا خارجين من لندن عبر هاي غايت وتابعنا ببطء نحو كوفنتري، وقد كانت رحلة طويلة شاقة بالنسبة لصبي صغير لم يسبق له أن غادر بيته من قبل. وبينما كنا نعبر إحدى قرى آمبتونشاير الشمالية أراني توم هابرستي ممراً ضيقاً ممتداً نحو الشرق. قال: «الممر الضيق القائم هناك يمر بناسباي، وذلك حيث قُتل جدك الأكبر السيد نيكولاس كريغ منذ ٤٥ عام. بعد ذلك سنتخذ طريق بريستون حيث جُرح جدك وقتل أخوه آمبروز. تلك كانت أيام سيئة جداً ومن المحتمل أن يكون هناك المزيد منها في طريقها إلينا».

بدا أن توم هابرستي العجوز يعرف الكثير عن«الأيام السيئة جداً كما سماها. لقد كان أكبر بقليل من سن الشباب عندما ذهب ليخدم في الجندية مع سيده. أخذني إلى داخل الكاتدرائية في ليتش فيلد ليريني المكان الذي وضع فيه ذوو الرؤوس المدوّرة(١) أحصنتهم في الاسطبل.

سألته: «هل هذا النوع من الكنائس هو كنيستك يا توم».

هز توم هابرستي رأسه وقال: «كلا هناك الكثير منا في الشمال مخلصون للدين السابق، لكننا نكتم ذلك. أعتقد أن والدك قد بدّل دينه».

أجبته: «نعم، لكن جدي في إلفورد قال إنه جزء من نفس الدين الرئيسي بكل ما في الكلمة من معنى».

قال توم هابرستي: «لو اعتقد كل إنسان بذلك لما كان هناك عمليات إحراق في ساحة السوق هنا، ولما وجد أيضاً أناس متضررون بسبب دينهم كجدك. إنه لعالم غريب سيدي نايجل، وكلما تعلمت سريعاً أن تحفظ لسانك صامتاً في فمك كان ذلك أفضل».

أثناء سيرنا باتجاه الشمال ازدادت الطرقات سوءاً وكذلك النُزُل، لكن وضع النزل السيء ذلك لم يكن ليهمني كثيراً ذلك أنني كنت، عند كل محطة توقفنا فيها، غير قادر من شدة تعبي على فعل أي شيء عدا أن أزحف إلى زاوية سرير قذر وأدنو من كتفي توم هابرستي المفتولتي العضلات التماساً للدفء. ورغم أن العديدين قد شاركونا السرير، فقد استلقى هو بيني وبين العالم الخارجي. لم يكن هناك شيء ليخيفني في تلك الرحلة مادام توم هابرستي برفقتي، لكن في ذلك الحين لم أكن قد تعلمت بعد الشعور بالخوف.

لا بد أنني كنت في مكان ما في منتصف الطريق بين بريستون ولانكاستر عندما تذوقت لأول مرة خبز هافر أذكره جيداً، لأنه في ذلك الحين حاول توم هابرستي أن يبهجني قليلاً.

---

(١) جماعة مؤيدة للبرلمان ضد الملك في الحرب الأهلية الانكليزية في منتصف القرن السابع عشر، وهم عكس الكافاليرين الذين هم من الموالين لتشارلز الأول في حربه ضد البرلمان.

توقفنا عند نزل قائم على جانب الطريق وطلبنا خبزاً ولحماً ومِزّراً[1] وأحضروا لنا خبز هافر في سلة مع قالب من الزبدة الطازجة وبقية عظم الرسغ واللحم المحيط به من فخذ الخنزير وبعض البيض.

كان مكاناً متواضعاً، لكنهم تدبروا كل شيء جيداً وعلى نحو كاف.

قلت جاذباً كُمَّ توم: «من فضلك يا توم، إنني جائع. أعتقد أن بعض الخبز سوف يملأ معدتي تماماً».

قال: «هذا خبز سيدي نايجل. إن هذا الخبز هو كل ما ستحصل عليه في كريغز».

نظرت إلى فطيرة الشوفان الرفيعة المفتولة والموجودة في السلة، لم تكن لتشبه خبز جدتي في إلفورد.

وضع توم يده الكبيرة فوق يدي عندما كانت فوق الطاولة. قال: «أصغ يا سيدي نايجل، سوف تجد أشياء مختلفة قليلاً في كريغز عما هي في إلفورد».

نظرت إليه بشيء من القلق، وكان هناك إحساس غريب في معدتي. لم أستطع أن أفسره في ذلك الحين لكن فيما بعد اعتقدت أن هذا الإحساس كما لو أن كريغز قد مدت إصبعاً بارداً لتلمس أعضاء جوفي.

سألته: «أتقصد بأن الخبز مختلف يا توم؟».

تابع كلامه: «أقصد أن الناس مختلفون. ومن الممكن أيضاً أن تتراجع في الوقت الذي يتوجب عليك فيه أن تتقدم للأمام. عليك أن تتعلم بأسرع ما يمكن بأن تبقي فمك مغلقاً وأذنيك مفتوحتين، وألا تسأل أي سؤال. وابقَ بعيداً عن طريق السيد آسكو».

---

(١) شراب من نوع الجعة.

لم أستطع فهم ما يقول سألت : «طريقه؟» .

فسرّ توم : « أعني ابتعد عن دربه . إننا نتكلم بطريقة مختلفة هنا في الشمال ، لكنك ستتعلمها قريباً» .

قلت : «يبدو كل شيء مختلفاً بالنسبة لي يا توم» . وانتابتني موجة عارمة من الحنين إلى الوطن ، الحنين إلى جدي وجدتي وإلى بيت القس وإلى كل الأشياء الهادئة الموحية بالاطمئنان التي أحببت دفعت بالطعام بعيداً وعضضت على شفتي كيلا أبكي ، وبرغم كل شيء كان عمري ثماني سنوات فقط .

بذل توم هابرستي كامل جهده ليواسيني ، ولم يحاول أن يخبرني بالمزيد . أستطيع أن أتذكر إحساسي بالضياع وبالشوق للوطن كما لو أن ذلك حدث البارحة فقط . لكنني لا أستطيع أن أتذكر اسم المكان . هناك فقط كان يوجد إمرأة شابة كانت لطيفة معي وأعطتني زبيباً .

وصلنا في النهاية إلى لانكاستر ، وأراني توم القلعة الكبيرة منتصبة فوق النهر والجسر من تحتها .

أوقعت القلعة الذعر في نفسي ، إذ أنها بدت مظلمة جداً ومروّعة ، وقد أخبرني توم قصصاً حول أناس سُجنوا وعُذبوا هناك .

سألني عندما كنا ننظر إلى قوس البوابة الرئيسية : « هل يمكنك رؤية المسمار الشائك في أعلى الجدار القائم هناك في الأعلى؟ ذلك هو المكان الذي وضعوا فيه رأس الأب المبارك آرو سميث بعد أن فعلوا ما يحلو لهم به . وبرج دانغن القائم هناك ، حيث قاموا بحبس السيدة فيل من فوق الرمال لكونها صاحبية[1] . وذلك برج ويل على الجانب الآخر ، حيث قيدوا ساحرات بندل في السراديب قبل أن يخرجوهن ويشنقوهن» .

(١) الصاحبيّ : واحد من طائفة الأصحاب أو المهتزين وهم يؤكدون على البساطة في الملبس ويكرهون الطقوس الخارجية ويقاومون الحرب .

سألت حين انصرفنا لنعبر الجسر : « هل هناك أية ساحرات الآن يا توم؟» .

قال : «لا تهتم سيدي نايجل ، ليس هناك ساحرات في مكان قريب بشكل يسمح لهن أن يسببن لك الأذى . وإذا قال أحدهم أن السيدة إيزابيل بليث ساحرة فهذا كذب ، ويمكنك أن تقول لهم ذلك . إنها فقط مصابة بمس من الجنون ، السيدة المسكينة» .

سألت بخوف : «هل ، هل تعيش في كريغز؟» .

«نعم ، وأين عساها أن تعيش إذاً؟ لقد كانت ابنة السيد آمبروز ، وهي بالإضافة إلى ذلك أحد الورثة الرئيسيين . عندما ألقوا القبض على زوجها في لانون في تلك المؤامرة الكاثوليكية اللعينة ، أصاب الخبل حواسها ، كان ذلك عندما ولدت الآنسة جوديث» .

تلك كانت المرة الأولى التي سمعت فيها عن جوديث . سألت : «هل تعيش في كريغز أيضاً؟» .

«نعم ، إنها ستلعب معك على ما أعتقد . إنها فتاة على قدر كبير من الجمال» .

ازدادت الطريق سوءاً بشكل مطرد ، لكن توم هابرستي كان يعرفها جيداً . كنت أزداد تعباً ، وكان هناك مابدا لي أنه جبل عظيم لاح في الأفق بصخور منهارة ، وأجراف شديدة الانحدار .

مررنا بقرى صغيرة بأكواخ مبنية من الطين والوتل [٢] ومسقوفة بالقش ، وبيت كبير أو نزل حديث البناء مشيّد من الحجارة يظهر من حين لآخر .

هبت الريح من جانب الخليج وكان لها طعم مالح . قال توم : «إنه المد» . وتسارعت نبضات قلبي مهتاجة . كنت غريباً عن البحر .

---

(٢) قضبان تضفر مع الأغصان والقصب تستخدم في إنشاء الجدران أو السقوف أو الأسيجة .

عندما وصلنا كريغز كان الوقت مساء. سرنا بالجواد على طول مرج البحر، ورأينا البيت المتوضع على نحو منخفض، المنقّر بنوافذه المزودة بأعمدة حجرية، والتي قسمتها إلى أجزاء، والمضاءة بوهج غروب الشمس القادم عبر الخليج.

عندما وصلنا السور البحري، خرجت جوديث من الشرفة الحجرية المنخفضة وقالت: «إذاً فقد أحضرته يا توم، إنه صغير جداً».

نزلت عن ظهر الحصان بسأم وتناولت يدي. لقد كانت طويلة بالنسبة لعمرها وأكبر مني بثلاث سنوات.

قالت: «سوف آخذك إلى الجد».

نظرت إلى توم هابرستي ملتمساً رأيه، لكنه هز رأسه وقال بينما كان يجمع العنان مع بعضه:

«اذهب مع الآنسة جوديث كصبي طيب». وانصرف نحو الاسطبلات. بدا أنه الصلة الأخيرة مع الحياة الماضية، وقد فقدته قبل أن أدخل كريغز. يبدو لي غريباً ألا أستطيع تذكر وصولي للمرة الأولى إلى كريغز بشكل أكثر وضوحاً. أتذكر تخلفي عن الآخرين لأنظر إلى غروب الشمس وجوديث تشدني إليها بقوة. أذكر الأب بنديكت اللطيف يسرع للأمام ليأخذني بيده. أما فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، فكل ما أذكره هو الغرفة الكئيبة ذات الجدران المكسوة بألواح خشبية، والسلم اللولبية المعتمة صاعدة للأعلى نحو الشكل البشري المجهول الطويل المظلم الغامض لعمي آسكو واقفاً بجانب كرسي جدي بجانب الموقد.

قالت جوديث بصوتها الواضح العالي النبرة: «لا بد أنه أحمق، إنه لم يتفوه بكلمة».

كانت الغرفة المظلمة تدور وتدور ببطء من حولي، وكان كل ما يشغل اهتمامي هو أن أبقى متوازناً.

أعتقد أن الأب بنديكت هو من أشفق علي وأخبر خادمة بأن تضعني في السرير.

أذكر كيف انسلت الغرفة بعيداً من ذاكرتي حين ارتقيت السلم اللولبية، وأُرشدت إلى الغرفة الصغيرة الخالية من الأثاث الموجودة تحت الروافد التي ستكون مأواي.

أذكر أنني بكيت إلى أن نمت، واستيقظت متنهداً بأنفاس سريعة في الليل لأرى امرأة واقفة في ضوء القمر.

وضعت أصابعها إلى شفتيها وهمست: «اسكت! سوف يسمعونك وعندها سيشعرون بالابتهاج».

ضحكت لنفسها على نحو نصف مكبوت، وراقبتها مروّعاً. فجأة، انقضّت علي وجرتني بشكل غير كامل إلى خارج الفراش. هتفت متعجبة: «لكنك صغير جداً! آه، كان عليك ألا تدعهم يمسكون بك، رغم ذلك كنت صغيراً جداً، سوف يمر وقت طويل». عندئذ طوقتني بذراعيها، وبدأت بالغناء بصوت منخفض عذب.

ولأنني كنت صبياً ذا حجم صغير جداً ومعتاداً على هدهدات جدتي، أخفيت وجهي في الملابس البالية فوق صدرها وهكذا، غططت في النوم.

في الصباح التالي كانت جوديث لطيفة معي. قال الأب بنديكت أن ذلك اليوم عطلة، ولذلك أخذتني خارجاً على طول الشاطىء، وأرتني الرمال الممتدة الرحبة، والصخور والجدول المتدفق خلف المنزل حيث كانت تأتي حمولات عمي آسكو بحلول الليل. قالت جوديث: «ولا تسأله أية أسئلة عن هذه الحمولات، وإلا فإنه سيضربك».

سألت: «هل يضربك يا جوديث؟ هل أنت خائفة منه؟».

ضحكت جوديث بتهكم: «اه، كلا لست خائفة منه، سوف أتزوجه عندما أكبر».

سألت في دهشة: «لماذا؟».

أجابت: «لأنه يريد أموالي. لقد تم ترتيب الأمر برمته منذ وقت طويل. سأصبح غنية عندما تتوفى والدتي وهي لن تعيش طويلاً. إنها مجنونة».

تذكرت المرأة التي غنت لي في الليل، قلت: «إنها لطيفة».

قالت جوديث بازدراء: «إنك لا تعلم شيئاً عن الأمر. إنك لا تعدو أن تكون صبياً صغيراً أحمق».

أجبت غاضباً: «لست أحمق!».

«آه، بلى، إنك كذلك، وإلا لما أتيت إلى هنا».

«وما كان عساي أن أفعل إذاً؟».

«أن تهرب!».

لم يكن من عادتها أن تشرح قصدها، وفي ذلك الحين تماماً، أتى توم هابرستي على طول الشاطىء برفقة داافت ويلي وأخذنا لجمع أصداف الكوكل[1]. عدنا إلى المنزل فرحين وملطخين بالوحل كأي أطفال عاديين. نادانا جدي وسألنا أين كنا. لا بد أنه كان رجلاً رائعاً فيما مضى، جدي، لكن أعوام السكون كانت قد جعلت منه بديناً، وليالي الألم العديدة قد شوهت جسده الذي كان فيما مضى قوياً، ورسمت خطوطاً عميقة على وجهه. تذكرت للحظة جدي الآخر، وركضت للأعلى إلى كرسيه، وأخذت أثرثر بلهفة كما اعتدت أن أفعل في إلفورد. سحبني أليه وأنصت بوقار، بينما وقفت جوديث على مقربة تتفرج بابتسامة مزدرية صغيرة على وجهها. ووقف عمي آسكو مستنداً إلى الرف الخزفي فوق الموقد مراقباً إياها.

قال جدي: «إذن فقد انحل لسانك أخيراً يا حفيدي، وأنا الآن أرى فيك أباك لأنه كان يبدو إلى حد بعيد كطفل عندما كان يدخل راكضاً من الخليج. أليس كذلك يا آسكو؟ أخبرني أليس له عينا بيلهام؟».

قال آسكو بشكل جاف: «بلى».

لم أعتقد أنه أحبني أكثر من أجل ذلك. كان ذلك قبل أن أكتشف سبب خوفي من عمي آسكو، بذلت أقصى جهدي كي تهدأ أعصابي.

---

(١) حيوان من الرخويات ذو صدفتين على هيئة قلب.

كان هنالك دروس علي أن أحفظها للأب بنديكت. كنت سأحفظها بشكل أفضل لو لم تكن جوديث زميلتي في الدرس. لازلت أعتقد أن على الصبي، حتى في عمر الثالثة، ألا يوضع ليدرس مع فتاة تكبره بثلاث سنوات وحادة الذكاء. لكن جدي في إلفورد كان قد علمني جيداً. لقد استخفت بي جوديث كما يحلو لها، غير أنها لم تستطع أن تجعلني أبدو غبياً. ولم يحاول الأب بنديكت أن يغير ديني. لم أتساءل عن ذلك في ذلك الحين، لكنني أتساءل الآن. أعتقد أن آسكو قد أصر على أن رغبات والدي يجب أن تحترم. وإذا كان الأمر كذلك، فلأنه تمنى في يوم من الأيام أن يضع حاجزاً بيني وبين جدي.

لم أطرح أبداً أية أسئلة حول السفن التي كانت تنتظر عند مصب الجدول عندما يكون المد عالياً، أو عن الجياد المعدة للتحميل التي كانت تهبط برفق إلى أسفل الممر الضيق ليلاً. ولقد كنت صغيراً جداً على أن أتساءل كيف كان لأسرة، من المفترض أنها مفلسة بسبب ولائها، أن تأتي بأنواع النبيذ والمشروبات الروحية الأجنبية النادرة التي كانت تزين مائدتها، أو بالتخريمات الشفافة التي كانت تعلو رقبة ومعصمي آسكو. ومع ذلك فقد كنت فضولياً، وعندما وجدت أنني أستطيع أن أتسلل عبر النافذة الصغيرة تحت الجملون [1]، وأن أزحف إلى أسفل السقف المائل للمرحاض الخارجي نحو الفناء.

لم أستطع أن أقاوم الإغراء بأن أرى المزيد. فعلت ذلك مراراً. كنت أُفتن بالمشهد الساكن.

كان الرجال يفرغون الحمولة دون إحداث أي صوت، والجياد الصبورة تنتظر حمولتها، وكان عمي آسكو واقفاً يراقب في الظلال. لكن في إحدى الليالي كان هنالك حمولة يجب نقلها. وهذه الحمولة كانت رجلاً مقيداً دامياً وضعيفاً، وقد تم حمله كزند خشب بين فرانك ليمون ودافت ويلي. لم أستطع أن أتبين فيما إذا كان ميتاً أو على قيد الحياة. عدوت فوق السطح الشديد الانحدار وقد أصابني الغثيان من رهبة ذلك المشهد، ولم أنم ثانية تلك الليلة. في اليوم التالي، كنت مخبلاً في دروسي، وقام الأب بنديكت بتوبيخي بلطف.

---

(١) الجزء الأعلى المثلث الزوايا من جدار مكتنف بسطحين متحدرين.

قال: «لا أريد أن أضطر إلى إخبار جدك».

قالت جوديث: «إذا أخبرت العم ألغرنون بشأن نايجل فإن ابن العم آسكو سوف يضربه بالسوط، لم لا تضربه بالسوط بنفسك يا أبي؟».

وضع الأب بنديكت يداً رقيقة ضعيفة فوق جبيني وابتسم مجيباً إياها: «لأنه متعب يا جوديث، والصبية المتعبون لا يبلون بلاء حسناً في دروسهم. هل كنت مستيقظاً في الليلة الماضية يا نايجل؟».

غمغمت بشيء حول كوابيس وصداع، أما هو فقد أرسل كلانا للخارج إلى أشعة الشمس.

بينما كنا نتجول على طول الشاطئ، رأيت العم آسكو على مبعدة منا، وعادت إلى أحداث الليلة السابقة بكل ما فيها من رعب.

سألت جوديث بنزق: «ما بك يا نايجل؟ لم لا يمكنك أن تجيب عندما أتكلم إليك؟ تبدو كما لو أنك قد رأيت شبحاً».

قلت: «أعتقد أنني قد رأيت شبحاً بالفعل». وعندئذ، أخبرتها بكل ما رأيت. شعرت بتحسن لمشاركتها لي بالسر. لكنها عندئذ سخرت مني بأنني جبان، ولدى رؤيتها لعمي آسكو يقترب صرخت له بصوتها العالي: «مارأيك يا ابن العم آسكو؟ لقد كان نايجل يتجسس عليك!».

انعطف آسكو وقدم نحونا. لم أستطع أن أوقف جوديث عن الكلام. ربما أدركت ما سيكون عليه الأمر.

عندما أخبرته بكل شيء، لم يتفوه بكلمة، لكنه أمسك بي من ياقتي وهزني إلى أن اصطكت أسناني.

عندئذ، كسر عوداً من إحدى الشجيرات التي نمت بين الصخور وضربني بها، وضحكت جوديث.

عندما انتهى من ضربي تكلم أخيراً. أوقفني أمامه وأجبرني على النظر في وجهه، ثم قال: «اصغ الآن يا نايجل. إذا تجسست علي فلن يكون ذلك في مصلحتك وإن لم يكن بمقدورك أن تحفظ لسانك صامتاً في فمك فسأجعلك تتمنى لو أنك لم تولد أبداً، هل تفهم ذلك؟».

قلت: «نعم سيدي». بعد ذلك شعرت بالبرد إلى حد بعيد.

عندما ذهب اسكو، وضعت جوديث سترتي حول كتفي، لكنني لم أرغب بالحديث معها. جلسنا هناك في صمت، وهبت ريح باردةقادمة من جهة الخليج.

قـالت جـوديث: «لا تغـضب مني يا نايجل، لم أتوقع أنه سيـضـربك بتلك القسوة».

عضضت على شفتي واستدرت بعيداً عنها. لم أشعر أبداً في حياتي بالوحدة القاتلة.

قالت جوديث: «إنني اسفة يا نايجل».

همست فجأة: «جوديث، ماذا تعتقدين أنهم قد فعلوا به؟».

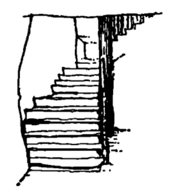
سألت: «تقصد الرجل الذي كان مقيداً؟».

أومأتُ. قالت بلا مبالاة: «ربما كان ميتاً مسبقاً، أو ربما كانوا سيغرقونه في الخليج، أو ربما سيبيعونه ليعمل في المستعمرات في أميريكا. ذلك ما يحدث للناس غالباً. أعتقد أنني أفضل أن أكون ميتة. ألا تفضل ذلك؟».

وافقتها قـائلاً: «بلى. لكن يا جوديث، العم اسكو لن يفعل ذلك بنا أليس كذلك؟».

قـالت جوديث: «ليس بي. وليس بك مادام جدك على قيد الحياة. بعد ذلك، ربما ستكون كبيراً كفاية لتعتني بنفسك إذا عشت لذلك الوقت». ضحكت، وجذبتني للأعلى لأقف على قدمي.

ثم ركضت أمامي نحو المنزل، وتبعتها مكرهاً. أدركت في ذلك الوقت ما معنى أن أكون وريث كريغز، أو أنني اعتقدت ذلك. وفي تلك الليلة، عندما صعدت للطابق العلوي، وجدت النافذة الصغيرة في الجملون قد أغلقت بقضبان معدنية.



الفصل الثالث

مؤامرة في كريغر



كنت سأتجنب ابن عمي نيكولاس في ذلك الصباح الأول. كان بمقدوري أن أفعل ذلك. لم يكن لدي أية رغبة بالتجسس عليه، ولو أنني كنت قد تعودت منذ زمن بعيد على أن أكون أداة عمي اسكو في التجسس عليه.

نهضت متأخراً ونزلت إلى الطابق السفلي مغمغماً بأعذار ليخبرني الأب بنديكت في نهاية الأمر أن عمي قال بأنه لن يكون هناك دروس اليوم. لم أتوقف لأشكره إذ سمعت صوت آسكو في الخارج، وهكذا فررت بسرعة وانسللت إلى خارج الباب الجانبي لآوي إلى المأمن في البستان الذي امتد في غير اتساق فوق جانب التل الشديد الانحدار خلف المراحيض الخارجية. ظننت أنني لا بد سأكون بعيداً عن عيون الآخرين هناك، ومع ذلك فقد آتى ابن عمي نيكولاس سريعاً بحثاً عني وقال أن عمي قد أرشده ليأتي إلى هنا. كنت أعلم أن الأب بنديكت لن يفشي سري، لا بد أنه كان هناك شخص آخر يراقبني، ربما جوديث. صعد نيكولاس

إلى أعلى الطريق الشديد الانحدار وجلس إلى جانبي على الجدار الحجري المنخفض الذي سوّر البستان محاطاً من جانبيه بصف من أشجار الطقسوس الهرمة.

كان يوماً دافئاً بالنسبة لذلك الوقت من السنة، وظهرت أزهار الربيع في الزوايا المنعزلة تحت أشجار التفاح. سألني: «لم ضربت في الليلة الماضية يا نايجل؟».

أجبت باقتضاب متحولاً بعيداً عنه: «لأنني تغيبت عن المدرسة دون إذن». لم أكن أريد أن أتكلم معه.

سأل: « أدائماً تضرب إلى الحد الذي تقارب فيه الموت عندما تتغيب عن المدرسة دون إذن؟».

غمغمت قائلاً: «أحياناً، لكنني لست مهتماً لذلك».

قال: «أفهم»، ناظراً إلي بتلك العينين الحادتين اللتين أجبرتاني على أن أنظر فيهما، واللتين رأتا أكثر مما أردت لهما أن تريا. كنت أتألم في كل جزء من أوصالي. لم أعد بحاجة إلى أسئلته بقدر ما كنت أسعى إلى كسب ثقته. وبرغم ذلك، فإنه سيتوجب علي أن أواجه عمي بجرأة قبل أن ينتهي اليوم.

تابع نيكولاس: «لم لاتستطيع الوثوق بي يا نايجل؟ لا أصدق بأنك لا تثق بأحد مطلقاً».

أجبت: «أنا لا أثق بأحد، وأنت أيضاً عليك أن لا تثق بأحد».

قال نيكولاس: «إن لم أفعل فلا بد أنني سأجن. إن الحياة بتلك القيمة ليست جديرة بأن نعيشها، وقد آن لك أن تكتشف ذلك. ولهذا السبب فإنني سأمنحك ثقتي».

حذرته قائلاً: «من الأفضل لك ألا تفعل». وبدأت بالانزلاق للأسفل من على الحائط كما لو أنني تخليت عنه.

لم أكن في عجلة من أمري في أن أتبنى الدور الذي كنت أعلم بأنني لا بد سأقوم به في النهاية.

أمسك بي من ذراعي فجفلت. اعتذر، لكنه لم يكن ليدعني أذهب. قال: «أصغ يا نايجل، لقد أخبرتني بأنهم مخلصون هنا وأنا أصدقك. أخبرني الآن، من علي أن أزور من الآخرين؟ هل لا يزالون مخلصين؟ أم أنني أسير نحو فخ؟».

قلت: «سوف تجد ولاء، لكنه سيكون ولاء سرياً. كما أنك لن تستفيد شيئاً إن شاركت في التآمر، إذا كان هذا مايدور في ذهنك. لم يمض سوى وقت قصير على المحاكمات في مانشيستر.

ألم تسمع بما قاله القاضي لبعض السادة الكاثوليك بعد أن برأهم؟»امضوا ولا تقترفوا المزيد من الذنوب لئلا يصيبكم ما هو أسوأ. «لن يقوم أي كاثوليكي أو سيتوارتي [1] برفع رأسه، إذا كان هذا ما تسعى وراءه».

«ولاحتى آسكو كريغ؟».

قلت: «إنه الأقل احتمالاً بين الآخرين كي يقوم بذلك على الإطلاق».

أخفض ابن عمي نيكولاس من صوته كما لوكان لأشجار الطقسوس المسنة آذاناً. في الحقيقة، كان لها آذان في بعض الأحيان، إذ كان من عادتي في أكثر الأحيان أن أتخفى بين أغصانها عندما كنت أريد أن أبتعد عن كل الناس.

فسر قائلاً: «لم ات بأية خطة محددة. علي فقط أن أستعلم وأستكشف حقيقة الوضع. وبرغم ذلك، هناك فرصة بأن يدعم الفرنسيون محاولة أخرى، وجلالته متفائل بالنتيجة، حتى إن دوق بيرويك هو الآن في لندن وهناك آخرون مكلفون بنفس المهمة في أمكنة أخرى. ومع ذلك، يجب أن أعترف بأنني أشك ما إذا كانوا سيرسلونني إلى هنا لو لم أخطط مسبقاً لأن أجيء بأخبار وفاة والدي، وأن أسعى وراء الحصول على إرثي. لست جاسوساً، علاوة على ذلك ليست لدي تجربة في التخطيط للمكائد، وكل ما لدي هو القليل من الرغبة في كسبها. إذا فشلت هذه المحاولة، فإنني أنوي أن أبحث عن الثروة في أميريكا. حتى أنني قد أعزز من نفوذ الملك بفعلي ذلك، لكن ذلك موضوع آخر».

(١) أحد أنصار جيمس الثاني ملك انكلترا أو آل ستيوارت بعد ثورة ١٦٨٨.

سـألت : «ما هو إرثك؟» . كنت أعتقد أنه كلما حدثني باقتضاب أكثر حول جلالة الملك في سانت جيرمان أو أية مؤامرة لإعادته إلى عرشه ، كان ذلك أفضل له .

أجاب نيكولاس : «لآلىء روزيت . لقد كانت تخص جدتي ، وكان والدي يخبرني بأنه لا صدوع فيها وأنها تساوي ثروة رغم أنه لم يرها أبداً . إذ أنه عندما توفي جدي-والد جدك ، نيكولاس كريغ ، في ناسباي قامت جدتي بإخفائها سرياً . قالت بأنه قد أضاع كل ما كان يملك لأجل القضية الملكية ، وقد كانت لديها رغبة بأن تبقي شيئاً ما من أجل طفلها الوحيد . كان ذلك هو أبي ، بيريغرين كريغ ، الذي كان عمره ثلاث سنوات في ذلك الحين . كانت تكره أولاد زوجها ، وكذلك السيتوراتيين بسبب كل ما فقدته .

بيد أنها لم تستطع أبداً الاعتماد على بيريغرين في أن يشاركها كل ما يملك ، وهكذا مات سرها معها» .

سألت : « أتقصد السر المتعلق بالمكان الذي خبأت فيه اللآلىء؟» .

أومأ نيكولاس موافقاً .

قلت : «إذا عليك ألا تقلق . لابد أن عمي اسكو قد وجدها منذ وقت طويل» .

قال نيكولاس : «إذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أنه قد احتفظ بها من أجلي» . أما أنا فقد كنت مندهشاً لسماعه يتكلم بتلك الحماقة الشديدة . «لكن من غير المحتمل أن يكون الأمر على هذا النحو ، وإلا فإنه كان سيبعث رسالة . لكن علينا الآن أن نسعى لإيجادها ، لأنني سوف أكون بحاجة لها إذا أردت أن أنفذ الخطة التي تدور في بالي» .

لم أستطع أن أسأله ما كانت الخطة . وصلّيت كي لا يخبرني . ظهرت جوديث في تلك اللحظة بالذات عند أدنى الطريق .

قال : «إنها جميلة ، أليس كذلك؟» .

أجبت بعناد: «لا أعتقد ذلك. إنها لا تعدو كونها فتاة. أعتقد أنهن جميعاً متشابهات».

ضحك قائلاً: «سوف تفكر بطريقة مختلفة عندما تكبر، ويوماً ما ستكشف أن ابنة عمك جوديث هي من أجمل الأشياء التي خلقها الله على الإطلاق».

بدأت: «تقصد من أكثر الفتيات خداعاً-» عندئذ انفجر نيكولاس غضباً في وجهي وقال:

«إذا كان علينا أنا وأنت أن نكون أصدقاء يا نايجل، عليك أن تتعلم بأن تحفظ لسانك مهذباً في فمك عندما تتكلم عن ابنة عمك جوديث أو أية سيدة أخرى فيما يخص هذا الأمر».

احتفظت برأيي الشخصي، برغم كل شيء، فإن نيكولاس وجوديث لم يعنيا شيئاً بالنسبة لي،

قلت: «حسن جداً يا سيدي. إن الأمر سيكون سِيّان عند عمي اسكو عندما يتزوجها».

سأل: «ماذا تقصد؟».

قلت: «ألم تعرف؟ عليهما أن يتزوجا يوماً ما، وعندئذ فإن جميع أموال جوديث ستؤول إلى عمي اسكو وسيكون ذلك أفضل لكليهما، وأنا لست مهتماً».

صعدت جوديث الطريق الضيق ببطء. كانت تلبس معطفاً فضفاضاً مخملياً حول كتفيها، وتحت المعطف أحدثت تنورتها الحريرية حفيفاً وتلاطمت كالموج في الريح. حتى أنني ظننت بأنها كانت تمشي برشاقة. وقف ابن عمي نيكولاس على قدميه وانحنى انحناءة كبيرة، أما أنا فقد ازدريته لمعاملته إياها كأميرة.

بعدئذ عدنا معاً إلى المنزل، وكانت هناك وجبة قد قدمت على المائدة في حجرة الجلوس الرئيسية.

حاولت أن أتجنب عيني عمي آسكو لأنني كنت أعلم أنهما كانتا تحملان تساؤلاً. فيما بعد، أشار إلى اسكو فتبعته إلى غرفته الصغيرة التي كانت تفضي إلى خارج الردهة.

سأل: «حسناً يا نايجل؟».

قلت: «إنه لا يزال يعتقد بأنه يستطيع الوثوق بك».

علّق عمي: «بشكل طبيعي. أخبرني الآن ماذا قال بالحرف».

غمغمت محاولاً تضييع الوقت: «ليس هناك الكثير لأخبرك به».

أصرّ قائلاً: «تابع». كانت الغرفة هادئة جداً.

تمتمت قائلاً: «إنه-إنه يعتقد أن بمقدوره الوثوق-بي».

وافق عمي آسكو: «بالطبع. ولهذا السبب أقوم باستخدامك. لكن عليك ألا تبالغ في إطالة صبري كثيراً يا نايجل».

لقد كان يفوقني ذكاء. كان على علم بأنني خائف منه. ومع ذلك بحثت بيأس في ذهني متسائلاً أي من أسرار ابن عمي نيكولاس ستكون الأقل خطراً لأخبره بها.

سأل آسكو: «لم أتى إلى هنا؟».

أجبت: «ليجيء بخبر وفاة أبيه».

علق عمي: «كان من الممكن لرسالة أن تفي بالغرض. ماذا أيضاً؟».

قلت وأنا أراقبه بحذر: «كي يأخذ لآلىء روزيت التي هي إرثه»، آملاً بأن ينم وجهه عما إذا كان قد وجد مكانها، بيد أنه لم يظهر شيئاً.

قال بنفاذ صبر شديد: «لقد خبأتها جدته الماكرة. إن عليه أن يخرجها من القبر إذا أراد أن يجدها. أم أنه يعلم مكانها؟ هيا، أخبرني هل يعلم؟».

هززت رأسي وقلت: «إنه يأمل أنك أنت تعلم ذلك. لكنه يعتقد أنك لو كنت تعلم لكنت أخبرته عنه».

علق آسكو باستهزاء: «علينا إذاً أن نبحث عنها سوية. أليس كذلك؟ وأن نأخذها للملك في سانت جيرمان عندما نجدها، أليس كذلك؟».



قلت بحزن مقطباً جبيني: «لا أدري».

«ماذا يجري في سانت جيرمان يا صبي؟ هل هناك مؤامرة جديدة؟ ماذا أخبرك؟».

أمسك عمي كتفيّ بيديه القويتين بإحكام وعلى نحو مؤلم، وأُجبرت على أن أنظر إليه في وجهه.

قلت لاهثاً: «ليس بالكثير يا سيدي. لقد أتى فقط ليرى كيف هي الأمور، وقد أخبرته بأن الأمور مطمئنة للبال جداً».

«هل سيبقى لفترة قصيرة؟».

«أعتقد ذلك». أردت أن أبعده عن موضوع سانت جيرمان والملك الموجود على الجانب الآخر من البحر. بحثت سريعاً في عقلي محاولاً أن أجد جزءاً صغيراً من حديثنا يمكن ألا يكون ذا أهمية.

أضفت في النهاية: «إنه يقول أن ابنة عمي جوديث جميلة».

ازدادت قبضتاه إمساكاً بكتفي على نحو عنيف. «هو يقول ذلك حقاً؟ ماذا يقول أيضاً عنها؟».

«لقد وبخني لأنني دعيتها بالفتاة السيئة، وأنا قلت بأنك ستتزوجها».

«وماذا قال عندئذ؟».

«لا شيء يا سيدي. مشت هي إلى أعلى الطريق وانحنت له باحترام ونزلنا جميعاً سوية».

«أصغ إلي الآن يا نايجل، عليك أن تستمر بالمراقبة. سوف تراقبه وستراقب ابنة عمك جوديث، وسوف تخبرني بكل ما يفعلان ويقولان».

غمغمت قائلاً: «وماذا إن لم يكن هنالك ما يستحق المراقبة؟»

قال عمي: «إن الحكم بشأن ذلك عائد إلي، ما إذا كان الأمر مكيدة أو عقد من اللآلىء أو أي شيء آخر يا نايجل».

عندئذ أطلق سراحي، وانسللت إلى غرفتي. وجدت ابنة العم إيزابيل هناك. إنها نادراً ما كانت تنزل إلى الردهة الكبيرة، لكنها كانت تتجول حول السقائف كشبح متعب.

قالت مؤنبة إياي: «كنت تتحدث إلى الشيطان يا نايجل». وكنت في قرارة نفسي متأكداً من أنني كنت أفعل ذلك.

قالت: «لا بأس لكن عليك ألا تدع بيريغرين يبقى».

قلت: «إنه ليس بيريغرين. إنه ابن العم نيكولاس. وهو لن يمكث لوقت طويل جداً».

قالت: «آه، لكن الأمر برمته يتوقف على أشجار الطقسوس الموجودة في أعلى البستان، وهي مليئة بالعناكب. ألم تلاحظ وجودها عندما كنت معه هناك؟».

قلت: «أخشى أنني لم ألاحظ العناكب كثيراً يا ابنة العم إيزابيل». كنت دائماً أشعر بالسرور حين أسايرها. لقد كانت مجنونة، لكنها لطيفة.

«ألم تلاحظ ذلك؟ إذاً عمّ كنتما تتحدثان لذلك الوقت الطويل؟».

قلت: «عدة أمور»، وفجأة آنذاك، خطرت لي فكرة فهمست: «ابنة العم إيزابيل، هل بمقدورك أن تحفظي سراً؟».

«آه-بل والكثير من الأسرار- لكن ليس في بيوت العناكب- نايجل- إنها ستصبح مغبرة كثيراً. آه، لكن عليك ألا تصبح مغبراً يا نايجل، عدني بذلك!».

بدأت تلوي يديها المتشابكتين توجعاً، وحاولت أن أهدئها لأنها عندما تُثار مشاعرها، فإنك لا تستطيع أن تخرج منها بشيء مفهوم أبداً.

قلت: «لا تقلقي يا ابنة العم إيزابيل. إذا تغبرت فإنني سأدعك تزيلين الغبار عني».

قالت منتحبة: «هذا النوع من الغبار لن يُزال. أما كنت تعرف ذلك؟».

فجأة، وقفت ساكنة تماماً تصالبت يداها فوق صدرها ورددت بصوت خفيض:

لا تخف بعد الآن حرارة الشمس

ولا ثورات رياح الشتاء الغاضبة

عليك أن تقوم بمهمتك الدنيوية

لقد انهارت المبادىء الوطنية

والفضل لعاقبتك

لا بد لجميع الصبية والفتيات الشقراوات

أن يؤولوا رماداً

كما هي حال مكانس المداخن

همست أخيراً: «جميعهم يصبحون رماداً يا نايجل. لقد قمت بمراقبتهم واحداً تلو الآخر. والآن يقولون أن بيريغرين قد توفي. لكنني رأيته يتكلم معك في البستان».

فسرت لها مرة ثانية بصبر: «لم يكن ذلك بيريغرين. لقد كان ذلك ابنه نيكولاس. وأريد أن أعرف ما إذا كان بإمكانك مساعدته يا ابنة العم إيزابيل. أخبريني هل لديك أية فكرة عن لآلىء روزيت؟» وضعت إصبعاً إلى شفتيها وأومأت.

سألت: «هل تعلمين أين هي؟»

أومأت ثانية وهمست: «لكن عليك ألا تخبره. إنه دائماً يبحث عنها، علي أن أستمر في إخفائها».

«إذاً فقد وجدتها؟».

«آه، منذ زمن بعيد، منذ زمن بعيد جداً جداً جداً. لقد كانت مخبأة في البستان، كما تعلم، ولم أستطع أن أتركها هناك- لم يتكلم أحد إليها أبداً. أحياناً تكون هنا». وأشارت إلى حنجرتها.

«وعندئذ أستطيع أن أتكلم إليها طوال اليوم. أما هو فلم يرها أبداً يا نايجل، أتعلم لماذا؟ لأنه يعتقد بأنني مجنونة. لكن انذاك تشعر هي بالخوف، نايجل، ويكون علي أن أخبئها ثانية بسرعة.

أحياناً تكون عالياً في القمر، لكن فقط عندما يكون القمر بدراً، نايجل، وعندها عليك ألا تبحث عنها لأن الأمر قد ينطوي على مخاطرة، وأحياناً أخرى تكون في طول البيت وعرضه، ويكون علي أن أركض وراءها وألتقطها بشص وأن أضعها في مكانها المألوف سالمة من الأذى، وعندها أشعر بأنني متعبة، نايجل، متعبة جداً!».

«إنني أسف لأجلك يا ابنة العم إيزابيل. أعتقد أن عليك أن تدعيني أمسكها لك في المرة القادمة. أخبريني، أين هي مخبأة الآن؟».

اقتربت مني وهمست في أذني قائلة: «حيث يُداس عليها بالطبع. بسبب اللآلىء وذلك الشخص الجدير بالازدراء».

فكرت بسرعة ثم سألتها بسذاجة: «هل أطؤها يا ابنة العم إيزابيل».

قالت بنظرة عارفة: «أجل، لكنك لست شخصاً جديراً بالازدراء يا نايجل، ذلك فقط لخداعه! لأنه يجب ألا يخمن».

همست: «أفهم، تقصدين أنها تحت أرض غرفته».

هزت رأسها. وللحظة شردت وغمغمت قائلة: «أسفل، أسفل، أسفل»، أسفل المنحدر هكذا غنت فيليس». لكن من كانت فيليس هذه؟ لا أستطيع أن أتذكر. من هي يا نايجل؟»

قلت: «لست متأكداً. لكنني أعتقد أنه لا بد أنها تبحث عن اللآلىء. أين ستجدها يا ابنة العم إيزابيل؟»

همست: «تحت درجات السلم» وعندئذ وضعت إصبعاً إلى شفتيها ثانية وضحكت.

وتذكرت لوح الخشب عند زاوية السلم الذي كان يعطي صوتاً كتيماً تحت قدمي.

همست: «إنه سر يا ابنة العم إيزابيل!».

أومأت قائلة: «وسر مغبر جداً!» تنهدت، وآنذاك انفجرت بنوبة متقطعة من الضحك. «آه، يا للسر المغبر الشيطاني!» عندئذ بدأت بالرقص مغنية لنفسها «أسفل المنحدر هكذا غنت فيليس». رقصت خارج الغرفة، وضحكت على نحو متقطع عند قمة الدرج. وطول فترة المساء لم يكن بمقدوري أن أتسكع قرب الدرج، ولم يكن هناك فائدة من مقاطعتها، وكانت اللآلىء آمنة بشكل كاف إن كانت هناك. قررت أن أبحث عنها في الصباح، لكن لم يكن هناك فائدة من فعل ذلك، لأنها كانت قد سبقتني إلى ذلك المكان ضاحكة بينها وبين نفسها في خفوت وهي تبربر بطريقة أظهرت بأنها كانت تتقدم تدريجياً صوب أحد أيامها السيئة. أدركت أن علي ألاأحاول الحصول منها على شيء مفهوم، ولهذا انطلقت بخفة بحيث لم تكد تلحظني متجاوزاً إياها ونزلت الدرج.

خرجت من البيت في وقت مبكر من ذلك اليوم إذ لم يكن هناك دروس هذه المرة أيضاً.

كانت جوديث قد صعدت نحو البستان لتقطف أزهار الربيع، ورأيت ابن عمي نيكولاس يتبعها وينضم إليها هناك. وقفا يتكلمان تحت إحدى أشجار

الطقسوس الهرمة، ورأيتها ترفع باقتها من أزهار الربيع لكي يستروح عطرها الغابي الخفيف. وكالطيف، زحفت إلى أعلى جانب الجدار إلى جانبهما لم يلحظا قدومي. غادرت ملجأ الجدار وانزلقت من شجرة إلى أخرى، ومع ذلك لم يرياني.

كانت جوديث تقول: «أتمنى أن تجمع لآلئك بكل سهولة يا ابن العم نيكولاس».

قال نيكولاس بقنوط: «لقد بدأت أتساءل عما إذا كانت ستجمع أم لا. بدا لي أن نايجل يعتقد أنه لو كان من الممكن اكتشاف مخبئها لكان قد وجدها اسكو منذ وقت طويل».

«نايجل؟ ينبغي عليك أن تدرك طبيعة الأمر أكثر مما عليك أن تثق بكلام نايجل عن أي شيء يا ابن العم. إنه جبان صغير، ومن المحتمل أنه قد وجدها بنفسه وخبأها».

هز نيكولاس رأسه ثم قال بثبات: «إنك تسيئين الحكم عليه يا ابنة العم جوديث: لو كان قد فعل ذلك لاعترف لي بما فعل».

«ليس هو من يفعل ذلك». ضحكت جوديث ضحكتها الفضية الرنين إلى درجة أجفلت شحروراً في الأغصان القائمة فوق رأسها». إنك لم تكتشف طبيعة نايجل بعد يا ابن العم نيكولاس، لكنك ستكتشفه قريباً. إنه فتى صغير كاذب فظيع. عليك ألا تصدق أي شيء يقول، خاصة إذا كان شيئاً يتعلق بي يا ابن العم نيكولاس، إنه يكرهني».

«ليس بإمكان أي شخص أن يكرهك يا ابنة العم جوديث».

«آه، حقاً؟ أخبرني يا ابن العم نيكولاس، عندما تجد لآلئك ماذا ستفعل بها؟».

ابتسم نيكولاس وقال: «هذا سري».

«آه، ابن العم نيكولاس، ألا يمكنك الوثوق بي؟».

بالطبع كان يثق بها. كان بوسعي أن أعرف أنه كان سيخبرها بكل شيء في لحظة واحدة، ليس بما يتعلق بمهمته التي قدم لأجلها من سانت جيرمان فحسب، بل بخطته السرية- أياً كانت- وكل شيء آخر بالإضافة إلى ذلك. لكن كفتاة حمقاء تجاوزت حدودها أكثر مما ينبغي، مست بأصابعها حنجرتها البيضاء وقالت: «إنني لم أرَ لآلىء في حياتي يا ابن العم نيكولاس».

قال: «لو كنت لي لوهبتك جميع اللآلىء الموجودة في النصرانية» وخطا خطوة نحوها. قدم عمي آسكو، في تلك اللحظة تماماً، عبر البوابة الصغيرة الموجودة عند أسفل الطريق. استدارا باتجاهه، وفي تلك اللحظة، استغللت ارتباكهما لأدلي نفسي عالياً نحو أغصان شجرة الطقسوس المسنة التي كنت أختبىء خلفها. وبلحظة واحدة كنت غائباً عن الأنظار. ظللت مستنداً إلى جذع الشجرة، وانتظرت.

قال عمي بصوت حاد: «عودي للمنزل يا جوديث. إن هذا ليس بالوقت المناسب لهدره بالتراخي والكسل».

قالت جوديث: «آه، لكنني في الحقيقة لم أكن أهدر الوقت بالتراخي والكسل يا ابن العم آسكو. أترى، كنت أجمع زهور الربيع! والآن فقط كنت أتكلم إلى ابن العم نيكولاس حول لآلئه، ألم تجدها بعد؟».

قال آسكو: باقتضاب جاف: «لا».

قالت جوديث بسخرية: «إذا كنت قد وجدتها فإنك ستعطيني إياها، أليس كذلك؟ ولن تبوح لابن العم نيكولاس بكلمة عن ذلك». ضحكت لنفسها بينما كانت تهبط الطريق الشديد الانحدار، ووقف الرجلان الاثنان جنباً إلى جنب يراقبانها.

قال آسكو: «أتيت لأخبرك أنك إن أردت رؤية عائلة بليث في قصر نذر سلاك، فعليك أن تنطلق يا ابن العم».

استيقظ نيكولاس فجأة كما لو أن أفكاره كانت في مكان بعيد جداً. سأل: «ماذا تعني يا سيدي؟».

قال اسكو: «أصغ يا ابن العم، يمكنك الوثوق بي. أولئك الذين يأتون إلى هنا من سانت جيرمان يقومون دائماً بجولة إلى نفس الأماكن، وينشدون نفس السادة الأوفياء. وقد بلغني نبأ مفاده أن السيد روبرت بليث، أحد أقارب جوديث، ينطلق شمالاً في الغد. وسوف تفوتك رؤيته إن لم تعبر الرمال اليوم».

سأل نيكولاس: «هل ستنطلق معي الآنسة جوديث يا ابن العم؟».

هز آسكو برأسه وقال: «ليس لديك وقت لتضيعه منتظراً معشر النساء. إن المد لا ينتظر أحداً، وقد حان الوقت لتمضي بعيداً. ليس بمقدوري أن أستغني عن رجل لينطلق برفقتك، لكن الطريق بادية بوضوح. عندما تصل إلى الطريق الرئيسية قادماً من هست بانك فإنك ستجد أناساً آخرين يتلاقون في الطريق من جهتين مختلفتين، وستجد المرشد بالانتظار على مقربة من قناة كينت.

ليس هناك ما يخيف يا ابن العم، فقط عليك أن تسرع. إن لدي مهمة هنا، لكن قبل أن يجهز حصانك سأكون في الأسفل برفقتك لأوجهك إلى طريقك».

التصقت بجذع شجرة الطقسوس الهرمة كثير العقد مروعاً، منتظراً أن يمضي كلاهما. إذ أنني كنت أعرف الخليج كراحة يدي، وكنت أعرف أحوال المد ومنطقة الرمال، وأدركت أن عمي آسكو كان يرسل بنيكولاس كريغ إلى حتفه. إن وقت عبور الرمال قد فات، وقد كان هو مدركاً تماماً هذا الأمر. كم كنت جباناً إذ لم أصرخ بأعلى صوتي لأحذر ابن عمي. فكرت بأنني سأبقى في مخبئي إلى أن يذهب عمي، وعندئذ فإنني سأنزلق للأسفل لأجده في الاسطبلات. فيما بعد، يكون بمقدور نيكولاس بالتأكيد أن يلفق حجة ما تبرر بقاءه، ولن يكون هناك من حاجة لأن يعرف عمي السبب الحقيقي لذلك أبداً.

وقف عمي اسكو للحظة مراقباً نيكولاس وهو ينزل الطريق ويغيب عن الأنظار. لقد كنت أتوق بشدة إلى أن يذهب عمي في المهمة التي تحدث عنها أياً كانت. وفجأة أصابني الفزع حين نظر عالياً نحو الشجرة وقال: «انزل يا نايجل». وبسرعة ألقيت الحذر كله جانباً، وفتحت فمي لأصرخ عالياً وأحذر نيكولاس. وكلمح البصر، امتدت يد عمي الطويلة عالياً وسط الأغصان وهزتني هزاً عنيفاً عن حصني.

سقطت بين ذراعيه، ووضع يده على فمي. قال بسرور: «هكذا إذاً يا نايجل؟ لسوء الحظ، لقد تأخرت كثيراً».

حملني عبر البستان ورماني في المخزن الصغير الذي انتصب فوق الجون[1]. ضحك بينما كان يحكم إغلاق الباب بالمزلاج. لابد أنه قد استخدمه كسجن من قبل على ما أعتقد، إذ أن النافذة الصغيرة الموجودة في أعلى الجدار الحجري غير الأملس كانت مسدودة بقضبان معدنية. كما أن المكان كان بعيداً جداً عن المنزل والاسطبلات بحيث لا يمكن لأية صيحة عالية أن تسمع.

بعد أن استشطت غضباً وجن جنوني وشددت الباب بعنف، استرددت رباطة جأشي وبدأت أنظر حولي بيأس باحثاً عن طريقة للهروب لا بد لي أن أجدها بسرعة. بدا لي أن تفحص النافذة بمزيد من التقرب ربما كان أمراً جديراً بالعناء، ولهذا فقد تسلقت للأعلى إلى الأسكفة [2] الموجودة بقرب الحجارة الخشنة في الجدار.

هب الهواء العليل في وجهي بينما أنعمت النظر من خلال القضبان. لم يكن هناك أحد في مرمى النظر.

لقد كانت القضبان قريبة من بعضها البعض، وبدا في أول الأمر أنه من المستحيل أن أحشر نفسي بينها، لكنني كنت نحيلاً وصغير الحجم بالنسبة إلى سني. أدخلت رأسي وإحدى كتفي بين القضبان، وانفعلت بتهور يائس عند الحجارة بأصابع دامية إلى أن تمكنت من تثبيت يدي خارج النافذة. عندئذ، أخذت أسحب نفسي بضراوة مستخدماً طوال الوقت ركبتي وأصابع أقدامي على الجدار الداخلي إلى أن شقت كتفي المنكدمة أخيراً طريقها بصعوبة عبر القضبان. كان الباقي سهلاً، رغم أنني في النهاية فقدت السيطرة وسقطت في كومة على الأرض. نهضت بسرعة، نظرت حولي بقلق لأتأكد بأن أحداً لم يرني.

وعندئذ، ركضت برفق للأسفل نحو الاسطبلات داعياً إلى الله ألا أقابل فرانك ليمون أو دافت ويلي في الطريق. كان الساحل خالياً من الناس. من

(١) الخليج الصغير

(٢) عتبة الباب أو النافذة.

الواضح أنه لم يخطر ببال عمي اسكو أبداً أنه بمقدوري الهروب، أو حتى أنه ستكون لدي الجرأة لأحاول الهروب. أسرجت حصاني كاسار وقدته للخارج برفق، دافعاً إياه تدريجياً بحركة دائرية إلى جهة المنزل بعيداً عن النوافد. بدا أنه يضع حوافره برقة على الحصى الكبيرة كما لو أنه كان يدرك أنه كان من الضروري الاحتراس. ربت على أنفه عندما وصلنا السور البحري، وحك أنفه بجيوبي لكنني لم أكن أملك شيئاً له. ثم إنني أمتطيه وسرت به لمسافة قصيرة على طول الشاطىء. أخيراً، وجهته نحو الرمال وحثثته على العدو بسرعة. إذا كان قد رآني أحدهم بمصادفة سيئة فعليّ الآن أن استغل الوقت الذي كسبته بشكل جيد. لم يكن يتعقبنا أحد. شققنا طريقنا عبر القناة في الماء مطلقين رشاشاً وانطلقنا بأقصى سرعة نحو الخليج. تلاشت الأرض من خلفنا، وكان كل شيء ساكناً كما هي الحال دائماً في سهول الوحل. وعن بعد، تمكنت من رؤية الفارس الوحيد الذي كان ابن عمي نيكولاس. كان يمشي في حذر واحتراس. كان يعتقد أن لديه الكثير من الوقت من أجل العبور، لكنني أنا وكاسار أدركنا من لمس الرمل، من عمق المصارف المائية المكشوفة بجانب الشاطىء، من رائحة الهواء، أن المد قد بدأ. بدا أن ذلك حدث قبل وقت طويل من أن نصبح ضمن مرمى السمع.

بعيداً فوق الرمال، يبلغ صوتك مدىً بعيداً عنك ويضيع. لكن حتى عندما سمعنا نيكولاس في النهاية وكبح جماح فرسه، لم أستطع أن أجعله يفهم.

قال: «أعود أدراجي؟ من المؤكد أنه من الأفضل أن أحثّ الخطا للأمام».

صرخت: «وآنذاك فإنك ستغرق في قناة كينت. عليك أن تعود حالاً، وإلا فإن آسكو سيكون قد أرسلك إلى حتفك».

هتف متعجباً: «يا إلهي، يا للخطأ الفادح! إن آسكو لن يغفر لنفسه أبداً عندما يسمع بذلك».

بدأ كاسار يضرب الرمل بحافره، ونظرت باتجاه البحر فرأيت ما كنت أخشى رؤيته.

قلت: «انطلق من أجل حياتك يا سيدي. بالكاد لدينا وقت لننجو بحياتنا».

تقدمته لأدله على الطريق، ولو لم أفعل ذلك لتاه في الرمل الرخو.

لقد سبق لنا أنا وكاسار أن سابقنا المد من قبل، بيد أنه لم يسبق لنا في حياتنا أبداً أن خضنا سباقاً كهذا.

حتى في غمرة الأصوات الراعدة لحوافر الأحصنة، كان بمقدوري أن أسمع الأصوات الضعيفة لتقدم مياه المحيط تدريجياً وباطراد بينما بدأت المصارف المائية المكشوفة قرب الشاطىء تمتلىء، وقَدِم الماء متسيلاً عبر الرمال. رأيت ارتفاع المد، مشكلاً ذروة مزبدة، بشكل عنيف ومفاجىء يأتي مندفعاً إلى ما فوق القناة إلى الأمام منا.

ارتطمت موجة ضحلة برفق بالصخور مارة بمحاذاتنا. شبّ جواد نيكولاس في ذعر إلى أن قام بتهدئته وحثه على متابعة السير. لم يعد بمقدوري أن أرى الرمال الآن، وصلّيت كي يحفظنا الله برحمته بطريقة ما من الوعث قبل أن نصل القناة، ويكون على الأحصنة أن تسبح لتصل إليها. كنّا في المرحلة الأخيرة من الرحلة ولا نزال على قيد الحياة، لكن التيار الخفيف الحركة تدفق بسرعة كبيرة بيننا وبين الشاطىء. كان كاسار يسبح الآن. شعرت به من تحتي يخوض المياه بجهد وعناء، وحررت قدميّ من الركابين لأنني أدركت أن النهاية كانت في طريقها إلينا. بعدئذ، شعرت بأصابع نيكولاس تقبض على شعري بإحكام وتسحبني من السرج عندما ترنح كاسار من تحتي، وفقدته للأبد في مياه المحيط.

لا أعلم كيف وصلنا الشاطىء. أعتقد أن نيكولاس قد ألقى بي فوق سرجه وسبح هو إلى جانب حصانه.

أعلم أنني كنت مديناً له بحياتي. أعتقد أنه هو كان مديناً لي بحياته. لكنني عندما استلقيت عاجزاً فوق الصخور، مناضلاً في سحب كل نفس بألم كبير، سمعت صوت عمي آسكو المقيت يقول: «لا بد أن الصبي قد خدعك يا ابن العم.

إنني آسف من كل قلبي لأجل ذلك. لو لم يكن شبه غريق لكنت ضربته بالسوط بعنف».

قال نيكولاس: «لا يا ابن العم، لقد قاسى بما يكفي. كل ما في الأمر أنني كنت أحمق حين التفت إليه وعدت أدراجي».

كنت أريد أن أتكلم، ولكن لم يكن بمقدوري ذلك. سمعت الأب بنديكت يصلي بصوت خفيض إلى جانبي، وتمنيت لو أنه كان يصلي من أجل الأموات. بعدئذ، حملوني إلى داخل المنزل ومددوني في سريري بعد أن نزعوا عني ملابسي المبللة ثم تركوني. أحضر الأب بنديكت لي الطعام بعد ذلك بقليل، لكني لم أستطع أن أمسّه. مرت الساعات إلى أن أحال ضوء غروب الشمس الغرفة إلى لون قرمزي.

عندها كان البيت ساكناً تماماً، باستثناء وقع خطوات ابنة العم إيزابيل الخفيف بينما كانت تمشي جيئة وذهاباً بين الفينة والفينة مغنية بصوتها الحاد:

«لقد مات ورحل سيدتي

لقد مات ورحل»

أما أنا فكنت أعتقد أن الأمر لن يهمني في شيء لو أنه مات حقاً.



الفصل الرابع

قصر نذرسلاك



بقيت مريضاً لعدة أيام بعد رحلتنا مع الموت تلك . اعتنى بي الأب بنديكت لفترة ، لكن سرعان ما أصبح جدي كثير التبرم ، وكان يشكو بأنه كان يُترك وحده رغم سنه الكبيرة .

قلت ملاحظاً في صباح أحد الأيام : «إنك دائماً تعطي جدي الأولوية يا أبي» ، عندما ترك دوائي وشراباً مبرّداً بالقرب مني ، وقال بأنه لا يستطيع المكوث لوقت طويل .

رسم الأب بنديكت إشارة الصليب على صدره وابتسم قائلاً : «ليس الأولوية التامة يا بني نايجل» .

قلت : «أعلم يا أبي ، الأولوية بعد الله والكنيسة المقدسة . لكن لماذا؟» .

قال الأب بنديكت : «لأنه في وقت ما من الماضي كان ألغرنون كريغ يعطيني الأولوية . وكان هذا يعني الأولوية قبل حياته نفسها ، أما الآن ، فإن كل ما أستطيع أن أفعل لأجله رداً للجميل هو أن أقف إلى جانبه في حياة الموت التي يعيش التي تفتقر إلى ما يجعلها جديرة بأن تعاش» .

قلت بإلحاح: «لكن يا أبي، منذ أن كنت طفلاً كنت أتساءل عما إذا كنت على علم بكل ما يجري في هذا البيت؟»

هز الأب بنديكت رأسه وقال: «يا بني، إنني الآن رجل مسن جداً. لم يبق سوى أمرين فقط في الحياة لكي أقوم بهما. أحدهما أن أعتني بجدك، والثاني أن أبقي قنديل الصلاة مشتعلاً في كريغز».

سألت بأسلوب فظ: «وماذا إن لم تُستجب دعواتك .يا أبي؟ وماذا لو انطفأ القنديل؟».

قال: «ليس بإمكاننا أن نستفهم عن أمور كهذه».

فكرت أنه ربما لم يكن به من حاجة للسؤال عنها.

كان ابن عمي نيكولاس يأتي ويذهب. كان يقوم بجولات حول الريف على متن جواده، ومن ثم كان يأتي ليجلس إلى جانبي ويخبرني بما حدث له. فيما بعد، سيفتح الباب برفق ليدخل عمي آسكو. لم يكن يتركني أبداً قبل أن أخبره بكل ما أعلم. بيد أنه لم يكن هناك الكثير لأخبره لأن الأمر كان كما قلت، وهو أنه لم يكن قد مضى سوى وقت قصير جداً على المحاكمات الكاثوليكية في مانشيستر لكي يكون لأيٍّ من السادة المخلصين رغبة في إرسال المزيد من رسائل الولاء إلى سانت جيرمان.

قال نيكولاس في إحدى الأمسيات: «لقد بدأت أعتقد بأنك كنت على صواب يا نايجل».

قلت: «لقد كنت على صواب في أحوال كثيرة، بل وأكثر مما تعلم».

استدار ونظر ملياً في وجهي، وبادلته نظرته دون إحجام. قال أخيراً: «إنني أؤمن بأنك تعتقدذلك يا نايجل».

قلت بإلحاح: «أعلم ذلك».

«لكنني مع ذلك لست بصدد أن أطلب منك الوثوق بي».

كان بمقدوري، في النهاية، أن أدرك بأن الشكوك كانت تساوره. لم أطلب المزيد.

قال أخيراً: «بلغني أن السير روبرت بليث لم يغادر المنزل في الأسبوع الماضي. سننطلق أنا وجوديث إلى هناك في الغد برفقة توم هابرستي. أتعتقد بأنك ستكون قوياً بما يكفي لتذهب معنا؟».

تملكني توق كبير إلى العالم في الخارج، وعندئذ تذكرت. قلت: «لقد غرق كاسار».

قال نيكولاس: «إن عمك آسكو مستعد لأن يدعك تمتطي صهوة الفرس البني. لقد اقترح أن تذهب معنا».

(فكرت«لأتجسس عليك»، بيد أنني لم أبح له بأفكاري).

فيما بعد أتى آسكو وقال مراقباً إياي بانتباه: «إنك قوي بما يكفي لتنطلق معهم. ستقوم بملاحظة كل ما يفعلانه ويقولانه بدقة وعناية».

سألته: «لماذا؟».

هز كتفيه استهجاناً وقال: «إن كان هناك مكيدة، فمن الجيد أن أعلم بالأمر».

كان هنالك شيء ما في نبرة صوته أوقع القشعريرة في جسمي.

قلت بإصرار: «لكن لماذا يا عمي؟».

نظر بعينيه أسفل أنفه الطويل الرفيع إلي عاقصاً شفته ثم قال: «منذ قدومك إلى هنا يا نايجل كنت أحاول تعليمك أن تحفظ لسانك صامتاً في فمك. يبدو أنك لم تتعلم درسك بعد. فلو أنك تعلمت ذلك، ما كان هناك من حاجة للتجسس على ابن عمك نيكولاس في الوقت الحاضر. وربما كان ذلك لائقاً أكثر من أجله في نهاية الأمر».

عندئذ أدركت بأنه يريد أن يغرر به. لقد كان ينتظر الفرصة الملائمة فقط. وكان لدي علم بما حدث للسيتوارتيين الذين اتهموا بالخيانة العظمى. تجمد دمي

في عروقي، لكنني عندما رفعت نظري إلى وجه عمي آسكو ساورتني الظنون، إذ كنت لا أزال خائفاً منه.

انطلقنا في رحلتنا في صباح اليوم التالي عند شروق الشمس فور انحسار المد. بدا أن الجو سيكون جميلاً في ذلك اليوم، رغم هبوب الريح باردة من التلال المغطاة بالثلوج عبر الخليج ضاربة وجنتي جوديث لتتوردا، ومرسلة لفائفها البنية اللون لتطير من تحت قبعتها الواسعة الحواف. كانت معنويات جوديث عالية. قالت ضاحكة: «لقد أخبرت آسكو بأن عليه أن يأتي معنا، لكنه لا يحب أقربائي، ولهذا السبب لا أذهب إلى هناك إلا نادراً. لكن الآن وقد توفي ابن السير روبرت، قد يجعلني وريثته.

آنذاك سأكون أكثر غنى من أي وقت مضى، وفقط إذا توفيت أنت أيضاً يا نايجل سيكون بمقدورنا أنا وآسكو أن نحصل على كريغز أيضاً».

قال نيكولاس: «عليك ألا تقولي أشياء كهذه حتى على سبيل المزاح يا جوديث. إن الموت ليس بالموضوع المناسب للمزاح».

قالت جوديث: «حقاً؟»، وبدت عيناها دائريتين وبريئتين كعيني فتاة صغيرة «عليك إذاً أن تعلمني بشكل أفضل يا ابن العم نيكولاس».

كبحت جماح فرسي ليقف إلى جانب توم هابرستي العجوز، غير أنه أومأ إلي لأتابع السير.

قال: «كانت الأوامر أن أتيقن بأن ثلاثتكم تسيرون معاً، سيدي نايجل».

كان بمقدوري التصور بسهولة أن الأمر كذلك.

كان هنالك موكب متصل من المشاة والعربات المتحركة آتية من هيست بانك البعيدة، أناس يمتطون صهوات الجياد، وآخرون مشاة على الأقدام، وقافلة من الكارات[1] والجياد المعدة لتحميل الأمتعة.

كان المرشد ينتظر بالقرب من قناة كينت كما انتظر أجداده على مر القرون الماضية منذ أن أشفق الرهبان لأول مرة على المسافرين الفقراء وجعلوا الرمال آمنة للسفر سيراً على الأقدام.

---

(١) الكارة: عربة بدولابين لنقل الأثقال يجرها حصان.

عندما شقت جيادنا طريقها عبر القناة مطلقة رشاشاً، فكرت بتلك القناة الأخرى وشعرت ثانية بجسد كاسار المسكين ينزلق من بين ركبتي. استدار نيكولاس نحوي وقرأت عيناه المتوقدتا الذكاء أفكاري. قال: «عليك أن تنساه يا نايجل. سيكون ذلك أفضل».

قلت باضطراب: «لن أنساه أبداً. لكنني أتمنى لو أن الأمر كان جديراً بالعناء».

وصلنا كنتز بانك في أمان، وكانت جيادنا مبتهجة لشعورها بالأرض الصلبة من تحت حوافرها مرة ثانية.

كانت وجهتنا في مدى الرؤيةتقريباً وكنت مسروراً لذلك، إذ أن إحساسي الأول بالفرح لحصولي على حريتي كان قد أصبح مبتذلاً، وكنت قد بدأت أشعر بالملل. لكن عندما صعدنا على ظهر جيادنا أحد الممرات الضيقة الذي يمر بشبه جزيرة كارت ميل، التقينا مصادفة جماعة من راكبي الخيل القادمين حديثاً من رمال ليفين وكبحنا جماح أحصنتنا لندعهم يمرون. كان بينهم سيدة أرستوقراطية. أدركت بأنها سيدة أرستوقراطية قبل أن يخبرني توم هابرستي. كان هنالك شيء ما في وجهها دلني على أن أناساً اخرين بالإضافة إلى الأب بنديكت كانوا يدركون ما معنى إبقاء قنديل الصلاة مشتعلاً.

سألت بعدما مرت: «من كانت تلك السيدة يا توم؟».

قال: «تلك كانت السيدة فيل، سيدة قصر سوارث مور، أو على الأصح السيدة فوكس، لكنهم يحبون اسمها القديم أكثر في هذا الجوار. لم يكن زوجها الثاني من الأشخاص الذين يحققون نجاحاً سريعاً».

قلت مردداً: «السيدة فيل»، وأثار الاسم شيئاً ما في أعماق ذاكرتي. «أتلك هي المرأة التي حدثتني عنها عندما قدمنا إلى هنا ممتطين معاً صهوة الجواد من إلفورد عندما كنت ولداً صغيراً، ووقفنا ناظرين للأعلى نحو قلعة لانكاستر وأخبرتني عن الأب آرو سميث الناعم بالسعادة الروحية؟ أكانت هي المرأة التي حبسوها في برج دان غون لأنها كانت صاحبية؟».

قال: «هي بذاتها سيدي نايجل».

سألت: «وما معنى أن يكون المرء صاحبياً يا توم؟».

قال توم هابرستي: «لست مهتماً، وعليك أنت أيضاً ألا تهتم بذلك يا سيد نايجل».

قال نيكولاس مقاطعاً الحديث: «كلا. لكن إذا كان ذلك يمنح امرأة وجهاً كهذا، فربما لا بأس من الاهتمام قليلاً».

قالت جوديث ضاحكة: «أجل، في الحقيقة، ألم تكن عجوزاً بشعة؟ ربما كانت ستبدو أفضل لو أنها صبغت شعرها».

بعدئذ تابعنا السير، ولم يحاول أحد أن يفسر ما معنى كلمة«صاحبي». لكنني شعرت بملل أقل من ذي قبل.

كان قصر نذرسلاك قصراً حجرياً جميلاً يعود تاريخه في الأغلب إلى عهد الملكة إليزابيث.

تناولنا وجبتنا في حجرة الجلوس الرئيسية، وبعدئذ قام الخدم بترتيب الكراسي في المشربية الفسيحة التي أطلت على المروج الخضراء ذات أشجار الطقسوس الجذابة العتيقة والمقلّمة، وشجيرات البقس، والطريق الضيقة المحفوفة بالسوسن البري المنحدرة إلى أسفل الحديقة المسوّرة بالحبال المعقودة.

تدفق ضوء الشمس الباهت للداخل من خلال الألواح الزجاجية المزودة بالشعريات [١]، بينما تدلى الدرواس [٢] العجوز للسير روبرت إلى خارجها بأقصى امتداد جسمه ليحلم بالصيف.

كان السير روبرت بليث سيداً نبيلاً وقوراً. بدا أكبر من عمره، ولفّ الحزن قلبه لوفاة ابنه الوحيد.

كانت زوجته مخلوقة جبانة كما اكتشفنا سريعاً عندما استهل نيكولاس الحديث عن موضوع مهمته.

---

(١) الشعرية: شبكية من الخشب تستخدم لرد أشعة الشمس شبيهة بستار النافذة المرن حديثاً.

(٢) الدّرواس: كلب ضخم من كلاب الحراس.

قالت فجأة: «لا سير روبرت! ليس ثانية، أبداً!»

قال السير روبرت بحزن: «صدقني يا سيدي، إن الوقت لم يحن بعد. وربما لن أعيش لأشهد تلك اللحظة أبداً. أوصي بي إلى الملك أيها الشاب، وأخبره أن الولاء لم يمت، لكنه سيخسر كل شيء إذا ما تحرك الآن».

تنهد نيكولاس: «جميعهم قالوا ذلك يا سيدي».

قالت الليدي بليث مقاطعة: «وذلك هو الشيء الصحيح. إذا ما فكروا بزوجاتهم وأطفالهم. إنني سأذهب إلى أبعد مما قال زوجي، سيد كريغ. إنني سأقول اذهب وأخبر جلالته بأن النبيذ قد سُفح بكامله».

قال نيكولاس: «لكن ذلك لن يكون صحيحاً يا سيدتي. إن جلالته- حفظه الله- لا يزال لديه النبيذ الجديد».

فجأة جذبت جوديث كمي وهمستْ بغضب: «تمشّى معي في الحديقة يا نايجل، لقد مللت من الجلوس ساكنة بلا حراك».

انحنيت باحترام، واستأذنت بالانصراف، وكنت سعيداً لسماحهم لي بذلك. كنت آمل بأن ذلك لن يسمح لي بسماع الكثير من أجل سلامة نيكولاس من الأذى.

نادى السير روبرت على خادمة لتُحضر معطف جوديث الفضفاض، ووضعته أنا حول كتفيها الضئيلين. بعدئذ مررنا عبر مدخل جانبي نحو الحديقة المشذبة بشيء من الفن وإلى ما وراءها.

قالت جوديث بنفاذ صبر: «ليس بمقدوري أن أتحمل سُماع ابن عمنا نيكولاس يجعل من نفسه أضحوكة».

عندما كنا نتجول متجهين إلى أسفل المنحدرات المُعشبة وراء الأشجار المقلمة.

سألتها: «ماذا تقصدين يا جوديث؟».

«عجباً، إن كل ما يتكلم عنه هو الولاء والملك جيمس ومظهره المهيب، كما لو أنه ليس بمقدوره التفكير في أي شيء آخر. لم لا يترك ما هو حسن كما هو دون تغيير؟»

قلت: «لأنه يعتقد بأنه ليس حسناً بل رديئاً».

«إذن، فلا يغير ما هو رديء. إن ذلك لم يسبب له الأذى مطلقاً. من هو جيمس ستيوارت هذا الذي يريد نيكولاس أن يضحي بحياته من أجله؟».

قلت بصوت ضعيف: «ملك انكلترا الشرعي، على ما أعتقد».

«ألن يضحي ويليام بحياته أيضاً من أجل جيمس ستيوارت؟ إنني أؤكد لك يا نايجل بأنني متخمة حتى السأم من حديث الولاء هذا برمته. لن أتزوج أبداً من رجل يحب الستيوارتيين أكثر من حياته أو سعادته.

إنني لا أريد أن أكبر قبل الأوان مثل الليدي بليث، وأن أتلفت يميناً وشمالاً قبل أن أتكلم، وأن أرتجف خوفاً في كل مرة يشرب فيها زوجي نخب الملك وأنا أراه يدفع كأسه نحو الجانب الآخر من البحر».

كان هنالك جدار منخفض عند أدنى الحدائق الغنّاء. استندنا إليه وجُلنا بنظرنا عبر الحديقة نحو الامتداد العريض للخليج.

قلت: «لاضرورة للقلق يا جوديث، إنك ستتزوجين من أسكو».

قالت: «أعلم». وفجأة تغيرت قسمات وجهها. استدارت نحوي، وللحظة رأيت جوديث مختلفة، جوديث تحمل حزناً عميقاً في داخلها. اختفت تلك النظرة في لحظة.

سألت با حتقار: «ومن تظن نفسك لكي تحكم علي يا نايجل؟ إنك شديد الخوف من آسكو لدرجة أنك ستقطع عنقي إذا طلب منك ذلك. عندما أتزوجه، فإنني على الأقل سأمتلك نفوذاً عليك وعلى كريغز وعلى كل شخص آخر، ولن يكون لدينا المزيد من الملوك على الجانب الآخر من البحر».

سألتُ: «لم تكرهين الستيوارتيين يا جوديث؟ بماذا أساؤوا إليك في حياتهم كلها؟».

قالت بسخط: «بماذا أساؤوا إلي ؟» ولمعت عيناها الداكنتان عندما نظرت باتجاه البحر.

«إنك تعيش في كريغز وتسأل بماذا أساؤوا إلي؟ لقد قتل جدنا الأكبر في ناسباي وقتل جدي في بريستون وأصيب جدك بجراح كادت تودي بحياته، ألقي القبض على والدي وأعدم في تلك المؤامرة الكاثوليكية اللعينة، وكان عزيزك تشارلز الثاني هذا جالساً على العرش، لاحظ ذلك، ولم يمدّ على الإطلاق يد المساعدة كي ينقذه. لقد أصيبت والدتي بالجنون وقتل والدك في معركة بوين وأفلسنا جميعاً وتآكلت ممتلكاتنا من أجل ديننا وقضية الملك. الولاء! لقد نلت ما يكفينني من الولاء يا نايجل، ولن أتزوج بأي رجل يتعامل مع سانت جيرمان».

كانت تعبر عن نفسها مؤكدة بشدة على كلامها. لدرجة جعلتني أتساءل بأسلوب صبياني إلى حد ما عمّ حدث في هذا اليوم بالذات من بين كل الأيام ليجعلها تغضب غضباً شديداً كهذا من الستيوارتيين.

بقدر ما أعلم، لم يطلب أحد منها أن تتزوج من أي شخص ما عدا آسكو، وولاؤه لقضية السيتوارتيين أو أيما قضية أخرى بدا أنه بالكاد يسبب لها أي إزعاج.

قلت: «ذهب والدي إلى سانت جيرمان، وآخر مرة رأيته فيها في حياتي وعدته بأنني سأكون مخلصاً».

قالت باستهزاء: «وما قيمة وعدك الآن يا نايجل».

قلت: «أتمنى من الله لو أن قيمته قد ازدادت».

قالت جوديث: «لم يأسف آسكو عندما نُفي والدك، كذلك عندما قُتل، لم يحزن لأجله بقدر ما هو مفترض به أن يحزن. أعتقد بأنك تدرك أنه طالما أضمر له الكراهية؟».

قلت مصدوماً لمجرد ذكر تلك الفكرة: «لا أصدق ذلك. لقد كان والدي أخاه الوحيد».

«إن ذلك ما هو إلا سبب إضافي ليكرهه أكثر، خصوصاً أنه كان الأخ الأكبر. إنني متأكدة بأنني كنت لا بد سأكره أختي الكبرى لو كان لدي أخت. تماماً كما أكرهك لكونك وريث كريغز».

«لكن هل تكرهينني يا جوديث؟».

استدارت ونظرت إلي طويلاً ثم قالت: «أجل، أظنني أكرهك أحياناً».

سألتُ: «لكن لماذا؟».

قالت: «لأنك خائف دوماً». ضربتني برفق على وجهي بيدها الصغيرة المعطرة، وركضت بخفة نحو الحديقة. تبعتها لكن مكرهاً. كان بمقدوري أن أمسك بها بسهولة، لكنني ما كنت لأعلم ما يجب فعله أو قوله.

عدنا للمنزل، وانضممنا ثانية للمجموعة في الردهة. كانت جوديث تضحك وكانت عيناها تتلألآن بنزوع للإزعاج. ابتسمت الليدي بليث لرؤيتها إيانا. قالت: «كم أحب أن أرى الشباب ذوي القلوب الخالية من الهموم».

كان السير روبرت لا يزال مستغرقاً في حديثه مع نيكولاس. قال بصوت خفيض: «إنني أؤكد لك ثانية، عليك ألا تعتمد على أيٍّ منهم في الوقت الحالي. ولا أيٍّ من السادة الذين ذكرتهم، ومع ذلك فإنّ لديك مبرراً للتخوف».

قال نيكولاس: «إذن أصغ يا سيدي، دعني أقدم لك اقتراحاً أخيراً، وقد اكفهر وجهه الوسيم بنظرة من الجدية الشديدة. «عليك أن تدرك يا سيدي بأنني أنا نفسي صاحب هذه الفكرة وليس جلالته، لقد ناقشت الفكرة مع جلالته ولكنه ليس مستعداً لدراستها في الوقت الحالي. لقد استحوذت الخطة الحالية على كامل اهتمامه بحكم الظروف. ومع مثل هذا الوعد بالدعم من فرنسا، فإنه في الحقيقة مفعم بالأمل».

قال السير روبرت: «بإمكاني أن أصدق ذلك على الرغم من أنني نادم عليه. لكن قبل أن تذهب بأفكارك إلى أبعد من ذلك، أرجو ألا يكون في ذهنك أية مؤامرة أخرى؟ إنني متردد في ذكر ذلك، لكنني سمعت بشكل سري إشاعات قادمة من لندن وقد دعوت الله بأن تكون غير صحيحة».

قاطعت الليدي بليث بصوت حاد: «لا تتكلم عن ذلك!»، وكانت شفتاها ترتجفان.

قال نيكولاس: «إنني لا أفهمك يا سيدي. إن الفكرة التي أشرت إليها هي فكرتي وفكرة والدي. إنني لم أتحدث بها لأحد سوى جلالته. وبقدر ما أعلم، ليس هنالك أية مكيدة أخرى».

قال السير روبرت مطلقاً تنهيدة ارتياح: «إذن، فأنا سعيد من كل قلبي لذلك. لكي أكون صريحاً معك، فإن الإشاعة الأخيرة، والتي وصلت إلى مسمعي البارحة فقط، ذكرت شيئاً ما عن وجود مؤامرة لاغتيال مغتصب العرش».

هتف نيكولاس بتعجب: «هذا كذب. إنها كذبة شريرة ملفّقة من قبل أعداء الملك».

قال السير روبرت: «أرجو ذلك. لكن بالنظر إلى هذا، صدقني ليس بمقدور أصدقاء الملك أن يكونوا حذرين أكثر من اللازم. الآن، أخبرني ما هي خطتك؟»

قال نيكولاس: «كما أخبرتك من قبل. إن جلالته ليس مهتماً بالأمر، ولن يكون مهتماً ما لم أتمكن من تقديم دعم حقيقي إلى حد ما للفكرة. لكن هذا ما أفكر به. إن ملكنا الراحل تشارلز الثاني أخبر والدي مرة بطريق المزاح أنه قد استطاع بالكاد التهرب من تسلم حكم مملكة أميركية، وعندما استأذن والدي بالاستفهام منه عن الأمر، عاد جلالته إلى جديته وفسّر بأن سيداً يدعى ريتشارد لي قام بالفعل بزيارة هولندا خلال عهد الحكومة الانكليزية في ظل أوليفر كرومويل وابنه (١٦٤٩-١٦٦٠) المزعومة، ودعاه ليعود برفقته إلى فيرجينيا ويستلم مقاليد الحكم هناك.

ألقى جلالته ملاحظة ساخرة نادرة تعليقاً على ذلك، وقال بأنه عندما يكون البرلمان مزعجاً أكثر من المعتاد فإنه يعتقد بأن ذلك قد يكون شيئاً جيداً. ثم أضاف: «لكن عندئذ. أعتقد أنه كان علي البقاء قريباً جداً من أتباعي الورعين في انكلترا الجديدة لكي يواسوني». لقد كان عليه بالفعل أن يفعل ذلك.

كان كل ذلك للأفضل كما أظهرت الأحوال، لكن اليوم هو مسألة أخرى. لقد قال والدي قبل وفاته بأنه إذا لم يكن بالمقدور إعادة جلالته إلى عرش انكلترا

مرة ثانية إلا بواسطة المساعدة الأجنبية، فإنه لن يستعيده على الإطلاق، وإذا كان على أمير ويلز الصغير أن يشبّ في أرض أجنبية، فإنه هو الآخر لن يستعيد العرش أبداً. وقد أخبرني بأنهم سيبذلون قصارى جهدهم ليذكروا أنه لا زال هناك قلوب مخلصة في الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي، وأن هذه القلوب هي قلوب الرجال الانكليز».

قال السير روبرت بصوت خفيض: «يا بني. إنك تطلب من جلالته أن يقوم بمخاطرة كبيرة».

قال نيكولاس: «ربما يخاطر أكثر ببقائه حيث هو».

قال السير روبرت: «إنه رجل عجوز في الوقت الحاضر. إن المخاطرة التي نعرفها تناسب الكبار في السن أكثر مما تناسب الأشخاص المجهولين».

قال نيكولاس بإصرار: «لكن الأمير شاب».

أجاب السير روبرت: «إن الأمير صغير جداً».

«إن هذا ما يدعو للأسف والرثاء في الأمر. لكن- وهو استثناء هام- لو كان بمقدور المرء أن يكون واثقاً».

سأل نيكولاس: «أتقصد لو كان بمقدور المرء أن يكون واثقاً من أن القلوب المخلصة لا تزال موجودة؟».

قال السير روبرت: «لو كنت رجلاً شاباً لذهبت إلى أميريكا وتحققت من الأمر!».

وقف، وأشار إلى نيكولاس الذي انحنى باحترام وتبعه مغادراً الغرفة. وحين ذهبا، راقبتهما الليدي بليث غير راضية ثم قالت: «أتمنى لو تأخذين ابن عمك الوسيم هذا بعيداً يا جوديث. إنه يعجبني، لكن صحبته خطيرة على زوجي. والآن سيقوم بإقناعه ليشارك بماله في هذه الخطة المتهورة، وإنني لأفضّل أن يفقده على طاولة القمار، فإنه في تلك الحالة سيكون في أمان أكثر».

قالت جوديث ضاحكة: «إذا شارك بمال كاف لإرسال نيكولاس إلى أميريكا، فإن كليكما يا سيدتي لن ترياه ثانية لوقت طويل، وذلك بالطبع سيكون شيئاً حسناً. لكنني أعتقد بأنه حتى السير روبرت لايكاد أن يشارك إلا بمبلغ ضئيل، وفي تلك الحالة فإن نيكولاس سيبحث ثانية عن لآلىء روزيت.

أعترف بأنني قد سئمت منها بكل معنى الكلمة ما لم يكن بمقدوري الحصول عليها هنا». مدّت أصابعها البيضاء فوق رقبتها وصدرها، ونظرت إلي نظرة لعوبة على نحوٍ يوحي بأنها مولعة بالإزعاج.

«لو كنت تعلم أين هي فإنك ستعطيني إياها أليس كذلك يا نايجل؟».

أما أنا فقد احمر وجهي كثيراً بسبب الارتباك، وبقيت كذلك لوقت طويل.

وبينما كنا نمتطي جيادنا عائدين للمنزل في المساء عبر الخليج قالت جوديث: «إن نايجل يعلم مكان لآلئك يا ابن العم نيكولاس».

سأل نيكولاس كابحاً جماح فرسه بدهشة: «ماذا تقصدين؟».

قالت مصرة: «تماماً كما أقول لك يا ابن العم. إنك تعرف مكانها يا نايجل، أليس كذلك؟»

غمغمت بحماقة: «بلى. لكنني لن أخبرك أين هي».

قال نيكولاس: «إنني أنوي الرحيل غداً. هل ستدعني أرحل دونها؟»

قلت: «لا يا سيدي». وإذ رأيت التعبير الذي ارتسم على وجهه، أضفت قائلاً بيأس: «إنني لن أخبرك بمكانها لأنني لا أريدك أن تذهب بدونها».

قال نيكولاس: «إنك كثير الشكوك والوساوس فيما يتعلق بالاعتناء بشؤوني يا نايجل. منذ متى وأنت تعلم مخبأها؟ وأين هو ذلك المكان؟ هيا، أخبرني بسرعة!». وضع يده فوق عنان فرسي، وأبطأت جيادنا من سرعة عدوها لتسير بخطا موزونة. ولمرة ثانية، ألقيت نظرة خاطفة إلى وجهه ولم أستطع تحمل النظرة التي رأيتها هناك. استأنفتُ: «لا تسلني الآن يا سيدي! دعني أذهب بحق الله، أعدك بأنني سأريك المكان الذي خبئت فيه اللآلىء قبل رحيلك يا نيكولاس، أقسم على ذلك!».

قالت جوديث: «عليك ألا تثق به يا ابن العم! يمكنك الوثوق بكلامي، إنه لم ينوِ مطلقاً أن يخبرك بأنه قد اكتشفها أو أن يريك مكانها».

فجأة، أوقع نيكولاس عنان فرسه وقد ارتسم على وجهه تعبير اشمئزاز. قال: «لقد أخبرني اسكو بأنه لا يمكن للمرء أن يثق بك يا نايجل، لكنني لم أحسب أنك لص»

عندئذ نفذ صبري وانفجرت غاضباً في وجهه وقلت: «حسن جداً يا سيدي، سأخبرك إرضاء لحماقتك.

إن لم تجد اللآلىء حول رقبة ابنة عمي إيزابيل، فستجدها أسفل اللوح غير المثبت بإحكام في درج السقيفة، وأتمنى لكما أنت وجوديث أن تسعدا بها!». حثثت فرسي على الانطلاق وسرت قدماً أمامهما. سمعت ضحك جوديث يدوي عالياً عبر الرمال، وسمعت العجوز توم هابرستي يدعوني لتوخي الحذر إلى أن أصبحت في نهاية الأمر خارج مدى السمع وأنا أقود فرسي بجنون نحو كريغز.

كنت قد شققت طريقي في الماء خلال القناة الأخيرة مطلقاً الرشاش قبل أن أستدير لأنظر خلفي.

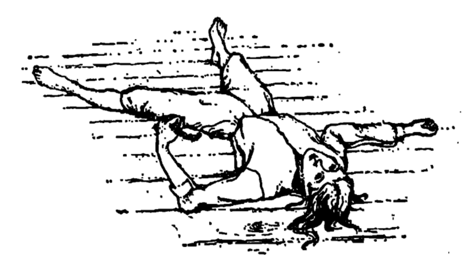
كانت الدنيا تزداد ظلاماً، غير أنه كان بمقدوري أن أراهم عن بعد يسيرورن ببطء خلفي. وامتد، من ورائهم، ضوء المساء فوق الخليج على نحو مريح للنظر، وغرق الشاطىء البعيد في السديم الأرجواني.

لا بد أن منزل السيدة التي زرناها في ذلك الصباح يقع في مكان ما إلى الشمال الغربي من هنا. استعدت في ذاكرتي النظرة التي بدت على وجهها، وفكرت لو أنني تذكرتها بسرعة أكثر، لربما تمكنت من الحفاظ على هدوئي، إذ أن نفاذ صبري لم يفدني شيئاً، بل من الجائز أنه سبب الكثير من الضرر.



الفصل الخامس

خيانة



لدى عودتي كان عمي اسكو بانتظاري. قال: «من الجيد أنك سرت أمامهم يا نايجل. أسرع وأخبرني قبل أن يأتوا، ما هو نوع المؤامرة؟»

قلت: «ليس هناك مؤامرة».

قال: «إنك تكذب» وأمسك بي من رسغي.

قلت محتفظاً برباطة جأشي، ومتكلماً ببطء لأكسب الوقت: «لا يمكن أن يكون هناك أية مؤامرة. لا يوجد، مع بقاء الرجال المخلصين مختبئين بعيداً عن الأنظار».

«متى يرحل؟».

«في الغد».

«وأين؟».

كان بمقدوري سماع طيور النورس تطير على نحو دائري في الهواء الساكن النسمات خارج المنزل مطلقة صرختها الغريبة الحزينة. بدت كأنها تقول«أبداً-أبداً-أبداً». وأمسك عمي آسكو بي بإحكام وتشبث أكثر. غمغمت قائلاً: «وكيف لي أن أعرف؟»

«إنك تعلم أكثر مما أخبرتني يا نايجل. أنت تنسى بأنني أعرف كيف أجعلك تتكلم. لكن أولاً، أخبرني هل تشاركه جوديث خططه؟».

قلت: «لست أعلم، ولست مهتماً بالأمر. أتضع جوديث أيضاً لتتجسس عليه؟»

ضربني حينها، لكن في نفس اللحظة التي هجم بها علي، سمع صوت الجياد قادمة فوق الحصى الكبيرة.

قال: «ستذهب إلى غرفتك ودون عشاء. وعندما يكون الجميع نياماً سأستجوبك ثانية، وسوف تسير الأمور على نحوٍ سيء إن لم تخبرني بكل ما تعلم». دفعني جانباً، ومشى بخطا واسعة ليلاقيهم.

أما أنا فقد صعدت السلم الضيقة اللولبية شاعراً بالإرهاق، ومتمنياً لو أنني لم أولد على الإطلاق.

أعطى اللوح الخشبي عند المنعطف الذي تشكله مجموعة درجات السلم العلوية صوتاً مكتوماً تحت قدميّ.

غير أني لم أتوقف لأتحقق من الأمر. ولمرة واحدة لم تكن ابنة العم إيزابيل واقفة تحدق عند قمة الدرج. كان بوسعي أن أبحث عن اللآلىء وأخفيها في مكان آمن إلى أن يأتي نيكولاس، لكنني لم أهتم للأمر. لم يكن ذلك من شأني. ولكن إن لم يبحث نيكولاس وجوديث عن مخبأ اللآلىء في وقت قريب فسوف يفوت الأوان. ستحين في وقت ما من الليل، الساعة التي يتعين علي فيها أن أخبر آسكو بكل ما أعلم.

أزعجت عودتي ابنة العم إيزابيل فنادتني إليها: «أذاهب إلى السرير في هذا الوقت المبكر جداً يا نايجل؟».

آه، لكنه ليس بالمكان الآمن. ألم تسمع أصوات البوم ليلة البارحة؟ إن السرير ليس بالمكان الآمن على الإطلاق عندما تنعب طيور البوم. تصوّر أنها تعرفه».

كنت تعباً جداً كي أداعبها. دخلت غرفتي الصغيرة تحت الروافد المائلة وأغلقت الباب، وسمعتها تنتقل بسرعة أعلى وأسفل الممر خارج المنزل وهي تغني إحدى أغنياتها القديمة الصاخبة.

تهب الريح اليوم يا حبيبي

وتسقط قطرات قليلة من المطر

لم أحب في حياتي سوى شخص واحد، بصدق

ذلك الحبيب الذي دُفن في قبر بارد.

رفعتْ مزلاج بابي واختلستْ النظر من الشق نحو الداخل. «بارد-يا نايجل-بارد-أليس الجو بارداً في القبر يا نايجل؟»

«لا أدري يا ابنة العم إيزابيل. من الأفضل لكِ أن تذهبي وتسألي طيور البوم».

وضعت إصبعها إلى شفتيها وهمست: «اسكت». وأتت خطوات جوديث الخفيفة الوقع زاحفة أعلى السلم. وثبت ابنة العم إيزابيل فجأة للخارج نحو أعلى السلم وقالت مكررة: «صه، سوف توقظينه».

قالت جوديث بنزق: «إن كنت تتكلمين عن نايجل، فأنا متأكدة بأنه ليس نائماً. ما الذي تفعلينه هنا في الأعلى تتجولين هنا وهناك كشبح ؟لم لا تذهبين للسرير؟».

قالت ابنة العم إيزابيل منتحبة: «لا أستطيع-لا أستطيع. علي أن أجلس فوق قبره- . هذه أنا يا حبيبي أجلس فوق قبرك ولن أدعك تنام». علا صوتها أكثر فأكثر. «علي أن أجلس فوق قبره يا جوديث، علي أن أجلس فوق قبره!».

كان بمقدوري سماع خطوات جوديث ترتد للوراء. لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً لأمها وهي في حالة نفسية كهذه. علاوة على ذلك، فقد كان الجميع في

الطابق السفلي مستيقظين بكل ما في الكلمة من معنى في ذلك الوقت. أما ابنة العم إيزابيل فقد استغرقت وقتاً طويلاً إلى أن هدأت.

تمددت في السرير مصغياً، وأخذت أغنياتها تضعف شيئاً فشيئاً إلى أن سمعتها في نهاية الأمر تنشج محاولةبذلك أن تنام. بعدئذ اتى الطرق الغريب على الباب الخلفي الذي كان يعلن دائماً عن وصول أحد رسل آسكو. سمعته يخرج إلى الظلام بينما كانت جوديث تغني برقة وهي تعزف على عودها» . اجمع ورودك مادمت قادراً على فعل ذلك».

غنّت هي، أما أنا فقد ضحكت لسماعها تغني عن الورود في كريغز حيث لا يوجد سوى الأشواك ونباتات العلّيق.

مكث آسكو في الخارج لوقت طويل. انسللت خلسة للخارج نحو النافذة الصغيرة المغلقة بالقضبان الحديدية في الجملون، وسمعت رجالاً يغمغمون في الفناء. وحين عاد للمنزل، تمكنت من التقاط كلمات قليلة.

قال: «إذن فقد أمسكنا به يا فرانك إذا كان ذلك صحيحاً. لكن أولاً سأجعل الصبي يتكلم».

أسرعت عائداً إلى سريري واستلقيت هناك وأنا أرتجف خائفاً. هدأ البيت بشكل تدريجي وأصبح ساكناً، وسرعان ما كان الجميع في الفراش عدا آسكو ونيكولاس. تساءلت ما الذي كانا يفعلانه وهما يتحدثان لوقت طويل جداً على ضوء جمرات الموقد المنطفئة في الردهة الكبيرة. ربما لن يكون هناك حاجة لأن يستجوبني آسكو لاحقاً. ارتجفت من البرد وجذبت البطانيات ووضعتها حولي، غير أني لم أستطع النوم. عندئذ، سمعت حركة ضئيلة في الأسفل، وبمثل لمح البصر كنت جالساً في السرير.

قال آسكو بصوت خفيض عند أسفل السلم: «إنني بالكاد أصدق ذلك يا ابن العم. لا بد أن نايجل كان يروي الأكاذيب كالعادة، لكن فقط لأبدد الشك لديك دعنا نلقي نظرة».

زحفت باتجاه باب غرفتي وكنت عارياً تماماً، لم يكن هناك وقت لأرتدي ثيابي. رفعت المزلاج دون أن أحدث أي صوت، وتقدمت في طريقي للخارج شيئاً فشيئاً نحو الممر. كانا قد وصلا تقريباً إلى منعطف الدرج. حدقت للأسفل من بين أعمدة الدرابزين المنقوشة. سطع ضوء القمر من خلال النافذة الطويلة وامتد على طول السلم بكامله، وكان بمقدوري رؤية آسكو قادماً للأعلى برفقة نيكولاس من ورائه.

وفجأة، انحنى بخفة وشدّ اللوحَ ذا الصوت المكتوم بقوة. تراجع اللوح تحت ضغط أصابعه القوية، ورفعه من مكانه. اندفعت يده النحيلة إلى داخل الحيّز الخالي. قال بعد لحظة: «لا شيء يا ابن العم. لا شيء على الإطلاق، لقد أخبرتك بذلك». استقام ورجع للوراء ليدع نيكولاس ينعم النظر في الحجر.

كان بمقدوري رؤية يده اليسرى تنسل بسرعة إلى داخل جيب معطفه العميق.

قال نيكولاس بنبرة مخيّبة الرجاء: «لا شيء. لم أتوقع أن يكذب علي نايجَل. لم يكن هنالك من داعٍ لذلك».

قال آسكو: «إنني أؤكد لك أن الصبي غير مستقيم بكل ما في الكلمة من معنى. إن ذلك كان ليفطر قلب بيلهام خيبة».

هز نيكولاس رأسه وقال: «إنك تحكم عليه بقسوة شديدة يا ابن العم» وأومأ بيده إيماءة غريبة ذكرتني بطريقة ما باليوم الذي رأيته فيه يربت على رقبة حصانه. «لا أزال أعتقد بأنه كان يقصد خيراً من ذلك».

نزلا الدرج سوية وأسرعت أنا، دون إحداث أية ضجة، عائداً إلى غرفتي. لم يكن هناك سوى شيء واحد لأفعله. إن قلت الحقيقة، فإن نيكولاس لن يصدقني. يجدر بي أن أقدم إليه دليلاً.

لبست قميصي وبنطالي وزحفت حافي القدمين أسفل السلم، وعندما وصلت إلى مجموعة درجات السلم الأخيرة، جثمت على يديّ وركبتيّ ونظرت للأسفل نحو الردهة. كانا جالسين على جانبي الموقد، وكان آسكو يجلس في

كرسي جدي الكبير المنقوش والمصنوع من خشب البلوط. كان هنالك زجاجة من نبيذ عمي النادر على طاولة منخفضة بينهما، ومما لاشك فيه أنه قد استخدمها ليحل عقدة لسان نيكولاس. لكن نيكولاس لم يكن يتحدث كثيراً. كان يجلس وقد مدّ ساقيه الطويلتين أمامه وتجهم وجهه حيرة. كان يقول: «إن ضياع اللآلىءليس بالخسارة الفادحة يا ابن العم. بل إن الخسارة هي في المال الذي كانت ستجلبه تلك الآلىء».

قال آسكو موافقاً إياه: «تماماً. إنني أدرك بأنها تساوي فدية ملك». وانسلّت يده اليسرى بهدوء داخل جيبه وخارجه مرة ثانية. «دعني أسكب لك كأساً آخر يا ابن العم. إنني آسف إذ لم تستطع تسوية أمر ثروتك».

قال نيكولاس بتمهل وهو يدير الساق الرفيعة لكأسه بين أصابعه: «إنني لا أقصد بكلامي ثروتي».

حَبَوْتُ تدريجياً أسفل السلم اللولبية على أطرافي الأربعة. لو كان آسكو جالساً على الطرف الآخر للموقد لرآني، لكن نيكولاس كان مستغرقاً في تفكير عميق جداً.

علّق آسكو من غير قصد، بينما كان يرشف نبيذه: «هل تفكر في تسوية أمر ثروة الملك؟».

كنت قد وصلت إلى أدنى السلم الآن. حبست أنفاسي بينما كنت أزحف إلى خلف كرسي آسكو الكبير المصنوع من خشب البلوط.

قال آسكو بتمهل: «ربما».

«لدي خطة خاصة بي يا ابن العم لكن تنقصني الموارد المالية الكافية لتنفيذها».

كنت خلف الكرسي الآن، أقيس المسافة إلى جيب آسكو بعينيّ. علي ألا أفسد الأمور في هذه المرحلة.

لقد كان جيباً عميقاً، وعلي أن أدخل يدي لأسفله بخط مستقيم كي أصل للشيء الذي أعلم أنه هناك في الداخل.

كان قلبي يدق بصوت مكتوم بشدة، لدرجة أنني كنت مروّعاً من أن يسمعه آسكو.

قال آسكو غير مبالٍ: «أخبرني بخطتك يا ابن العم». وأنزل كأسه، ثم شبك أطراف أصابعه معاً. «ربما بمقدوري أن أقدم لك النصح».

قال نيكولاس: «لقد ترددت في إثقال كاهلك بإطلاعك على أسراري يا اسكو. يخامرني شعور بأنك تعتقد أن فرعك من عائلتنا قد قاسى بما يكفي».

قال آسكو: «ربما أن نايجل ترك لديك ذلك الانطباع. لكنني أخبرتك بأنه لا يمكن الوثوق به».

تنهد نيكولاس ثم قال بحزن: «لا أزال غير قادر على تصديق ذلك. إن الغلام يشبه بيلهام كثيراً. لكن الآن كفانا حديثاً عن ذلك- بمقدوري أن أطلعك عما يدور في رأسي دون أن أطلب منك المجازفة بتحمل أية مخاطر».

قال آسكو موافقاً: «تماماً». وقد مال للأمام قليلاً. اندفعت، في تلك اللحظة، بسرعة بالغة ممسكاً إحدى قضبان الكرسي بإحكام وتشبث بيدي اليمنى، وأدخلت يدي اليسرى عميقاً داخل جيب آسكو، وقبضت بإحكام على اللآلىء التي وُضعتْ هناك. حصلت عليها قبل أن يدرك ما كان يحدث، لكنه أمسك بمعصمي قبل أن أتمكن من سحب يدي. واستلّ خنجره الصغير بسرعة من مخبئه، وقذف ذراعي للأعلى بحركة سريعة، وطعنني في قلبي.

لم ينقذني سوى كفاحي المسعور. جرحت شفرة المدية بوحشية وبشكل قاطع أسفل ضلوعي، ثم سحبني إليه، ورفع يده ليطعنني ثانية وهو يشتم ويلعن.

صرخ نيكولاس: «توقف يا أسكو! إنه نايجل! بحق الله توقف!». ووثب على قدميه وقلب الطاولة الصغيرة بينهما رأساً على عقب بفعله ذلك، ثم ألقى بنفسه في المسافة الفاصلة بيننا، وأمسك بيد آسكو اليمنى. سقط الخنجر الصغير إلى الأرض محدثاً قعقعة. طرحني أرضاً من بعده، وعندما سقطت اختطفته بتهور يائس، إذ أدركت أن حياتي كانت معلقة بخيط رفيع. وثب على قدميه ولسانه يمطر بالشتائم واللعنات، وللحظة لم ينتبه نيكولاس إليه. أنزل بصره إلي بينما استلقيت على ظهري لاهثاً، ورأى اللآلىء لا تزال ملتفة حول يدي اليسرى. قال: «آسكو، لقد سرقتها أيها اللص اللعين!».

قال آسكو ببرود: «شكراً لك يا ابن العم» وفجأة استل سيفه. وثب نيكولاس للوراء خطوة أو اثنتين، لكن الآوان كان قد فات إذ أن آسكو لم يمنحه الوقت الكافي ليستل سيفه. اندفع للأمام بطعنة قاتلة، وألقيت نفسي بتهور يائس على ساقيه لأرغمه على السقوط أرضاً، طار سيفه من يده، وشعرت بأصابعه على حلقي. قذفتُ الخنجر الصغير بحركة سريعة نحو الأعلى، فارتد للوراء يشتم ويلعن بينما سال الدم من وجنته الشاحبة. وللحظة كان الجميع في جلبة. كانت النساء تصرخن عند أعلى السلم، واندفع فرانك ليمون ودافت ويلي للداخل، ووقف نيكولاس مواجهاً إياهما وقد استل سيفه للتو، بينما نهض آسكو ببطء عن الأرض. كان الدم يسيل من وجهه المتجهم. قال: «سأقتلك على فعلتك هذه يا نايجل». عندئذ دخل الأب بنديكت برفقة العجوز توم هابرستي.

قال بصوت رهيب: «يكفي هذا! إذا كانت لاروا حكم قيمة عندكم، يكفي هذا!» أنزل نيكولاس سيفه، وللحظة بدا وكأن فرانك ليمون سيهجم عليه آنذاك، لكن آسكو أشار إليه فتردد.

قال آسكو بازدراء بينما حاول أن يرقأ الدم بمنديل: « إذا كانت لأرواحنا قيمة لدينا يا أبي؟ لست أدري ما إذا كانت حياة نيكولاس تعني له شيئاً، لكن من الأفضل له أن تكون كذلك، لأنها لن تساوي الكثير عندما تنكشف مؤامرته الخسيسة».

سأل نيكولاس بعنف: «ماذا تقصد يا ابن العم؟»



أجاب آسكو: «تماماً ما أقول. إنني مخلص كأي فرد من عائلتنا، غير أنه من المستحيل أن أقوم بجريمة قتل عمداً». ترنّح، وخرّ للوراء نحو كرسي. أمر الأب بنديكت بإحضار الماء، وانحنى فوقه ليتفحص وجنته.

ألقى نيكولاس نظرة عجلى حول الغرفة وأغمد سيفه، ثم قال: «إنها كذبة يا اسكو، وأنت تعلم بأنها كذبة. تعال يا نايجل!» رفعني عن الأرض بين ذراعيه القويتين، وحملني للطابق العلوي. حاولت جوديث أن تعترض سبيلنا، بيد أنه مر بها مروراً سريعاً وقال: «ليس الآن». وبعد أن مددني فوق سريري، أحلّ اللآلىء برفق من قبضتي ودفعها إلى داخل صدره. كانت ملطخة بالدماء. بعدئذ كشف قميصي ونظر إلى الجرح العميق الذي امتد للأسفل تحت ذراعي. وفجأة، كانت ابنة عمي إيزابيل عند مرفقه ومعها قطعة قماش كتانية نظيفة ووعاء من الماء. كان وجهها مبللاً بالدموع. قالت: «يجدر بك أن تأخذه بعيداً يا نيكولاس. سيقتله آسكو إن تركته هنا».

قال نيكولاس بهدوء: «أعلم يا إيزابيل. كان عليّ أن آخذه من قبل». ضمّدا الجرح سوية وساعداني على ارتداء ملابسي.

دخل العجوز توم هابرستي سريعاً قبل أن ينتهيا مني. قال: «فلتأخذه ولتذهبا بعيداً عن هنا بأسرع ما يمكن، سيد نيكولاس، إنها اللحظة الأخيرة قبل فوات الأوان. سأحزم لكليكما بعض الأشياء وأسرّج الخيول».

عندما وصلنا إلى قمة السلم، ارتعدت ابنة العم إيزابيل ووقفت ساكنة بلا حراك. همست قائلة:

«لا أستطيع النزول إلى هناك، وذلك بسببه». انحنى لها نيكولاس انحناءة كبيرة، وقدمت هي يدها فقبلّها ثم قال: «وداعاً يا ابنة العم إيزابيل».

قالت: «وداعاً يا نيكولاس، ولاتعد». وضعت يديها النحيلتين فوق كتفيّ وقالت: «لا تدعه يعود يا نايجل. إن الجو بارد جداً في القبر». وبينما كنا نهبط السلم ببطء، كان بمقدوري أن أسمعها تغني لنفسها على نحو حزين في ضوء القمر.

«لقد وارته الثرى قبل أن يبلغ ريعان الشباب
وأسلمت هي الروح قبل حلول المساء».

كان جدي جالساً في كرسيه في الردهة الكبيرة وقد تدثر بمنامته المبطنة بالفرو. دمدم قائلاً بنزق:

«أكان من الضروري أن تتشاجرا يا أولاد؟ لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق عندما كنا جميعاً صبية معاً».

قال نيكولاس: «إنني آسف إذا ما كنت قد أزعجت هدوء منزلك يا سيدي، سيكون من الأفضل للجميع أن أغادره الآن».

انحنى الأب بنديكت للأسفل ليؤاسي الرجل العجوز. قال: «لا بأس، لم يحدث الكثير من الضرر بعد. كل ما في الأمر أن عليهما ألا يتريثا هنا. ألن تباركهما هما الاثنان قبل أن يمضيا؟».

قال جدي محتجاً: «هما الاثنان؟ هل قلت هما الاثنان لكنك لا تستطيع أن تأخذ حفيدي بعيداً عني يا نيكولاس. إنه صديق جوديث».

قال الأب بنديكت: «رغم ذلك، عليه أن يذهب». وهمس بشيء ما في أذن الرجل العجوز.

غمغم جدي قائلاً: «هكذا إذن؟ أهذا هو الأمر؟ لا بد أن يُطاع جلالته. وأصغ يا حفيدي، عليك أن تخبره بأننا لا نزال مخلصين في كريغز».

أومأت بالإيجاب، وباركني جدي ثم تركني أذهب. أتت جوديث راكضة أسفل السلم. فكرت بأنها لا بد قد تأخرت بالضرورة لكي تتزين، حتى في منتصف الليل. كانت تلبس الثوب الأزرق الحريري الذي كانت تلبسه عندما أتى نيكولاس للمرة الأولى. هتفت: «أنت راحل نيكولاس؟».

قال نيكولاس بطريقة جافة: «إن جيادنا تنتظر الآن يا جوديث» ناظراً إليها نظرة عبرت، عن أكثر مما أراده هو.

«وهل ستأخذ نايجل؟ آه، ليتني كنتُ صبياً يا ابن العم!».

نهض آسكو من المقعد الخشبي الطويل حيث كان مستلقياً. لقد جعلت الضمادات البيضاء من وجهه الشاحب يبدو رمادياً باهتاً. سأل: «أي طريق تسلك يا نيكولاس؟»

أجاب نيكولاس: «طريق لانكاستر».

«إذن فسأرسل فرانك برفقتك ليدلك على الطريق الصحيح».

قال نيكولاس: «كلا يا ابن العم، أشكرك»

قال آسكو: «إذن يا فرانك يمكنك أن تذهب لتراقب مياه المحيط». وخرج فرانك ليمون إلى الظلام. ودعناهم على عجل، ولم يقم آسكو بأية حركة نحونا، والشيء الوحيد الذي أجبرني على الانحناء له كان فقط يد نيكولاس القوية على كتفي. قال بصوت مقيت: «وداعاً يا ابن الأخ، لن أنسى».

نظرت عالياً إلى وجهه البارد الجامد التقاطيع محاولاً بكل ما أملك من قوة كي أحافظ على صوتي ثابتاً، غير أنني لم أنجح في ذلك. قلت: «ولا أنا يا سيدي».

ضحك آسكو ضحكته المكتومة، وعندئذ مد يده وجذب جوديث نحوه بينما كانت تناشد نيكولاس بيأس لكي يبقى. قال لها: «دعيهما يذهبان يا جوديث».

سألته: «متى ستأخذني إلى سانت جيرمان يا آسكو؟».

أجاب: «لن يكون هناك ضرورة لذلك يا جوديث. عندما تنجح مؤامرة نيكولاس سوف ترقصين معه في وايت هول».

قالت: «وآنذاك سأرتدي لآلئك، أليس كذلك يا ابن العم؟»

نظر إليها نيكولاس بصمت لحظة. كانت تقف في ظل آسكو الداكن، ومسّت حافة ثوبها الحريرية الأرضية الملطخة بالدماء مسّاً رفيقاً عندما انحنت له باحترام.

قال أخيراً: «أعتقد أنها لآلىء ملعونة!» وخرج.

استوقفني الأب بنديكت في الشرفة. وبينما رفع يده كي يباركني، انحنى للأمام إلى أن كادت شفتاه الرقيقتان تلامس وجنتي. همس: «اعرف من توم ما الذي قصده آسكو عندما أرسل فرانك ليمون ليراقب مياه المحيط فلينعم عليك الله بالحظ السعيد يا بني».

ساعدني توم هابرستي في ركوب السرج، وكانت عيناه مملوءتين بالدموع عندما ودعني.

انحنيت للأسفل لأهمس له: «أخبرني بسرعة يا توم، ما الذي قصده عمي عندما أمر فرانك ليمون أن يخرج ليراقب مياه المحيط».

«أقال ذلك حقاً؟ إذن كان الله في عوننا جميعاً، إذ أنه يرسل بكما إلى حتفكما!»

قال نيكولاس مقاطعاً: «ماذا تقصد يا توم؟»

«إنها إحدى كلمات السر التي يستعملها، إنها تعني بأن يمتطي فرانك جواده إلى القلعة. سيد نيكولاس يجدر بك أن تفرّ من أجل حياتك».

قال نيكولاس: «إن تريثنا هنا فإن آسكو سيشك بالأمر. توم يا صديقي، اذهب إلى منعطف الطريق متخذاً درباً أطول وقابلنا هناك لتخبرنا ماذا علينا أن نفعل».

انطلقنا بجيادنا إلى خارج مرمى نظر نوافذ كريغز، وانتظرنا توم ليلحق بنا أتى بسرعة متخذاً الطريق من خلف المنزل.

قال: «لا وقت لدينا لنضيعه يا سيدي. إن أفضل خطة لديك هي أن تفرّ عن طريق البحر. هناك القليل من الناس الذين يسألون أسئلة مربكة على متن السفن في هذه الأيام. من المتوقع، في الوقت الحالي، وصول سفينة سيلفر ديل، لكن على العجوز روري تيلبرث ويت أن يكون مبحراً من ميلنثورب مع اقتراب المد. إنه سيفي بالغرض أكثر من أي شخص آخر».

قال نيكولاس ملحاً عليه: «هل أنت متأكد؟»

«نعم يا سيدي، لقد دخلت سفينته الميناء قادمة من أولفرستون في صباح البارحة لتكمل إلى بريستول. إنه لن ينتظر في الميناء أكثر مما تستدعيه الحاجة، لقد فات موعد وصوله من قبل الآن، ويمكنك الوثوق به».

قال نيكولاس محتجاً: «لكننا لن نصل إلى ملينثورب في الوقت المحدد أبداً»

قال توم: «ليس إن ذهبتما براً، لكن بحراً سوف تصلون في الوقت المحدد. فلتدعا الجياد تبقى حيث هي وتعاليا معي».

«لكن أصغِ يا رجل، سوف يروننا إن نحن غادرنا الميناء من الشاطىء».

«ليس إن قمنا بالانسلال منزلقين أسفل الجدول. توقف عن الكلام بحماقة يا سيدي واتبعني».

جرّ توم أعدال جيادنا للأسفل وأدلاها فوق كتفيه القويتين. قمنا بالطواف حول حافة بستان الفاكهة، وتسلقنا بجهد أسفل ضفة الجدول الشديدة الانحدار الكائنة بالقرب من المخزن الصغير حيث حُبست. كان كل شيء هادئاً من حولنا. لم تكن هناك أضواء بادية في ذلك الحين في كريغز، ما عدا شمعة واحدة متقطعة اللهب عند نافذة ابنة العم إيزابيل. كان المد عالياً في الخليج، وكانت القوارب الصغيرة التي التجأت إلى هناك تسحب مراسيها للأعلى. قفز العجوز توم إلى داخل أحدها وانشغل للحظة. بعدئذ، مدّ يده للخارج وساعدنا في الصعود إلى متنه. انسللنا بهدوء أسفل الجدول، ومن ثم إلى خارجه مبحرين فوق مياه الخليج الهادئة.

جثمت كريغز على الشاطىء من خلفنا مطلقة وعيدها، بيد أنه لم يبلغ مسامعنا أي صوت من جدرانها الكالحة.

كانت جميع المنازل الصغيرة في سيلفرديل تغط في النوم، لكن عندما درنا حول آرن سايدنوت، أتت سفينة قوية صغيرة مبحرة أسفل القناة. بعد لحظة هتف إليها توم فاتجهت نحونا.

صرخ قائلاً: «روري، إنه أنا توم هابرستي!». وبينما تقدمنا تدريجياً وباطّراد جنباً إلى جنب معها، مال شكل بشري داكن فوق حافة المركب ولوّح بمصباح زيت. قال بصوت أجش: «أهذا العجوز توم، ما الأمر؟».

قال توم هابرستي: « هناك راكبان إلى بريستول، ولا تطرح أية أسئلة يا روري».

سأل روري: «وهل لدينا وقت لنضيعه يا توم؟».

أومأ توم بيده إيماءة ذات معنى فوق حلقه، ثم قال: «والأمر ليس من شأننا يا روري».

سأل روري: «هل هما صديقاك يا توم؟».

وقف توم في القارب، وثبّت نفسه بالقرب من جانب السفينة. همس: «روري، ذلك الشخص هناك هو ابن السيد بيلهام».

قال روري: «ارمه للداخل إذن، لِمَ لَمْ تقل ذلك من البداية؟».

ساعدني توم لأتسلق فوق جانب السفينة وتسلق نيكولاس من ورائي.

سأل بقلق: «توم يا صديقي العجوز، هل سيلقي السيد اسكو القبض عليك لما تفعله؟»

قال توم: «كلا، سوف أتدبر الأمر. وكذلك الأب بنديكت أيضاً سيتدبر الأمر».

قال نيكولاس: «فليباركك الله يا توم».

قال: « فليبارك الله كليكما يا سيدي».

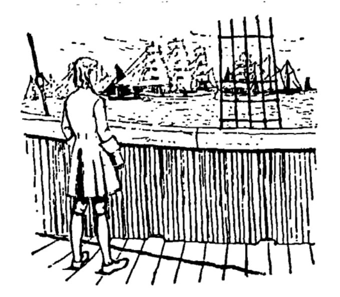
وبينما نحن منطلقون بعد توقف، تباطأ توم ووقفنا نراقبه حين غيّر مساره متجهاً نحو كريغز. وسرعان ما غاب عن أنظارنا في البحر المضاء بنور القمر، وأبحرت سفينتنا خارجة من الجدول بسرعة باتجاه الخليج، وقُدماً نحو الحرية.

لم نكن نعرف الكثير عن عدد الشهور التي لا بد أن تمر، أو عن ماهية المغامرات الغريبة التي ستحدث لنا قبل أن نعود إلى تلك الناحية ثانيةً.



الفصل السادس

باتجاه الغرب



كان روري تيلبرث ويت رباناً طيب القلب كما عرفته دوماً. دثّرني ببطانية، ومددني في سريره الخاص. المُبيّت(1)، ولم أعترض على ذلك إذ كنت مرهقاً للغاية وجائعاً وقد نزفت الكثير من الدماء، حتى عندما سكب من كوز مشروباً روحياً محرقاً في جوف حلقي.

استيقظت في الصباح التالي من نوم خفيف قلق، وأنا ثمل وأشعر بالألم في جسدي، وكان قلبي ينبض في ضلوعي على نحو مؤلم. على الرغم من ذلك، كان من الضروري أن أكون فوق ظهر المركب أتنشّق الهواء المالح، وأراقب خط الساحل ذا النتوءات الحادة بينما تقاذفنا الموج في البحر الإيرلندي. كنت جائعاً، وقضمت بتأنٍ فطيرة الشوفان بينما كنت أراقب.

---

(1) السرير المبيت: سرير كائن في جدار السفينة.

هتف إلي العجوز روري حين رآني. قال: «كن على يقين بأن الصبي الوسيم يأكل دائماً سيدي نايجل، ليس بوسعي أن أقدم لك الأفضل من هذا». ورمى إلي بقطعة فطيرة. قال: «لقد صنعت والدتي هذا قبل أن نبحر».

سألت: «هل تعيش في أولفرستون يا روري؟»

أجاب: «أجل، لقد ولدت ونشأت هناك».

«إذن هل تعرف سيدة تدعى السيدة فيل؟».

«أتقصد السيدة فوكس سوورث موور، تلك السيدة التي كانت ابنة القاضي فيل. أتسألني إن كنت أعرفها؟ إن الجميع يعرفونها على طول طريقنا».

سألت قاضماً الفطيرة قضمات كبيرة: «لِمَ لَمْ يكونوا يحبون زوجها الثاني يا روري؟»

«ما الذي يجعلك تقول ذلك يا سيدي نايجل؟»

«ألا يكفي أنهم لا زالوا يدعونها السيدة فيل؟»

«ربما، لكنه كان سيداً لطيفاً جداً. لقد كان السيد فوكس حسن السيرة إلى حد كبير، وبإمكان المرء أن يثق به. ورغم ذلك، أذكر وقت عاملوه بشكل مخزٍ إلى حد بعيد في جميع أنحاء محلّة أولفرستون عندما كنت صبياً».

«لماذا يا روري؟».

«لأنه حاول أن يحمل الجميع على تغيير مذاهبهم ليصبحوا صاحبيين. لقد ظنّ بعضهم أنه ساحر».

«وهل كان ساحراً يا روري؟»

«فليحفظنا الله، كلا. لكنهم ذهبوا كذلك إلى القاضي فيل ليكذبوا عليه لدى مجيئه للمنزل عبر منطقة الرمال، وأخبروه بأن زوجته وابنته قد سُحرتا. لقد كانوا جميعاً كاذبين مئة بالمئة، لكن القاضي فيل كان سيداً جليلاً، أجل لقد كان كذلك. لقد تابع السير بجواده نحو المنزل مباشرة ليرى زوجته ويعرف القصة

الصحيحة. وبعد ذلك لم تحدث أية توافه طوال فترة حياته، وكان بمقدور السيد فوكس وأصدقائه أن يترددوا على ناحية أولفرستون كما يحلو لهم. لقد كان سيداً نبيلاً بحق، نعم لقد كان كذلك، لكم كنا سنسعد لو كان هنالك المزيد من الرجال ممن هم مثله».

«وهل غيّر هو مذهبه إلى الصاحبيّة أيضاً؟».

«كلا. أعتقد أنه كان أبرع بكثير من أن يوقعوا به».

«لماذا إذن ترك السيدة فيل تسجن في قلعة لانكاستر يا روري؟»

«لقد حدث ذلك بعد وفاته يا سيدي نايجل. كان القاضي سيصاب بالدوار في قبره لو أنه علم بالأمر. فليرح الله روحه. قبضوا عليها بعد وفاته بوقت قصير جداً. لقد كنت في ذلك المكان عندما حاكموها، وقد رووا الكثير من الأكاذيب النتنة. أنا نفسي لم يكن بإمكاني أن أصدّق بأنها قد أساءت لأحد. غير أنها دافعت عن نفسها بجرأة وكان الله إلى جانبها، نعم لقد فعلت! قالت: «لقد أخرجتموني من حماية الملك، لكن ليس بمقدوركم أن تخرجوني من حماية الله القادر على كل شيء!»نعم، إنها سيدة نبيلة بحق على الرغم من أنها صاحبية».

قلت: «ألا تحب الصاحبيين يا روري؟»

«بلى، إنني لا أجد ما يعيبهم ما داموا يتركونني وشأني. ويمكن للمرء أن يعمل لديهم لأنهم أناس مستقيمون. إنني أسلم لهم بذلك. لقد نقلت العديد من الحمولات للسيدات في سوورث moor، لم يكن هناك ما يجعلني أتشكّى، ولو أن الآنسة سارة كانت نزاعة للتسلط قليلاً».

«هل كانت الآنسة سارة ابنة القاضي فيل أم السيد فوكس؟»

«ابنة القاضي فيل. لم يكن للسيد فوكس أولاد خاصين به، على الرغم من أن جميع السيدات الصغيرات كُنّ ينادينه أبي. لقد كان رجلاً طيباً إلى أبعد مما تتصور، وكانت هي ملاك».

قلت: «أعلم، لقد رأيتها». وتساءلت عن سبب ملازمة وجه سيدة عجوز، قابلتها صدفة، لي على نحو مستمر، ومع ذلك كنت سعيداً لأسترجعه في ذاكرتي.

اتخذنا طريقنا مباشرة إلى بريستول. تساءلت عما إذا كان هناك خطر علينا فيما لو أن رسالة قد بعثت من لانكاستر، لكن نيكولاس لم يعتقد أن ذلك سيعرضنا للخطر. قال مبتسماً: «سوف يستنتجون بأن الثعالب قد مضت إلى جحورها. على أية حال، سنكون قد سبقناهم. كل ما في الأمر أنه ربما كان من المستحسن بالنسبة لنا أن نستقل السفينة بأسرع ما يمكن ونمضي بعيداً».

سألت: «إلى أين يا نيكولاس؟» بدا من وجه نيكولاس أنه قد عقد العزم على أمر جديد.

قال: «ليس إلى سانت جيرمان يا نايجل. إن كانت هذه الإشاعات التي تتكلم عن مؤامرة لقتل مغتصب العرش، إن كانت صحيحة، فإن كل ما نملكه يكون قد ضاع، وسيكون من المستحيل أن يصدق قضيتنا أحد. لقد تكلم والدي آخر الأمر بشكل واقعي أكثر مما ينبغي، لن يُستعاد العرش أبداً خلال فترة حياة جلالته. إن علينا أن ننظر للمستقبل، والمستقبل ليس هنا ولا في سانت جيرمان. إننا متجهان نحو العالم الجديد يا نايجل! لقد قال السير روبرت بأنه لو كان شاباً لذهب إلى أميريكا ورأى كيف هي الحياة هناك. حسناً، إنني شاب، وسوف أمضي إلى هناك. لقد كان ذلك أفضل من المضي في جولة حول الريف، وزيارة السادة المخلصين الذين يفضلون أن لا يكون ولاؤهم منطوياً على مخاطرة».

سألته بلهفة: «هل ستأخذني معك يا نيكولاس؟»

قال: «بالطبع. من الآن فصاعداً أنا وأنت نسافر معاً يا نايجل. إنني مدين لك بأكثر من ذلك.

لكن بالنسبة للخطوة التالية هناك مشكلة، علينا أن نبيع اللآلىء وذلك ليس بالأمر الهيّن كما يبدو. إنني لا أعرف بريستول، كما أنني أجهل قيمة بضاعتي، لكنني لا أتحمل أن أتعرض للاحتيال».

قلت مقترحاً: «اسأل روري».

سأل نيكولاس: «أيمكنني الوثوق به إلى ذلك الحد؟» لم يكن لشخص مثله أن يسأل سؤالاً كهذا، لكنه كان قد دفع ثمن الثقة غالياً منذ وقت قريب جداً.

قلت: «يمكنك أن تثق به في أي مكان. إنه صديق توم هابرستي. كما أنه يعرف السيدة فوكس سوورث موور».

«ومن تكون؟»

«السيدة المسنة التي رأيناها في الطريق إلى قصر نذرسلاك».

«لا بد أنك تملك ذاكرة غير عادية لتذكّر الوجوه يا نايجل إن كنت تتذكر كل سيدة مسنة تلتقي بها في رحلة على متن جوادك بعيداً عن المنزل. ومع ذلك، لقد كان وجهاً جميلاً جداً. أنا أيضاً أتذكره، وسوف أصدق كلامك عن روري تيلبرث ويت».

حين بدأنا في طلب نصيحة روري وبخّنا قائلاً: «لن أقدم لكما نصيحتي البتة إن كان الأمر يتعلق بوجهتكما. إنني لا أعلم ولا أريد أن أعلم. حتى أنني لا أعلم إن كنت سأستطيع تذكر اسميكما قُبيل وقت عودتي».

قال نيكولاس: «شكراً لك يا روري. لكن أخبرني، إن كان لديك شيء ثمين تريد بيعه، مجوهرات مثلاً، وكنت بحاجة ملحة للمال، إلى أين في بريستول كنت ستذهب؟»

فكر روري بإمعان للحظة، ثم قال أخيراً: «كنت سأذهب إلى العجوز، ناثان فراير. ليس لأن ذلك هو عمله في الوقت الحالي فحسب، بل يمكنك الوثوق به كذلك لأنه مثل الصاحبيين».

سأل نيكولاس بابتسامة لاهية على شفتيه: «وما الفرق في ذلك؟»

قال روري: «وي، وهل لدى هؤلاء الشياطين المساكين التافهين خيار آخر. إن ذلك جزء من دينهم، فيما يبدو. عليهم جميعاً أن يقولوا الحقيقة وأن يقدموا سعراً عادلاً، وعليهم ألا يساوموا أو يعطوا أوصافاً غير صحيحة لبضائعهم. إنه لدين صارم جداً عليهم إذ أنهم تجار وأصحاب متاجر. لكن الغريب في الأمر هو

أن أعـمـالهم تـزدهر مع ذلك. أعـتـقـد أن ذلك بديهي. انظر إلي، أنت تسـألني أين يمكنك أن توفق إلى القيام بتجارة وأنا أخبرك بأن تذهب إلى صاحبي، رغم أنني لا أوافقهم أكثر مما توافقهم أنت».

أخذنا بنصيحته وما كان لنا أن نفعل غير ذلك. إذ أننا تهنا في مدينة بريستول الكبيرة تلك، بسفنها الكبيرة التي تزحم أرصفة الميناء بأعداد هائلة، وشوارعها المزدحمة، بمتاهة بيوتها التي تطل عليها أبراج كنيستها الجميلة. إنني لم أر مثيلاً لها منذ أن اجتزت لندن راكباً على متن الجواد منذ سنوات. كان نيكولاس معتاداً على المدن الغريبة، أما أنا فبقيت قريباً منه حاسداً إياه في سري على سيماء الثقة بالنفس البادية عليه.

ويدا لي بمجرد وداع روري تيلبرث ويت، وكأنني قد اتخذت سبيلي من العالم القديم إلى الجديد، وللحظة مفاجئة انتابني شعور متزايد بالشوق للأشياء المألوفة حتى وإن كانت أشياء بغيضة. فقد أخذ يدي في قبضته الكبيرة وقال: «فليباركك الله يا سيد نايجل حيثما ذهبت. ابق على الدوام مع السيد نيكولاس ولن يصيبك أي مكروه. لكن يا صبي، إن عدت في حياتك إلى الريف الشمالي، فابق بعيداً عن كريغز ما لم تكن سيداً هناك، وتذكر في أي مكان آخر أنك لست وحيداً».

قلت مودعاً إياه: «سوف أتذكر ذلك يا روري». لم يكن بمقدوري أن أدرك أن بقائي بعيداً عن كريغز كان معناه أن أرافق الأشباح.

كان ناثان فراير يعيش في أحد البيوت المتينة التي غالباً ما يسكنها التجار الأغنياء وتكون غير بعيدة عن رصيف الميناء حيث رست سفينتنا. أكسَبَنا اسم روري الإذن بالدخول بسرعة إلى مكتبه الخاص بأعمال المحاسبة وعقد الصفقات. قال عندما رحب بنا: «إن من عادتي أن أقوم بالكثير من أجل أي شخص من الشمال الغربي». كان رجلاً كهلاً ببشرة كالبرشمان[1] وعينين متعبتين، وعندما شرحنا من أين جئنا، أشرق وجهه الوقور.

تساءل نيكولاس: «أنت نفسك ربما تكون قادماً من الشمال الغربي يا سيدي؟».

(١) البرشمان: ورق نفيس شبيه بالرقوق.

قال: «كلا يا نيكولاس كريغ». وقد لاحظت بأنه لم يقل له لا كلمة سير ولا كلمة سيد. «لم أذهب مطلقاً إلى هناك، لكن جميع الأشياء التي أقدرها جزيل التقدير في الحياةقد أتت إلي من الشمال الغربي، الدين الذي أؤمن به، الزوجة التي أحب، وأعز أصدقائي، وأنا تاجر مستقيم وأحب أن أرد ديوني، حتى تلك الديون التي من المستحيل ردّها بشكل كامل».

عندما أخرج نيكولاس اللآلىء، فحصها الرجل العجوز بأناة ما بين أصابعه. سأل محدقاً إليه بنظرة حادة:

«هل هي ملكك لكي تبيعها؟»

أومأ نيكولاس مجيباً: «إنها جميعاً إرثي».

قال ناثان فراير: «إنها تساوي مبلغاً كبيراً جداً من المال. ليس هذا من اختصاصي في الوقت الحالي، لقد توقفت عن ممارسته لصالح تجارة أكثر أهمية، غير أنني أعلم قيمتها وأستطيع أن أبيعها لك. لقد مضى زمن طويل منذ أن تاجرت باللآلىء، لكن ليس بمقدوري أن أتذكر أنني قد رأيت أية لآلىء تماثلها تماماً، حتى في أيام شبابي. إن نساء مجتمعنا لا تلبس مثل هذه الأشياء. ومع ذلك فقد رأيت بعضهن ممن يمكن اعتبارهن جديرات بها في نظر العالم».

سألت فجأة: «السيدة فوكس؟»

قال موافقاً: «أجل، مارغريت فوكس، لؤلؤة بين النساء. لكن كيف لك أن تعرفها؟»

«لقد رأيتها منذ وقت قريب راكبة على متن جوادها بالقرب من ضفة كينتز. لم أستطع أن أتمالك نفسي عن ملاحظتها، وكان لا بد لي أن أسأل من تكون».

قال معلقاً ليس بمقدور أحد أن يتمالك نفسه عن الانتباه إليها. سوف تحتفظ بجمالها إلى أن تموت».

قال نيكولاس: «إن الأمر أكثر من كونه جمالاً».

وافق الرجل العجوز: «أعتقد أن الأمر كذلك. ربما يكون ذلك هو سبب أنه لم يكن هنالك من تماثلها، رغم أنني عرفت أخريات من ذوات الخُلُق والسريرة النقية، جولي بن مثلاً، وماري فيشر التي هي ماري كروس في الوقت الحاضر، تلك التي زارت تركيا العظمى».

ضحك نيكولاس وقال معتذراً: «عفوك يا سيدي. لكن يبدو من الغريب أن تفكر بصاحبية في حريم تركيا العظمى».

فسّر السيد فراير بهدوء: «إنك تسيء فهمي يا نيكولاس كريغ. لقد كانت ماري خادمة على المائدة من مدينة يوركشير. كنت أعرفها جيداً، وقد ذهبت لتشاهد تركيا العظمى وحدها وسيراً على الأقدام من زينت إلى أدريا نوبل لتأخذ لها رسالة من الله».

صرخ نيكولاس: «يا للجنون التام!».

أومأ الرجل العجوز موافقاً: «جنون تام. لكن عندما قال بول بأن مكر الله كان أكثر حكمة من الرجال، أعتقد بأنني عرفت ما رمى إليه».

سألت باندهاش: «لكن ماذا كانت الفائدة من ذلك؟».

قال السيد فراير: «أعتقد أن ذلك شيء ليس لنا أن نعرفه». وذكرني ذلك بجواب الأب بنديكت عندما سألته عن الاستجابة لصلواته، فلزمت الصمت لبرهة. فكرت بالأب بنديكت مصلياً وسط ظلمة كريغز، وبالسيدة فيل تواجه قضاتها تحت الأبراج المروّعة حيث حدق رأس الأب آرو سميث المتجهم ذات مرة، وهو ضرير، نحو الجانب الآخر من الخليج، وهذه المرأة المجهولة ماري فيشر ماشية أميالها التي لا تعد ولا تحصى لأنها آمنت بأنها رسولة الله. أعتقد أن كل تلك الحقائق قد حملت في طياتها معنى خفياً في تلك الفترة من الحياة، أو ربما كان سيوجد لها معنى ما لو لم يُعمِل الظلم يده العابثة فيها.

تنهد السيد فراير ورفع اللآلىء مرة ثانية، ثم سأل: «هل أنت باقٍ لوقت طويل في بريستول يا نيكولاس كريغ؟»

هز نيكولاس رأسه قائلاً: «ليس لأطول مما هو مُجدٍ. أنا وابن عمي نعتزم عبور الأطلسي».

نظر السيد فراير نظرة ثاقبة وسأله: «وما الداعي للعجلة؟»

تردد نيكولاس ثم قال أخيراً: «إننا على مسافة ليست بالبعيدة من أقرباء يتمنون لنا الأذى. لقد كان الغلام في خطر إلى حد ما».

ألح السيد فراير: «أهذا كل ما في الأمر؟ اغفر لي، إنني لا أريد التدخل في شؤونك. كل ما في الأمر أنني قد أتمكن من مساعدتك لو كنت فقط متأكداً----»

وفجأة رمى نيكولاس بكل حذره بعيداً وقال: «سيدي، إنني خادم لدى جلالة الملك جيمس. لقد كنت أتابع التحقيق في الشمال الغربي ولم أُصب نجاحاً ذا أهمية. أشك بأن أحدهم قد خانني وأفشى سري، وقد ألاحق».

قال الرجل العجوز بصوت دال على التصميم: «إذاً، هذا كل ما أحتاج معرفته. أكان لك دور في المكيدة المدبرة لاغتيال ملكنا الحالي».

أكّد نيكولاس قائلاً: «يا إلهي، كلا! أقسم----»

قال السيد فراير: «لا ضرورة لأن تقسم أيها الصديق، لا أحتاج سوى الحقيقة، وتبعاً لاعتقادنا فإنه ليس هنالك سوى حقيقة واحدة».

قال نيكولاس بجدية: «إنني إذن أؤكد لك براءتي، وعلاوة على ذلك يا سيدي، فإنني مقتنع بأن جلالته لا يعلم شيئاً عن الأمر وما كان ليقبل به أبداً. أعني أن يستعيد عرشه الضائع فوق جثة زوج ابنته وابن أخيه، إن الفكرة غير واردة! عندما وصلت الإشاعة إلى مسمعي في أول الأمر لم أستطع تصديقها».

قال السيد فراير: «ومع ذلك، فهي صحيحة. لكن يمكنني التصور أنه لم يكن لك دور فيها، وبمقدوري أن أصدق إلى حد بعيد أن جيمس ستيوارت لم يكن له دور فيها أيضاً. سؤال واحد أخير، هل لي أن أعلم عملك الحقيقي في أميريكا؟».

ومرة ثانية تردد نيكولاس، ومرة ثانية رمى بكل تكتمه بعيداً، وببساطة كبيرة أخبر الرجل العجوز بقصة فكرة والده وبمهمته الخاصة. «لقد أخبرني السير روبرت بليث بأنه لو كان شاباً لذهب وشاهد أميريكا» توقف للحظة ثم تابع: «وذلك ما نويت فعله تماماً».

أنصت السيد فراير بهدوء، وبعدئذ بقي صامتاً لبرهة، قال أخيراً: «إنني أوافق والدك بأن جيمس ستيوارت لن يستعيد عرشه على الإطلاق من خلال المساعدة الأجنبية. حتى أنني أذهب لأبعد من ذلك--- إنني أعتقد بأنه لن يستعيده بقوة السلاح على الإطلاق. هناك فقط طريقة واحدة للفوز بعرشٍ والاحتفاظ به على نحو أكيد، وذلك من خلال قلوب الرجال. حسب اعتقادي فإن حاكمنا الحالي لا يملك ذلك النفوذ، ولكن كذلك جيمس ستيوارت لا يملك ذلك النفوذ، ومن الصعب في الوقت الحالي تصور ما الذي يكمن وراء هذه التغييرات والاضطرابات ما لم تتدخل عناية الله فيها كما كان يقول العزيز جورج فوكس.

إنني أشك في نجاح مهمتك إلى أميريكا أيها الشاب، ورغم ذلك فإنني أعتبر أنه ربما يكون من المستحسن لك أن تذهب. إن شيئاً ما يزداد قوة وكبراً هناك وهو أعظم مما ندري، وإنني لأتمنى أن يستطيع ولاءٌ كالذي لديك أن يدخل في بنيان ذلك الشيء».

قال نيكولاس بصوت دال على التصميم: «إن ولائي هو لجلالته، إنني لا أطلب أكثر من أن أشهد ذلك، والآن وقد علمت بكل شيء يا سيدي، ألا زلت تشعر أنه بمقدورك مساعدتي؟»

أومأ السيد فراير مجيباً: «لقد أخبرتك بأنني سأفعل الكثير من أجل أي شخص من الشمال الغربي. غير أني كذلك سأفعل الكثير لأي شاب آمن بقول الحقيقة، وقد أرضيتني في هذه النقطة. أما فيما إذا كانت قدرتك على قول الحقيقة ستعزز قضية جيمس ستيوارت، فإنني لا أستطيع أن أبتّ في ذلك. كل ما أعرفه هو أنني أثق بك وسوف أفعل كل ما بوسعي فعله لأساعدك أنت وابن عمك في طريقكما إلى العالم الجديد.

إنك لن تعثر على ما ترمي إليه هناك، وربما لن تجده في أي مكان. ومع ذلك، فإن ما نجده هو غالباً خيرٌ مما نسعى إليه. الآن بالنسبة للعمل! هنالك قافلة صغيرة من السفن متجهة نحو بلاد الهند الغربية من المقرر لها أن تبحر عندما تصبح الريح والمد مؤاتيين. أملك مبلغاً من المال استثمره في مضاربة على سفينة

إيكليت، المسؤول عنها الربان ستيري وهو متجه إلى جمايكا، وحتى في هذه الساعة المتأخرة أعتقد أن بوسعي تدبير إذن السفر على متن السفينة لكليكما. إن تدبير إذن السفر من ذلك المكان إلى البر الرئيسي هو أمر هين، أما الانتظار لفترة أطول على أمل أنه سيكون بمقدورك السفر مباشرة فلن يكون، في رأيي، من الحكمة في شيء. إن إيكليت سفينة صغيرة لكنها جديرة بأن تبحر، ولا أحد ينشد الراحة في رحلة عبر الأطلسي، وحتى إن كانوا ينشدونها فإنهم نادراً ما يجدونها».

تم ترتيب الأمر بشكل سريع. وضعت اللآلىء في مكان أمين، وحجزت أذون السفر على متن السفينة، وأرسل شاب من المستودع راكضاً بأقصى سرعة ممكنة لشراء مؤونة من الطعام وضروريات أخرى من أجل الرحلة.

طلب نيكولاس قلماً وحبراً وورقاً، وجلس ليكتب رسالة عاجلة إلى جلالته شارحاً وضعنا الحالي وخططنا للمستقبل القريب، ووضع هذه الرسالة على أنها رسالة إلى السيد الفاضل صاحب نزل بليموث الذي كان بيته هو المكان المحدد لالتقاء عملاء جلالته. سأل: «هل من الممكن أن يتم إيصال هذه الرسالة على نحو مضمون؟»

نظر السيد فراير إلى رزمة الأوراق الصغيرة بقليل من الارتياب، ثم سأل: «هل تحتوي أي شيء يمكن أن يسبب الأذى؟»

أكد نيكولاس: «أقسم أنها لا تحتوي على أي شيء مؤذيا سيدي، لا شيء مؤذ!»

قال السيد فراير: «إن تعهدك سيكون كافياً. إن لدي تجارة في بليموث منذ وقت طويل، وسيتم إيصال الرسالة.

أما الآن، فبالنسبة لما يتعلق بتسوية أمورنا، فإن جزءاً من المال سيوضع تحت تصرفك على الفور والجزء الآخر سيفتح لك به حساب جار لدى عملائي في فيلادلفيا، أما الرصيد المستحق الدفع لك عند تمام الصفقة فسيكون مهيأ فور عودتك إلى هنا، إن بدا ذلك مسموحاً به وفقاً لقواعد الإجراء البرلمانية».

قال نيكولاس باندفاع: «أخبرني يا سيدي، لم توليني اهتماماً كبيراً وأنا رجل غريب» «لأنك واقع في مشكلة يا صديقي، ولأنك قدمت إلى هنا من الشمال الغربي، وفي المقام الأول، دون شك، لأن ديننا وجميع الأديان الحقيقية تدعونا إلى أن نولي الآخرين اهتماماً».

قلت مقاطعاً وقد دفعني فضولي إلى ذلك: «إن كل ذلك هو أمر جائز يا سيدي، ولكن ألم يسبق أن قام أحد الغرباء بخيانة ثقتك به؟»

قال السيد فراير: «ربما، لكن مما لا ريب فيه أننا إن توقفنا عن منح ثقتنا فإننا سنخون شيئاً أعظم شأناً»

سأل نيكولاس: »دون أن تتوقع أي مقابل لمنح تلك الثقة؟»

قال العجوز موافقاً: «تماماً، دون أن أتوقع أي مقابل. ألم يقل سيدنا المسيح عليه السلام كلاماً مشابهاً لهذا إلى حد ما؟»

كان هنالك شيء ما في ناثان فراير ذكرني بجدي في إلفورد والأب بنديكت في كريغز. ولو كنت في وضع حسن بما يكفي، لاستكشفت بريستول إشباعاً لرغبتي، لكننا لم نملك الوقت، وبصعوبة تمكنا من الصعود على متن السفينة إيكليت قبل إبحارها، إذ أن تغيراً مفاجئاً في الريح قد جعل ملاحي السفينة جميعهم ينطلقون مسرعين بُعيد صعودنا متن السفينة.

كنت أرغب برؤية البلدة أكثر، وكان نيكولاس مستعداً بشكل كاف لإشباع رغباتي، بيد أن الجرح الموجود أسفل جانبي كان لا يزال يؤلمني وينبض على نحو واخز، وقد انتابني قلق مبهم.

راقبت البحارة أثناء عملهم، وفكرت كم كانت حبال الأشرعة والصواري معقدة بالمقارنة مع السمّاكات[1] الساحلية ومراكب الصيد التي كنت حسن المعرفة بها في الخليج. وعندما تحركنا أسفل القناة، تأملت بقية قافلة السفن بتلهف كانت السفن الكبيرة تزين المكان برونقها وبهائها، البركات [2] الجميلة والمراكب الشراعية الثنائية الصواري والكتشات[3] القوية التي بدت صغيرة جداً

(١) السَمَّاك: مركب شراعي وحيد الصاري.

(٢) البَرْك: مركب بثلاثة صوارٍ.

(٣) الكَتْش: نوع من السفن الشراعية ذو صاريين.

إلى جانبها. كان رأسي يؤلمني وحلقي متقرّح، لكن على الرغم من ذلك بقيت أراقب إلى أن بدأ المشهد بكامله يتراقص أمام عينيّ وحملني نيكولاس للأسفل ظاناً بأن حركة الأمواج قد أنهكتني. حتى عندما كنت في مأوانا المزدحم، بقيت قافلة السفن تتراقص أمام عينيّ دون توقف، ورسمت الأشرعة المنتفخة في الريح شكلاً غريباً في مقابلة سماء شديدة الشحوب.

لم أعرف في حياتي كابوساً يستمر لوقت طويل وفي اللحظات التي كان فيها عقلي أكثر سلامة أدركت بأنه لا بد أن يكون كابوساً وإلا فكيف كان للتمثال الموجود في مقدم السفينة الكبرى، الذي شاهدته أمامنا، كيف كان له أن يتحول إلى ابنة العم إيزابيل ويرقص فوق الأمواج؟ وكيف استطاع آسكو أن يأتي متوعداً وهو يركب ظهر فحله الضخم الأسود داريوس على طول المركب؟. أحياناً كان داريوس هو من يطيح برأسي بحوافره الكبيرة، وأحياناً كان صوت تحطم الأمواج، وأحياناً كان نيكولاس الذي لم يدعني أنم. لم أكن أريد للكابوس أن يستمر، لقد كنت متأكداً تماماً بأنني ما كنت أريده أن يستمر. ولكن لو أن الضجة تتوقف، أو لو أن نيكولاس يتركني وحدي، إذن لأفقت لأجد نفسي في إلفورد عند النافذة ذات الزجاج الملون والشمس المشرقة ترسل أشعتها من خلالها.

لا أعلم كم من الوقت استمر كل ذلك، أو كم مرة ناشدت نيكولاس أن يدعني أمضي، لكن بعد وقت بدا طويلاً جداً، سمعت صوتاً أجش يقول: «حسناً، أتريده أن يموت يا سيدي؟».

قال نيكولاس مردداً بصوت لم يسبق لي أن سمعته من قبل على الإطلاق: «أتريده أن يموت يا سيدي؟ لماذا، إنه كل ما تبقى لي في العالم!»

قال الصوت الأول: «إذاً فمن المحتمل أن تفلس قريباً. تعال يا سيدي، اسمي بوب غريس وأنا جراح حين أكون غير ثمل. دعنا نلقي نظرة عليه».

كان شخص ما يلمسني، ولم أكن أرغب بأن يلمسني أحد. أردت الذهاب إلى إلفورد.

سأل السيد غريس مطلقاً حازوقة ثملة: «هل أفهم من ذلك أنه أحد أقربائك يا سيدي؟»

أجاب نيكولاس باقتضاب: «نعم يا سيدي».

«أأنت متأكد بأنك لا ترغب في التخلص منه؟»

«يا إلهي، كلا يا سيدي!»

«غريب، إن أغلب الناس يفعلون هذا، ومع ذلك ألديك أي شيء لأشربه؟ ذلك الشيء؟ كاتلاب! اشربه أنت وسأذهب أنا لأجد وكيل الربان».

فيما بعد، أخبرني نيكولاس بأن ما منعه من رفض عون هذا الغريب الثمل كان فقط يأسه المطلق من نجاتي الذي ترافق مع تذكره للسيد فراير العجوز وكلماته حول الثقة. وقد تردد نيكولاس حين عاد السيد غريس بزجاجة في يده ومنشفة رطبة مربوطة حول رأسه على نحو غير متقيد بالعرف والرسميات.

قال: «لقد قلت يا سيدي بأنك جراح عندما تكون غير ثمل. ألن يكون من الأفضل أن ننتظر؟»

فكان الجواب: «ربما أكون جراحاً حين أكون غير ثمل يا سيدي، لكنني أصبح شيطان الجراح عندما أكون ثملاً. ولسوف يستلزم الأمر الشيطان بعينه لحفظ هذا الغلام من الأسماك إن نحن انتظرنا لفترة أطول. هيا، سلمه إلينا!»

كان بمقدوري أن أشعر بقميصي يُفتح بطريقة فظة، وبالضمادة تُزال من جانبي، وجسّتني أصابع نحيلة على نحو مؤلم. آنذاك، وبشكل مفاجىء، ليس بمقدوري أن أعبر عنه بطريقة أخرى، أصبحت تلك الأصابع حبلاً مجدولاً جذبتني لأعود من إلفورد.

قال الصوت الأجش مخاطباً نيكولاس: «أصغِ، إلي أيها الشاب. إنني غريب، كما أنني ثمل، وأنت مجنون لوثوقك بي. حسن جداً، إن لم تمنحني ثقتك فإنه سيتوفى».

قال نيكولاس: «أنا لا أثق بك يا سيدي، لا أعلم لماذا. ما تريدني أن أفعل؟»

«دعني أولاً أنظفه كلية وبعدئذ دعونا نخرجه من هذا الجحر النتن. أعلم أن ذلك ضرب من الجنون، إن جميع أفكاري مجنونة وعلي أن أشرب لكي أتخلص منها، لكننا إن صعدنا به إلى الهواء الطلق فإنه لن يعاني أكثر مما يعاني الآن».

احتج نيكولاس: «لكن نسيم الليل سيقتله يا سيدي».

«ليس أكثر مما سيقتله هذا الهواء الفاسد، بل وبشكل أكثر دماثة. لقد أخبرتك بأن أفكاري مجنونة ـــــ اسأل الجراحين في مشفى وسوف يخبرونك نفس الشيء. وإن استطعت أن تضع هذا الغلام في واحد من مشافيهم اللعينة المختصة بالأمراض المعدية، لمات هذه الليلة. هيا، اتخذ قرارك، هل ستثق بي أم بمقدوري أن أمضي لأشرب حتى النوم؟»

قال نيكولاس: «ما الذي أنت فاعله يا سيدي، إنني أمنحك ثقتي»

كانت طرق الجراح عنيفة وموجعة، لكنها كانت فعالة. سمعته يقول: «لا أعلم ما هو عيب التراب، أنا نفسي أحبه، لكن حسب اعتقادي هنالك شيء ما فيه يرمز إلى الموت. بالنسبة للهواء الطلق ـــــ بسرعة! أعطني غطاء آخر لأضعه حوله ـــــ ماذا؟ ليس لديك غطاء آخر؟ إذاً خذ واحداً من ذلك الشخص الموجود هناك ـــــ هراء! لا تكترث له ـــــ إنه لن يفيق من سكره على نحو كاف ليفتقده إلى أن ندرك اليابسة. ما الذي كنت أقول؟ الهواء الطلق، أنا نفسي أمقته لكنه الحياة، أؤكد لك. الآن فوراً، اصعد به».

لا أحد يرغب في أن يموت في عرض البحر، وخصوصاً على متن مركب صغير حيث ليس بإمكانك أن تغمض عينيك على مرآها. من المحتمل أن ذلك كان السبب في أن السيد غريس قد جعل منها بأكملها طريقته المعتادة الخاصة به. على أية حال، لم يكن هنالك ما يوقفه. لقد أصر على إبقائي في الهواء الطلق، وسرق بيضاً من قن الدجاج وأجبرني على ابتلاعه نيئاً، وسرق ليموناً من القبطان وأجبرني على مص العصارة. ولست أدري فيما إذا كانت معالجته غير الاعتيادية هي التي أنقذتني أم أنها كانت قوة بنيتي الطبيعية، غير أن إلفورد تراجعت تدريجياً وأصبح العالم حقيقياً من جديد، والتأم جرحي على نحو لطيف وتام.

قال السيد غريس في أحد الأيام، بعد أن أمشاني في جولة حول ظهر السفينة بأمرٍ مقيت منه:

«سيكون على ما يرام يا سيدي. يعني، إن كنت تملك ثمن بزّة جديدة من أجله».

سأل نيكولاس: «ماذا تقصد يا سيدي؟»

فسّر السيد غريس قائلاً: «ألا يمكنك أن ترى أن الصبي يكبر، إنهم دائماً يفعلون ذلك. لو أنك ألقيت به من على ظهر السفينة لكان ذلك أرخص لك».

كان ذلك صحيحاً. إذ أن جسدي بدأ أخيراً ينمو طولاً، وكان ذلك تعزية غير قليلة لي، إذ أنني كنت صغير الحجم بالنسبة لسني، وهو أمر غير مألوف في عائلة ذات نسل من الرجال يتميزون بالطول.

أدركنا حقيقة شخصية السيد غريس، في نهاية الرحلة الطويلة جداً، أكثر بقليل مما عرفناه، رغم أن الأمر تبين أنه كذلك. لم يعد يهتم بنا بعد أن شفيت، ومضى يشرب مع أي شخص كان سيتحمل صحبته. أما وكيل الربان، الذي كان قد عرفه على الشاطىء، فقد هز كتفيه غير مبال حين سأله نيكولاس عنه قائلاً:

«لولا سكره وأفكاره المجنونة، لكان بوب غريس شخصاً طيباً إلى حد مقبول. وفي الواقع، إنه لن يستقر مطلقاً في أي مكان ما لم يكن هذا المكان هو القبر، وسوف يصل إلى هناك عاجلاً إلى حد ما إن بقي طويلاً في بورت رويال».

سأل نيكولاس: «ولم؟»

قال وكيل الربان: «إنه أكثر الأماكن خطورة على وجه الأرض، وقد شهدت بعضاً من خطورته وذلك بسبب تعرضهم للزلزال منذ أربع سنوات. لقد دُمرّت البلدة تقريباً وكذلك جميع الأشياء الجميلة، بيد أن ذلك لم يجعل منهم أفضل من ذي قبل. حين يرسل الله لهم زلزالاً في المرة الثانية، فإن من الأفضل أن يضع حداً لحياة الناس هناك وينتهي منهم».

قال نيكولاس: «لا أصدق أن الله يقدّر الأمور على هذا النحو».

قال وكيل الربان: «ربما ليس إلهك، لكن إلهي يفعل ذلك. وإلهك سيفعل ذلك حين ترى العالم أكثر قليلاً مما تراه الآن، وفي هذه الأثناء ثق بالشيطان نفسه قبل أن تثق بغريب في ميناء رويال، وانتبه إلى أن ذلك يتضمن بوب غريس».

وعندما مضى وكيل الربان نحو مؤخرة السفينة، استدرتُ نحو نيكولاس قائلاً: «لو لم تثق بالسيد غريس لكنتُ ميتاً»

قال نيكولاس موافقاً: «أعلم، لكن من المحتمل أن يكون ذاك بوب غريس آخر».

سألت: «ماذا تقصد؟»

قال نيكولاس مفسراً: «إعتقد أن أفكاره قد عادت عليه بالفساد الأخلاقي. ومع ذلك، فإن أفكار الإنسان وقيمه تكشف عن حقيقة شخصيته، هذا هو بوب غريس الذي يمكنك الوثوق به، أما الباقي فهو ما صنع، هو والعالم معاً، بنفسه، وذلك الجزء لا يمكنك أن تثق به مطلقاً. نايجل، إن لم يكن بمقدورك أن تكون صادق الولاء للأمور ذات الأهمية فربما تموت أيضاً»

قلت: «لكن ما هي الأمور ذات الأهمية يا نيكولاس؟»

قال نيكولاس: «هي الأمور التي يجب علينا أن نكون مخلصين لها. أعتقد أنها تلك الأمور الأكثر أهمية منا أنفسنا، الملك وانكلترا والصدق واللياقة والصداقة. أعتقد أنني لو كنت كاثوليكياً صالحاً لتكلمت عن الدين، لكنني لست بالكاثوليكي الصالح بما يكفي لأتكلم عن ذلك. مع ذلك، فإنني آمل بأن أصبح كاثوليكياً صالحاً بما يكفي لأموت من أجل الدين إن كان هناك حاجة لذلك».

تساءلت عما إذا كان نيكولاس يعلم كم من الصعب علي أن أتكلم عن مثل هذه الأشياء. أعتقد أنه كان يعلم، إذ أنه امتنع عن النظر إلي. جلس على لفة من الحبال ناظراً إلى البحر، وكان هنالك شيء ما في شكله وهيئته دلني على أني أستطيع الكلام إن كنت أريد ذلك، وأنه يمكننا، فيما بعد، أن ننسى الحديث بأكمله كما لو أنه لم يكن أبداً إن أردتُ أنا ذلك.

قلت بتمهل: «ليس لدي دين منذ أن غادرت إلفورد. والآن لست أدري حتى إن كنت أريد واحداً، إلا حين أفكر بجدي في إلفورد والأب بنديكت و—— و—— السيدة فوكس. أعلم أنهم جميعاً لديهم شيء ما، وأتمنى لو أنني أعرف ما هو، لكن ليس لدي أي شيء، حتى ما كان لدي في إلفورد لم يكن سوى الشعور بالخوف».

قال نيكولاس: «كنت خائفاً من آسكو، لقد انتهى ذلك الآن».

ألححت قائلاً: «لا، لم ينته. أحياناً يكون الأمر كما لو أنه هنا. لقد كان هنا عندما كنت مريضاً، وفكرت بأنني إن مت فإن علي الهروب منه والمضي إلى إلفورد لأكون آمناً من جديد. لكنني الآن لم أعد آمناً و ــــ نيكولاس ــــ إذا كان يجب علينا أن نعود إلى كريغز غداً، فإنني كنت سأتجسس عليك وأكذب عليك وأخبر اسكو بكل شيء تماماً كما كنت أفعل».

سأل نيكولاس فجأة: «وربما كنت ستنقذني من المد ومن نفسي، أليس كذلك؟» ثم استدار ونظر إلي في وجهي.

قلت: «نعم، إن شاء الله!» رافعاً عيني إلى عينيه رغماً عني. «لكن كنت سأبقى شاعراً بالخوف، وكنت سأخونك. لا بد أنني أشبه بوب غريس على ما أعتقد. لقد فسد شيء ما في داخلي وسوف تلاحقني كريغز إلى أن أموت».

قال نيكولاس بهدوء: «سوف نعود يوماً ما. نعم أؤكد لك، سنعود في يوم ما. لا، لا تنظر بعيداً! أصغ إلي يا نايجل. فيما مضى، حين كنت صبياً صغيراً وقعت عن ظهر جوادي. رفعني والدي وواساني، لكن حين حضرت إلي والدتي وضعتني على ظهر الجواد ثانية وقال: «إن لم نفعل ذلك، فإننا لن نجعل منه فارساً على الإطلاق! والأمر هو نفسه بالنسبة لك يا نايجل، وأنت تدرك ذلك، يوماً ما سوف نعود».

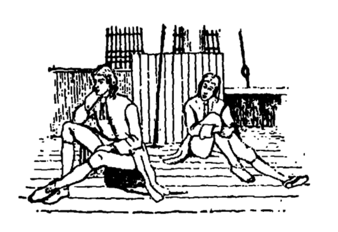
ارتعدت، ثم قلت بعناد: «لقد أخبرتك بما سيحدث إن نحن عدنا»

قال نيكولاس: «إن المستقبل لا يتوقف على ما نريد يا نايجل، وإنما يتوقف على إرادة الله».

لم أرغب في قول المزيد، وكذلك نيكولاس لم يحاول أن يجبرني على ذلك. جلسنا على ظهر السفينة الذي كان يعلو وينخفض على نحو إيقاعي لطيف، وراقبنا الأمواج الدائمة الحركة التي غمرتها أشعة الشمس، وبينما كنا نراقب، بدا لي أنني سمعت جدي العجوز يتلو بصوته الخفيض في الكنيسة في إلفورد: «هم من

ينزلون إلى البحر بالسفن ويقومون بتجارتهم في البحار الواسعة». حاولت تذكر ما قاله بعد ذلك، لكنني لم أتمكن. لقد كان هنالك شيء ما يتعلق بعاصفة، وكان البحارة يترنحون جيئة وذهاباً، أما أنا فقد جلست بالقرب من جدتي في السكون العتيق للكنيسة الصغيرة، وراقبت شعاع الشمس الذي تسلل عبر النافذة الشرقية ليرسم فوق الأرضية أشكالاً متعددة الألوان. كنت أحب أن أتخيلها جميعاً في عقلي، أنا، ذلك الطفل الذي لم يكن قد رأى أبداً، في ذلك الوقت، البحر أو أية صفحة ماء أكبر من بركة البط الكائنة في حديقة القرية في إلفورد.

كان جدي سيتلو: «هل هم سعداء إذاً لأنهم أموات» أما أنا، الذي. كنت لا أدرك ما معنى السعادة في أن يكون المرء ميتاً، فكنت سأرفع ناظري إليه بتعجب. «وهكذا يرفعهم إلى حِماه، حيث سيمكثونَ».



الفصل السابع

خطر في عرض البحر



لقد كانت رحلة طويلة وشاقة. إذ هبّت في البداية ريح معاكسة، ثم مضى أسبوع وراء أسبوع من الضباب وسديم البحر، وكنتيجة لذلك ضللنا سبيلنا وابتعدنا عن بقية القافلة منساقين خارج خط سيرنا عدة أميال.

وحين تقدمنا بصعوبة إلى ميناء رويال في نهاية الأمر، وجدنا بأننا قد تهنا لفترة طويلة.

كان ميناء رويال يشبه كثيراً ما وصفه وكيل الربان، بلدة مخربة بفعل الزلازل والفيضان تعج برجال ونساء من كل عرق ولون تلازمها الرذيلة، الوحشية، المرض، تحجّر قلوب القراصنة والتجار المغامرين.

بيد أنه لم يخبرنا عن جمال الطبيعة في ذلك المكان، عن أنموذج الكمال البري لجمايكا نفسها كجنة عدن أخرى قائمة في البحر الكاريبي. لكنه أخبرنا عن الخطر والانحطاط الخلقي اللذين ألمح إلى أنه يمكن أن نشعر بوجودهما من قبل أن تطأ أقدامنا اليابسة.

كان السيد غريس متشوقاً ليُرينا معالم البلدة، لكن نيكولاس هز رأسه ورفض نهائياً. قال:

«لا مال لدينا لننفقه».

قال السيد غريس: «إذاً سأترككم وأمضي لأولئك الذين يملكون مالاً». وترنح مبتعداً لينال بالتملق شراباً من تاجر غني شاب كان معنا في الرحلة.

لقد كنا محظوظين إلى درجة كافية من أجل أن نجد غرفاً لائقة في منزل لنستأجرها وبفضل توصية أحد بحارة إيكليت.

كانت تلك الغرف قائمة فوق مكان يديره زوجان مسنان اعتنيا بنا على نحو حسن وعاملانا باستقامة.

لقد تساءلنا كيف جاءا إلى هذا المكان الغريب، لكنهما شرحا بأنهما منذ عدة سنوات قاما ببيع كل ما يملكان، وبدأا برحلة للبحث عن ولدهما الوحيد الذي كان قد أُرسل إلى جمايكا كعبد بعد معركة سيدج مور.

فسّر العجوز قائلاً: «لقد فكرنا في دفع فديته. لكننا وصلنا فقط لندفنه، أما الآن فلم يعد يهمنا أن نعيش. ورغم ذلك نحن أحياء. كان الله في عوننا!»

سأل نيكولاس بلطف: «لم لا تعودان للوطن؟»

قالت الزوجة الطيبة والدموع في عينيها: «إن الوطن هو حيث ترقد عظامه. وفوق ذلك، فإن الله غالباً ما يرسل لنا صبياً مسكيناً بعض الشيء يمكن لنا أن نساعده قليلاً لأجل خاطره. لكن عليك ألا تبقى هنا يا سيد كريغ. إن هذا المكان لا يليق بك ولا بالنبيل الصغير».

كان بإمكاننا أن نصدقها إلى حد بعيد، حتى قبل سماعنا لبعض الروايات التي استطاعا هي وزوجها أن يروياها لنا، والتي كانت تدور حول البؤس والآلام التي تسببها تجارة العبيد، والقساوة المروّعة للقراصنة، والتخريب الذي تحدثه الحمى والزلازل والأعاصير.

كنا في أحد الأيام نراقب جماعة من العبيد يكدحون تحت الشمس المحرقة، وفجأة استقام رجل بدا كفزاعة هزيلة وصرخ قائلاً: «أنتما من انكلترا. إنني أعرفكما من صوتيكما! أخبراني، ماذا حدث لأليس بانويل وإيفليس كومب؟»

كنت فقط على وشك القول بأننا لم نسمع أبداً لا بأليس با نويل ولا بإيفليس كومب عندما قال نيكولاس سريعاً: إنها على خير ما يرام يا صديقي».

صرخت الفزاعة: «أخبرها بأنني لا زلت مخلصاً لها» في الوقت الذي صفر سوط المشرف في الهواء ليجلد كتفيه المسمرّتين. «أنا ويل هوكين، أخبراها بأنني لا زلت مخلصاً لها!».

صرخ المشرف: «ارجع للوراء أيها السيد، أو لن يكون ذلك من مصلحته» وقد كان بمقدورنا أن نبصر أن الأمر كذلك، وأنه لم يكن هنالك رحمة في العالم لتشفق على ويل هوكين، ولن يكون هنالك من رحمة إلى أن يتنازل القبر عن ميته.

التجأنا في نفس ذلك اليوم، وكنا عليلي القلب، إلى خان بدا أقل قذارة واحتشاداً باللصوص من البقية، وفي ذلك المكان، رأينا عينيّ سولومون كريسون السوداوين تضحكان منا من فوق حافة نظارته إلى حد أننا نسينا تحذير وكيل الربان لنا من الوثوق بالغرباء في بورت رويال. وثقنا به حتى من قبل أن يتكلم إلينا. لم يكن بمقدور أحد أن يتمالك نفسه عن الوثوق به. لقد كان شاباً أسمر البشرة، طويل الأوصال، بشعر مجعد متموج وفم وصوت عريضين، أسنان بيضاء، تلفّه مسحة من الوقار تدل على الحكمة التي كانت سمة جذابة فيه.

وكان في حديثه لكنةٌ من لهجة أجنبية. قال بينما أزال نظارته ووضعها جانباً: «أنتما غريبان هنا».

سأل نيكولاس: «كيف عرفت؟»

قال سولومون: «يمكنك دائماً أن تميز الغريب في بورت رويال، ولذلك هم يسرقون. أقام أحدهم بسرقتك حتى الآن؟»

ضحك نيكولاس قائلاً: «كلا، أترغب في أن تجرب؟»

قال سولومون: «تبدو وكأنك ستستعمل سيفك أو قبضتيك على نحو بارع، ولهذا فإنني لن أجرب ذلك. وبرغم ذلك يا سيدي، كن حذراً. هل أنت ماكث هنا لوقت طويل؟»

قال نيكولاس: «ليس أطول مما سيستغرقه منا الحصول على إذن بالسفر على متن سفينة إلى البر الرئيسي»

سأل سولومون: أي جزء من البر الرئيسي يا سيدي؟» وعيناه السوداوان تلمعان بنزوع إلى الأذى. «هناك الكثير من الأبرار الرئيسية، نوعاً ما».

قال نيكولاس: «لدي رغبة في الاستكشاف. لدي رصيد دائن في فيلادلفيا، لكنني لست متأكداً إن كنت سأبقى هناك لفترة طويلة. إنني عاقد النية على السفر».

قال سولومون مخمّناً: «إنك لا تبدو مسافراً ينفق الوقت بالتراخي والكسل، كما أنك لا تبدو تاجراً. كان عليّ، في الحقيقة، أن أصنفك في فئة الجواسيس أو البوليس السري الحكومي إلى حد ما، ألم تكن مرتدياً شعرك الأصلي».

كان نيكولاس قد خلع جمّته الأنيقة في مستهل رحلتنا، وخلال تلك الشهور نما شعره ذو اللون البني الفاتح على نحو كثيف ومتموج، وقد جعلته الحرارة في بورت رويال يتمهل في ارتداء جمته من جديد، علاوة على ذلك، فقد كان متأكداً في ذلك الوقت من أن ارتداءها ثانية سيجعل منه في نهاية الأمر أكثر وضوحاً وسيلفت الانتباه إليه، الأمر الذي كان يسعى إلى تجنبه.

تابع سولومون قائلاً: «أعترف بأنك قد أثرت فضولي، لكن عملك هو من شأنك وحدك. ورغم ذلك، أتمنى لو أخدمك».

قال نيكولاس: «إن استطعت أن تقدمنا إلى ربان بحري مستقيم يكون أقل فضولاً منك بقليل، فإن ذلك سيكون خدمة عظيمة».

سأل سولومون فجأة: «ما هو التقديم الذي لديك في فيلادلفيا؟»

أجاب نيكولاس: «من جانب السيد ناثان فراير من بريستول إلى السيد إلياس ويث مان، تاجر».

علق سولومون: «إن كليهما صاحبيان. إذاً ربما يكون بوسعي أن أخدم مطلبك، إذ أنني أنا نفسي مبحر على متن الريفور ميشن تحت قيادة القبطان كيرل، كما أنها مستأجرة من قبل السيد جوناثان ديكنسون، صاحبي! من الأرجح أن اسم السيد فراير سيضمن لك حقاً بالسفر على متنها».

سأل نيكولاس: «ولم لا يكون اسمك هو الكفيل؟»

«إن اسمي لا يساوي الشيء الكثير في الوقت الحالي، رغم أنه بإمكانك استعماله على الرحب والسعة ـــــ سولومون كريسون في خدمتك. إنني مبحر كنوتي عادي».

«أنت ماذا؟»

«أشق طريقي للوطن. لقد هاجمنا القراصنة في طريق العودة، وما أملكه هو أكثر بقليل من الثياب التي أقف بها».

تدلّت يد نيكولاس إلى محفظة نقوده. قال سولومون بسرعة: «لا يا سيدي، لدي ما يكفيني لضرورياتي الحالية. إنني أقيم مع صانع كراسي، وبما أنني حرفي إلى حد ما بالإضافة إلى كوني تاجراً، فإنني أستطيع أن أعيل نفسي بشكل كاف تماماً. علاوة على ذلك، فإننا من المقرر لنا أن نبحر. لكن إن استطعت أن أخدمك مع الربان فسأفعل وبكل سرور».

كان سولومون كريسون صادقاً كوعده، وبفضل مساعدته واسم السيد فراير، تم اتخاذ الترتيبات الضرورية لرحلتنا بالبحر دون صعوبة تذكر.

كانت الريفور ميشن (برك). لم يكن قد سبق أبداً أن سمعت المصطلح، وكان شكل وعدد وترتيب الأشرعة والصواري فيها جديداً بالنسبة إلي. كانت الأشرعة في صاريها الأمامي مربعة الشكل، أما في الصاريين الرئيسي والمزِّيني[1] فقد كانت طولانية، وبدت مركباً مهيئاً على نحو ملائم لا يسع المرء إلا أن يتمنى الإبحارعلى متنه. وكانت تحمل، بالإضافة إلى ربانها ووكيل ربانها، طاقماً يتألف من سبعة بحارة، خمسة رجال وصبي وبن، زنجي الربان.

كان هنالك خمسة عشر راكباً، السيد والسيدة ديكنسون وطفلها الرضيع، السيد آلن ابن عم السيد ديكنسون، وصاحبي مسن يدعى روبرت بارو، وعشرة زنوج ـــ أربعة رجال وخمس نساء وصبي صغير.

لقد كانوا جميعاً ودودين معنا، لكن في بداية الأمر كان السيد بارو هو أكثر من أثار اهتمامي، ربما لأنني لم يسبق لي أن قابلت رجلاً مثله على الإطلاق. كان رجلاً صغير الحجم، رمادي الشعر بكتفين محنيتين وعينين شديدتي الزرقة، وقد كان مريضاً حتى الموت تقريباً في جمايكا كما هو حال العديد من الرجال البيض.

ذات يوم شاهدته يمشي باضطراب على ظهر السفينة فوثبت لأساعده. وضع يده المرتعشة على كتفي وثبّت نفسه.

قال: «شكراً لك يا بني. أخشى أنني لا زلت ضعيفاً جداً».

قلت: «لو تدعني أساعدك يا سيدي. سيكون بوسعك الذهاب نحو مؤخر السفينة إلى بقعة الظل تلك. إن الشمس هنا حارة جداً عليك».

تنهد قائلاً: «لم أفكر مطلقاً بأنني سأعيش إلى السن التي أخاف فيها من الشمس». بينما كنت أساعده بحذر على طول ظهر السفينة. ليس بإمكاننا الحصول على مايكفينا منها أبداً في الوطن. ورغم ذلك، فإنني كنت مستعداً أن أهِبَ بكل رضى كل ما شاهدته في جامايكا مقابل نظرة واحدة إلى تلال ويست مورلاند».

(١) الصاري الأقرب إلى مؤخر المركب.

وافقته قائلاً بحماس: «كذلك أنا يا سيدي».

هتف الرجل العجوز بلهفة: «من المؤكد أنك لست من ويست مورلاند، أليس كذلك؟»

قلت: «لا يا سيدي، أنا من الخليج». لم أرد أن أكون أكثر وضوحاً.

قال: «وأنا من كندل. رغم أنني ولدت في لانك شاير، لكنني أعرف الخليج جيداً، إذ أن زوجتي كانت من بيس براون في آرن سايد. وأنت أيمكن أن تكون من آرن سايد؟»

هززت رأسي وقلت بإحجام: «إنني أتحدر من العائلة التي تدعى عائلة كريغز، ليست بالبعيدة عن سيلفر ديل».

تغضن جبين الرجل العجوز قليلاً، وتضيقت عيناه الزرقاوان. علق: «لقد سمعت أشياء سيئة عن كريغز».

قلت وقد عضضت شفتي: «كانت صحيحة».

قال السيد بارو بلطف: «لا داعي لأن تخبرني بالمزيد، ما عدا شيئاً واحداً ــ هل تقوم بهذه الرحلة بإرادتك الخاصة الحرة؟»

قلت له مؤكداً: «أجل ياسيدي. لو لم تكن من أجل ابن عمي لما عشت لأقوم بها».

سأل: «أتنوي الاستقرار في أميريكا؟»

أجبت بتردد: «لا أدري». كنت محترساً من إخباره الكثير، لكنه لم يبدُ ميّالاً لأن يسألني لأبعد من ذلك. فيما بعد، بينما جلسنا لنراقب سلسلة من جزر جميلة تنسل مارة بنا، استدار إلي وقال:

«إن الوطن يجذبك إليه، أليس كذلك؟ إنني أشعر بالحنين إلى ويست مورلاند طوال هذه الأشهر العديدة، والآن أشك إن كنت سأراها ثانية على الإطلاق، ولاأستطيع حتى أن أحكم إن كانت رحلتي جديرة بالعناء» بدا الرجل العجوز مريضاً وحزيناً للغاية لدرجة أنني شعرت بالأسف من أجله.

سألت: «لم غادرت ويست مورلاند يا سيدي؟؟»

أجاب السيد بارو: «لم يكن بمقدوري أن أعقد الصلح مع الله ما لم اغادرها من نواح أخرى، فإنه كان من الأفضل لو مت»

هتفت: «ورغم ذلك لا تعلم إن كانت رحلتك تستحق منك العناء»

كرر، لاوياً أصابعه النحيلة معاً: «ليس بمقدوري أن أقرر. ليس لي أن أسأل. كل ما أعرفه هو أن الله قد هداني».

فكرت في هؤلاء الناس الأتقياء، والأشياء التي ليس بإمكانهم أن يسألوا عنها. وبدا لي أن الدين مهما كان نوعه، كاثوليكياً أم أنجليكانياً [1] أم صاحبياً، لابد أن يكون اعتناقه أمراً غير مريح ما لم تعتنقه باعتدال، وفي حالة كهذه، لم يزعج المرء نفسه أصلاً بأن يعتنق واحداً؟ كنت أفترض أنه لا بد أن يكون في الأمر شيء ما جعله يستحق من المرء العناء، لكن السيد بارو العجوز كان بالتأكيد يعاني صراعاً عنيفاً في عقله من أجل ذلك الشيء الخاص به. لم يكن السيد بارو الشخص الوحيد المريض من بين مجموعة الأشخاص الذين رافقونا، إذ أنه فور إبحارنا تقريباً، سقط السيد آلن مريضاً وكان قلّما نراه على ظهر السفينة. وقد قام السيد ديكنسون، الذي بدا على معرفة بالطب غير كبيرة، بالاعتناء به بكثير من الصبر في الوقت الذي كان يطمئننا فيه بأن سوء مزاجه غير معد. وفي الفترات التي تخللت نوبات الحمى الشديدة التي أصابته، وفي الوقت الذي كان يهذي باهتياج وانفعال شديدين، كان يعاني من هبوط شديد في معنوياته، الأمر الذي جعل يؤكد لنفسه بكل ما في الكلمة من معنى بأنه مشرف على الموت، وأنه لن يطأ اليابسة بقدمه ثانية أبداً. وربما مرت بنا بعض الهواجس. واعتبرنا ذلك فألاً سيئاً لرحلتنا، غير أنه في نفس الوقت لم يؤثر بنا إلا على نحو قليل.

في الحقيقة، مرت الأسابيع الثلاثة أو الأربعة الأولى على نحو مرض إلى حد كاف، ما عدا فترة طويلة من سكون الريح أبقتنا نتسكع خارج بلوفيلدس حيث قصدنا الماء. كان الجو معتدلاً، وعدا الذعر الذي كان ينتابنا أحياناً حين كان يُشاع خبر حضور الأسطول البحري الفرنسي، فإنه لم يحدث شيء يعكر هدوءنا.

---

(١) خاص بالكنيسة الانكليزية.

كـان لدي فـضـول لأرى أي نوع من زمـلاء المـلاحـين سيكون عليـه الصاحبيون، لكنهم بدوا مسالمين إلى درجة كافية فيما عدا عادتهم في إقامة اجتماعات مطولّة حتى السأم. كانوا يجتمعون من أجل العبادة كل صباح مرتين أو ثلاثاً في أيام الآحاد، ومع ذلك فقد كانت عبادة من نوع هادىء ولا تعتبر مزعجة لأحد. كان الزنوج يتعبدون معهم، وأحياناً كان ينضم إليهم إثنان أو ثلاثة من البحارة. كان سولومون كريسون عادة هناك، لقد كان هوغونوتياً[1]، وكان ذلك النوع من الأشياء يروق له. لم ألق بالاً كثيراً لذلك، إلا حين كان السيد بارو يقرأ بصوت عالٍ من الكتاب المقدس الكبير الحجم الذي كان يحب أن يحمله معه حيثما ذهب. آنذاك، كنت أحب أن أستلقي على ظهر السفينة في الظل وأنصت لأن ذلك كان يذكرني بجدي في إلفورد. أما فيما يتعلق بالجلوس في صمت لساعة أو أكثر، فأعتقد أنه كان لدي شيء أفضل لأقوم به.

سألت نيكولاس ذات يوم مشيراً إلى المجموعة الدينية الصغيرة التي كان يجلس أفرادها حاني الرؤوس:

«أتعتقد أن ذلك النوع من الأشياء هو السبب الذي جعلهم يضعون السيدة فيل في السجن؟»

أجـاب نيكولاس: «أتصـور ذلك، تلك هي الطريقـة التي يتـعـبـد بهـا الصاحبيون. لقد كانت غير قانونية، تماماً كما كانت طريقتنا في العبادة غير قانونية وقد تم اضطهادهم بسببها تماماً كما تم اضطهادنا إلى أن حاول جلالته أن يجعل جميع الناس أحراراً في أن يتعبدوا بالطريقة التي يؤمنون بأنها الطريقة الصحيحة».

قلت: «حسناً، لست مقتنعاً تماماً أن الأمر كان كذلك. إذ لو كان ذلك هو كل ما كانت تفعله السيدة فيل، لست أدري لِمَ لم يتركوها وشأنها».

قال نيكولاس: «وذلك هو سبب شدة خطورة الصاحبية، إن أردت للجميع أن يعملوا وفق دين واحد. إنه دين بسيط جداً، ليس بوسعك قمعه. إنهم يستطيعون العبادة على متن السفينة أو في الشارع أو في الحقول أو في السجن أو

(١) بروتستاني فرنسي. طائفة بروتستانية فرنسية.

على المشنقة، فلا فرق لديهم. فإن أردت الامتثال لأعراف الكنيسة الانكليزية، فعليك أن ترمي في السجن أناساً مثل السيدة فيل، لكن مقابل كل شخص تسجنه سيبرز مرة أخرى العديد ليربكوك.

لقد أدرك جلالة الملك تشارلز الثاني الراحل بأنها كانت لعبة خاسرة ــــ لقد كان أكثر حكمة من وزرائه، وكذلك جلالته يدرك ذلك، وحتى داتش ويليام كان يملك وعياً جعله يُسلّم بسياسة التسامح الديني، وإلا لما كان لعرشه أن يكون جديراً بالاحترام والإجلال».

نظرت إلى المجموعة الصغيرة الجالسة بصمت في الظل وفكرت أنه لم يكن هنالك، بالتأكيد، شيء يمكن أن يزعزع عرشاً.

كنا إجمالاً رفاقاً سعداء في رحلة بحرية بشكل فريد. كان السيد والسيدة ديكنسون ودودين مع جميع من هم على متن السفينة انطلاقاً من الربان حتى غلام القمرة، وقد خلق ذلك جواً عائلياً كان استثنائياً تماماً، وقد بقي كذلك كما تبين لي خلال تجربتي. كما أن رباننا السيد كيرل كان رباناً رائعاً إلى حد بعيد. فنادراً ما كنت أراه يضرب أي عضو من أفراد طاقمه، أما القبطان ستيري ربان الإيكليت، فقد بدا أنه يهاجم الناس أو يوّجه الأوامر ضارباً بسوطه طوال النهار. لقد كان ذلك بالطبع هو الأمر الاعتيادي، أما جاك هيلارد صبي الربان، فإن كان هنالك عفريت مؤذ على الإطلاق فإنه هو. وكان لديه عدد من الندوب أكثر مما يمكنه أن يحصي.

أكد لنا قائلاً: «لكن هذه الندوب ليست من صنع السيد كيرل. إن السيد كيرل صارم، في الحقيقة إنه أكثر صرامة من معظم الناس، لكنه من النادر أن يقاتل بضراوة. إنها لسفينة قوية، ورغم ذلك، فإنني سأولي الأدبار في يوم ما حين تأتيني الفرصة».

سألت: «لِمَ؟»

قال: «لقد مللت البحر. فإما أن تعيش تحت إمرة قبطان ينتقدك بقسوة، أو أنك تختطف من قبل القراصنة ــــ وبالنسبة لما يفعلونه بك ــــ حسناً ــــ أعتقد أن الجلد بالسياط هو أمر لطيف مقارنة به. أو يطرحك البحر مع حطام السفينة إلى شاطىء إحدى هذه الجزر التي نبذها الله أو إلى شاطىء فلوريدا، وعندئذ أتعلم ما يحدث بعد ذلك؟ يأتي الهمجيون ويأكلونك»

قلت: « لا أصدقك»

قال جاك: «أقسم لك على ذلك، إنه لأمر صحيح! يأكلون كل مجموعتنا، إنهم سيفعلون، الأطفال والجميع».

نظرت نحو الجانب الآخر من ظهر السفينة حيث كانت السيدة ديكنسون تلاعب طفلها. لقد كان عمره حوالي الستة شهور، وكان ممتلىء الجسم على نحو جميل وأسمر البشرة. ورغم أنني لم أكن بشكل عام أهتم بالرضّع، إلا أنه كان يضحك ضحكة خافتة بطريقة حلوة إن داعبته بلكزة حين تمر. أما الطفل الآخر على متن السفينة فقد كان كاجو الزنجي الصغير، وقد كان كبيراً كفاية ليدرج هنا وهناك على ظهر السفينة، وكانت والدته هاجر تعيش في حالة من الذعر الدائم خشية أن يسقط من على متن السفينة. ولكن ما كان ذلك ليحدث لأن البحارة ولم يكونوا ليدعوه يصاب بأي أذى على الإطلاق لأنهم كانوا جميعاً يدللونه.

قلت مرتعداً قليلاً: «لا زلت لا أصدقك».

قال جاك: «حسناً كما تريد» وأدار دواليب عربة نقل فوق ظهر السفينة إلى أن قام وكيل الربان ريتشارد دليم بيني بلكم أذنيه وأرسله إلى عمله. بدا من السخف أن يتحدث المرء عن كارثة في جوكهذا. على الرغم من ذلك، فقد أدركتنا الكارثة في اليوم السابع والعشرين من رحلتنا تقريباً حين أوقفنا المركب لقلة الريح على بعد حوالي أربعة فراسخ من هافانا، في جوحار للغاية وبلا نسمة ريح على الإطلاق. نظراً لأننا قد نجونا بأعجوبة من تحطم سفينتنا في إعصار اندفع على نحو خطير عبر البحر ناشراً الموت والدمار في أعقابه، ولم تنقذسفينتنا إلا حكمة الربان كيرل بينما كانت السفينة تكافح بقايا العاصفة من أجل النجاة إذ فور إبصاره للغيمة المهلكة الشبيهة بالقمع تقترب قادمة من اليابسة، أصدر أوامره من سطح مؤخر المركب، وانضممنا أنا ونيكولاس إلى البحارة في السباق اللاهث مع الزمن. أخذ ديك ليم بيني ثلاثة من الرجال للأمام لثني أشرعة الصاري الأمامي بينما كان سولومون كريسون يُنزِل مرساة عائمة، وقام بقيتنا بإنزال الشراع الرئيسي، وأيقظ القبطان كيرل الزنوج الأربعة من نومهم وأرسلهم لتثبيت كل شيء على ظهر السفينة بالحبال.

كنا جميعاً نلهث وتتساقط منا قطرات العرق في الحر الخانق، غير أن أحداً لم يجرؤ على التوقف للحظة وتلك الزوبعة السوداء تتقدم باتجاهنا على نحو عنيد عبر المحيط. اندفعنا بسرعة لنجعل كل شيء على خير ما يرام عند الصاري المزيني مدركين أن العاصفة المقتربة قد وجهت إلينا مسبقاً نصف الضربة. سحبنا الكرّات [١] بعنف في عجلة مسعورة لننزل شراع المؤخرة جزئياً حين اعترض سبيلنا انسداد. تسلق سولومون كريسون حبال الصاري، لكن قبل أن يتمكن من الوصول إلى ذلك الانسداد، أطاحت هبة ريح مفاجئة بذراع التطويل [٢] على نحو عنيف فوق سطح مؤخرة المركب. كان هنالك صوت اصطدام متبوعاً بصرخة مسعورة من قبل زنجي الربان:

«لقد قُتلت ماسا! فلينقذنا الله جميعاً!»

جاء صوت ديك ليم بيني قائلاً: «تماسكوا يا رجال تماسكوا!» إذ تولى إصدار الأوامر. آنذاك حلّ سولومون كريسون الانسداد، واندفعنا للمرة الأخيرة على نحو مجنون لنحكم قبضتنا على الشراع بقدر ما استطعنا.

وفجأة بدا وكأن الجحيم برمته قد حلّ بنا، اجتمع البحر والسماء في شيء مرعب هائل. أصمّنا الرعد والعاصفة، وخطف البرق أبصارنا، تمايل البرك بشدة في غور موجة هائلة، وللحظة شعرت فيها باليأس، اعتقدت بأن الموجة التالية سوف تغمره، بعدئذ انهمر المطر بغزارة وهزم الرعد ثانية وقصف من حولنا.

شققنا أنا ونيكولاس طريقنا إلى سطح مؤخر المركب، وأعنّا بن في حمل الربان إلى قمرته التي كانت قد غمرت تماماً بماء البحر كما كان حال كل شيء آخر على ظهر السفينة.

مددناه فوق سريره المبيّت المشرّب بالماء، وبحث بن بلا جدوى عن حرام جاف ليلفه حوله والدموع تسيل أسفل وجهه الأسود. كان يتألم بشدة، لكنه رفض أن يدع أحداً منا يبقى معه حين كان هنالك حاجة لكل رجل وصبي قوي البنية على ظهر السفينة أو عند المضخات. فيما بعد، حين تراجع الخطر، حضر السيد ديكنسون إليه وجبر ساقه المكسورة.

---

(١) جمع كرّ: حبل لرفع راية أو شراع وخفضهما.

(٢) عمود يستخدم لإطالة قاعدة الشراع.

تابع القبطان تولي قيادة السفينة ، عارجاً على العكازات، غير أنه بدا شاحباً وغائر العينين. وحين استرجعت في مخيلتي أحداث رحلتنا ذات القدر السيء، لم أتمالك نفسي من الشعور بأن بلية ربائنا لم يكن لها أية صلة بما حدث بعد ذلك.

برز إعصاراخر في فترة ما بعد ظهر اليوم التالي، لكن هذه المرة كنا بعيدين تماماً عن مساره. رغم ذلك، استمر الجو منذراً بالسوء.

قال سولومون كريسون: «لا يعجبني ذلك». بينما كان الموج يتقاذفنا على نحو مضطرب فوق البحر الهائج.

«كنت سأشعر بسعادة أكبر لو أن القبطان سيبحر نحو هافانا».

سأل نيكولاس: «ولم لا يفعل ذلك؟»

قال سولومون: «بسبب اتجاه الريح. إنها ريح مواتية للإبحار نحو فلوريدا. لن يكون هناك أي داعٍ للقلق إن لم يقلقنا إحساسنا بما ستصبح عليه الحال».

سألته: «سولومون، هل صحيح بأن هنالك آكلو لحوم بشر في فلوريدا؟»

ضحك سولومون وقال: «أجل، هكذا يقولون. إذاً لنأمل بأن يقودنا الربان بعيداً عن أواني الطهي.

لكن لا، سيكون فوقك العديد من الغنائم يا نايجل! أتصور أن السيد ديكنسون سيكون أشهى. لكن ماذا عن حبك للاستكشاف يا نيكولاس؟ أليس من الأفضل لنا أن تنزلا كلاكما إلى اليابسة كي يكون بإمكانكما أن تمضيا لتتحققا من الأمر؟»

قال نيكولاس باقتضاب جاف: «كلا، شكراً». وبينما هو ينظر في عيني سولومون السوداوين والمشتعلتين بنزوع للإزعاج، قال مداعباً بلطف: «إن فضولك سوف يتغلب علي يوماً ما يا سولومون!»

قال سولومون: «أما أنا فقد أشبعت كبريائي بكبحي له. لكن ليس الأمر كذلك ما دمت لم أعرف عنكما أكثر مما رغبتما في قوله. أنتما لستما بتاجرين

ولستما بمستوطنين، لستما مبشرين ولستما مستكشفين لأنكما لا تملكان أبسط عدة للعمل. حسن جداً، أنتما في مهمة سرية. من الممكن أن تكونا جاسوسين، لكن لستما جاسوسين أجنبيين، أنا نفسي فرنسي ولهذا أميز الرجل الفرنسي حين أراه. يمكن أن تكونا نوعاً واحداً فقط من الجواسيس، أليس كذلك؟ أقسم أنكما جاسوسان ستيوارتيان، لكن لا داعي لإخباري إن كنت غير مخطىء. من الممكن أنكما تتجسسان لصالح فرنسا، لكنني أشك في ذلك».

أكد له نيكولاس قائلاً: «يمكنك الاستمرار في شكك. بما أنه قد تم قول كل شيء وانتهى الأمر، فنحن إذاً رجال انكليز أولياء سواء كنا نخدم الملك جيمس أم الملك ويليام. وأياً كان الذي نخدمه منهما فلا حاجة بك لأن تدعونا بالجواسيس، إذ أنه لا خيانة في زيارة مقاطعات جلالته الواقعة ما وراء البحار».

علق سولومون: «قطعاً لا. إن ذلك يعتمد على ما تعني من مقاطعات. أنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأنها يجب أن تنتمي إلى الرجال الذين ينشؤونها».

قال نيكولاس مؤكداً: «إن في كلامك خيانة».

ضحك سولومون وقال: «خيانة من؟ لا يمكنني أن أكون خائناً لملك فرنسا لأنه من الواضح بأنه لا يرغب بولائي بما أنه قد طرد جدي من البلاد، بيير كريسون، لأنه كان هو غونوتياً، فإن كنت أدين بالولاء لأي شخص فإنه لداتش ويليام خاصتكم لأن بلده كانت من استقبلتنا ووالده، ويليام أورانج، كان هو من وظف جدي كحدائقي قبل أن يهاجر. وهكذا، إن كان علي أن أعترف بملك انكليزي فإنني سأخلص لويليام، ويمكن لجيمس ستيوارت خاصتكم أن يضع عقبي قدميه في ماء بارد بانتظار لويس ليستعيد له عرشه. لكن لاتدع ذلك يقلقك أيها الشجاع، لأنني على أية حال لست مهتماً كثيراً بأي من الفريقين. إن كان هنالك شيء ما يدعى بالأمريكي الحر فإنني سأكون ذلك الشيء».

ضحك نيكولاس وقال: «ما دمت لست بآكل لحم بشر يا سولومون، فإنني لا أمانع»

نظرت عبر البحر الهائج باتجاه الخط الرفيع الداكن الواقع على مبعدة منا الذي كان شاطىء فلوريدا وارتعدت. لم أرغب في أن أُذكّر بما حدث لهؤلاء الذين كان حظهم من السوء بحيث قذف بهم الموج على ذلك الشاطىء الماحل.

خلال الأيام القليلة التالية، تغيرت الريح نحو الشمال الشرقي وساءت الأحوال على نحو مطرّد. أصدر القبطان أوامره بصوت أجش عال بينما كان يقاوم الألم في ساقه المكسورة، وتمايلت السفينة كشخص مجنون وتقاذفها الموج إلى أقصى مدى في الوقت الذي كان البحارة يكافحون بين أسنان العاصفة ليبقوها تحت السيطرة. أنزلنا مرساة عائمة، وطوينا كل أشرعتها. تم تثبيت كل ما هو قابل للحركة على ظهر السفينة بالحبال بإحكام، ولكن حينما كانت الأمواج الكبيرة تتكسر فوق السفينة، كان ينقطع حبل ثم آخر وكان علينا أن نقوم بالعمل مرة ثانية.

كان الركاب، في الأسفل، في بؤس مقنط محتشدين في القمرة المنقوعة في الماء، مبللين حتى الجلد، وقد أضعفهم الغثيان. حافظ السيد ديكنسون وحده على توازنه وحاول العناية بمن يتألمون. كان بين يديه مريضان، السيد بارو والذي لم يتذمر مطلقاً لكنه ازداد ضعفاً باطراد، والسيد آلن الشاب الذي جعلته الحمى يهذي، وهكذا أخذ يبكي على نحو يرثى له، وتوسل أن يُؤخذ إلى الشاطىء. لقد كان مشهداً بائساً، لكنني، والحمد لله، لم يكن بي من ضرورة للمكوث في ذلك المكان، إذ كانت هناك حاجة لكل رجل وصبي قوي البنية على ظهر السفينة أو عند المضخات.

كانت الليلة الأخيرة التي قضيناها على متن الريفور ميشن مرعبة تماماً. إلى هذا اليوم، ليس بإمكاني سوى أن أسمع صوت عاصفة قوية تهب وأنا عائد على متن السفينة المائل على نحو خطير متشبثاً بالحياة العزيزة، ومحاولاً أن أبقي رأسي فوق الماء بينما اندفعت الأمواج بقوة من فوقي.

لقد أصمّني الضجيج، وأعماني الظلام، وفي وضع يائس لا يجدي معه القلق حول نهاية كل ذلك، أصبح لعبارة «هل هم إذاً سعداء لأنهم أموات» معنى جديد بالنسبة لي بعد ذلك. وفي الوقت الذي كان الظلام يهبط فيه، سمعنا صوتاً

منذراً بسوء قادماً من الصاري الأمامي حيث ثنيت الأشرعة بإحكام في مستهل العاصفة.

صاح ديك ليم بيني: «كان الله في عوننا، إنها تتحطم!». وحتى عندما صرخ محذراً، رأينا الشراع الثاني على الصاري الأمامي ينحل وينتفخ على نحو هائج في الريح القوية. كان هنالك اصطدام وتقطّع حبال مفاجىء أحدث صوتاً حاداً حين انهار الجزء الأعلى من الصاري الأمامي. كان متن السفينة مشهداً من الفوضى العارمة بوجود القبطان كيرل وديك ليم بيني يصرخان لنا لنقطع حبال الصاري، والبحارة يسترسلون في السّباب بينما كانوا يقطعون بيأس كتلة الحبال المتشابكة بضربات متوالية إرباً إرباً. كانت أمواج البحر الكبيرة الهائجة تتكسر من فوقنا طوال الوقت، وهكذا كان علينا التوقف والتشبث من أجل حياتنا. أدركنا في تلك اللحظة أن الريفورميشن هالكة لا محالة.

لا بد أن الوقت كان حوالي الواحدة صباحاً حين سمعنا ضجة مقززة للنفس خافتة تحت السفينة، وارتجف البرك المشؤوم من مقدّم السفينة إلى مؤخرها كما لو كانت نهايتها قريبة. بعدئذ، ولدقائق قليلة، طفت على نحو انسيابي واستأنفنا جهودنا لإنقاذها. حاولنا طرح بعض الحمولة، لكن ذلك كان بلا جدوى، إذ أن العاصفة قذفتها سريعاً للوراء على الصخور من جديد، وهذه المرة جنحت بسرعة وأمواج البحر الكبيرة تتكسر فوقها. كان بوسعنا سماع صرخات الركاب سيّئي الحظ القابعين في القمرة العائمة، لكننا في البداية لم نستطع الوصول إليهم. عندئذ جاء صوت السيد ديكنسون الهادىء معيداً النظام، وبعد برهة تقدم بصعوبة فوق ظهر السفينة.

قال لاهثاً: «لدي شمعة مشتعلة. سوف تفي بالغرض. هل نحن قريبون من الشاطىء؟»

صرخ ديك ليم بيني في الريح الهوجاء العاصفة: «ذلك ما لا يمكنني إخبارك به يا سيدي. ليس بوسعنا سوى الانتظار».

سأل السيد ديكنسون بقلق: «هل ستتماسك أجزاؤها حتى الفجر؟»

صاح ديك ليم بيني: «الله أعلم! لكن ليس هناك شيء اخر لنفعله، اسأل السيد كيرل ولسوف يخبرك الشيء نفسه».

جرّ السيد كيرل نفسه نحونا في الظلام، كان نفسه يصفر عبر أسنانه المطبقة بإحكام. قال متأوهاً:

«ليس بوسعنا فعل أي شيء اخر يا سيدي. من الأفضل لك أن تذهب للأسفل»

قال السيد ديكنسون بصوت هادىء حين مضى: «سوف تخبرنا إن كانت النهاية قريبة».

أقسم السيد كيرل بهدوء لنفسه ولم يُجب. لقد كانت تلك هي النهاية على أية حال، أو أننا اعتقدنا ذلك.

كانت الخيارات الوحيدة هي الغرق، أو الموت جوعاً على شاطىء مهجور، أو أن نؤكل نحن أنفسنا على شاطىء مأهول. كان من رأينا أنا ونيكولاس، إجمالاً، أن الغرق سيكون أفضلها، ولكننا كنا، دون مبرر منطقي لا نزال نرفض أن ندع الأمواج الهائلة تجرفنا بعيداً إلى النسيان.

بدا وقتاً طويلاً قبل أن يبزغ الفجر. هتف ديك ليم بيني: «إنها اليابسة» جاذباً أنظارنا نحو الظلام. لم يكن بإمكاننا سوى أن نميز الحد السفلي للشاطىء، وفي نفس الوقت ترنح السيد ديكنسون صاعداً ظهر السفينة ليخبرنا بأن الماء يتراجع من القمرة. تدلينا من فوق حافة السفينة وانتظرنا، وشيئاً فشيئاً بدأنا نميز الخطوط الكفافية للشاطىء الماحل. وبقدر ما استطعنا التمييز، بدا أن المكان غير مأهول. فجأة، بدأت تشرق آمالنا.

كان القبطان مرهقاً ومجهداً من شدة الألم، لكن السيد ديكنسون بادر سريعاً إلى إبداء استعداده لأن يذهب إلى الشاطىء للتقصي، وفي نفس الوقت اقترح بأنه علينا البدء بجمع الصواري والأشرعة لنصنع نوعاً من المأوى للمرضى والمصابين ومعشر النساء، وذلك فور تمكننا من أخذهم إلى اليابسة، وبينما أخذ الضوء يزداد

وضوحاً بدت سفينتنا بحالة مؤسفة والأمواج الكبيرة تتكسر فوقها، رغم أنها كانت أقل عنفاً من السابق. كانت أضلاعها مكسورة، وحبال الأشرعة والصواري قد جرفتها العاصفة وأبلتها لدرجة أنه ليس باستطاعة المرء إلى حد ما، أن يتعرف عليها. لقد واجهت نزاعاً مميتاً، وكانت في ذلك الوقت تموت ببطء على شاطىء لا يرحم.

لقد كان مشهداً مأساوياً، ورغم ذلك لم أستطع تمالك نفسي من الضحك حين رأيت الخنازير والخرفان التي حملناها تفرّ وتسبح نحو الشاطىء، ولم يبق سوى خنزير واحد فقط على ظهر السفينة.

صرخت قائلاً: «لقد ذهب عشاؤنا إلى هناك يا نيكولاس! سيكون علينا الآن أن نذهب للصيد!»

قال نيكولاس: «إنها مقايضة عادلة لا سرقة فيها. انظر ماذا لدينا في قن الدجاج».

كان قن الدجاج ممتلئاً رغم أن دجاجتنا قد جُرفت أو غرقت منذ وقت طويل، لكن العاصفة طيّرت معها أعداداً من طيور البحر وساقتها نحو ظهر السفينة وباتجاه القن حيث تضرب الآن بأجنحتها بلا جدوى، أو تبيض وهي متعبة جداً بحيث لا تقوى حتى على التصفيق بأجنحتها. أطلقنا سراحها. أعتقد أن ذلك كان جنوناً منّا في الوقت الذي كنا فيه مشرفين على الموت جوعاً، لكن رغم ذلك فقد كانت رفيقة لنا في معاناتنا.

أنزلنا القارب الطويل للماء، وأوصلنا المرضى والنساء وبعض أقوياء البنية إلى اليابسة.

لقد كان شاطئاً بائساً بتلال رملية منخفضة مغطاة بالبلميط [1] الشائك دون أن يكون هناك أي مأوى باد للعيان. ومع ذلك، فقد هتف لنا السيد ديكنسون سريعاً ليخبرنا بأنه قد وجد منخفضاً صغيراً في الأرض حيث يمكننا أن نشيد خيمة.

(١) ضرب من النخل قصير مروحي السعف.

انطلقنا للعمل جميعاً لنجذب الصواري والأشرعة التي جمعناها وكذلك بعض المؤن. كان المطر لا يزال يهطل من فوقنا، لكن الريح كانت قد بدأت تخمد قليلاً، وللحظة بدا أن مجرد كوننا أحياء هو أمر جيد.

قام البحارة سريعاً بعمل خيمة أمّنت على الأقل مأوى لا بأس به لأولئك الذين كانوا بحاجة ماسة إليه.

غابت السيدة ديكنسون عن الأنظار في إحدى زوايا الخيمة وطفلها بين ذراعيها. لقد بدا أن العاصفة قد أزالت منه الحياة كلية، إذ استلقى ساكناً بلا حراك، وكان يئن بدل أن يضحك في خفوت كما كان من عادته أن يفعل. لم أتمالك نفسي عن الشعور بالأسف لكليهما.

كان السيد ديكنسون قد جمع قطعاً من الخشب ليشعل ناراً، وحين عدنا أنا ونيكولاس للسفينة لنحضر المزيد من المؤن كان بوسعنا رؤية الدخان يرتفع ويدور في دوامة جيئة وذهاباً

قلت مفعماً بالأمل وشاعراً بثيابي المبللة تلتصق بجسدي: «سيكون من الجيد الجلوس بقربها فيما بعد».

قال نيكولاس: «هذا صحيح، ستكون حسنة جداً ما دام هذا المكان غير مأهول».

واستدرنا ثانية لنراقب الدخان وهو يرتفع من الشاطىء ليعلن لأي مراقبين غير مرئيين، يُحتمل وجودهم في ذلك المكان، نبأ نزولنا لليابسة.



الفصل الثامن

فكّا الموت



حين قدم أول الهنود كنت أنا ونيكولاس على ظهر الريفور ميشن. كنا ننقّب في مستودع المؤن المخضل وما كدنا نصعد إلى السفينة حين سمعنا صرخة تحذير. نظرنا نحو الشاطىء، ورأينا محاربين اثنين من السكان الأصليين يركضان على طول الشاطىء ملوحين بمديتيهما مهددين. كانا عاريين إلا من أحزمة من قش مجدول غطت عورتيهما، وانتهت على نحو غريب بذيول كبيرة متدلية من الخلف مصنوعة من أعشاب كشعيرات أكواز الذرة.

كان اثنان من الزنوج في طريقهما مباشرة. لقد كان الرجلان المسكينان يحملان أكياساً من الذرة عابرين بها إلى المخيم، وقد وقفا ساكنين بلا حراك مذعورين بينما اقترب المحاربان. أتى ديك ليم بيني وسولومون كريسون متسلقين بعجلة الدرج برفقة جاك هيلارد الذي تبعهما على الأثر، ووثبنا جميعاً إلى القارب الطويل متأهبين للاندفاع لإنقاذهما. لم نكن لنستطيع، بأية حال، الوصول إليهما في الوقت المناسب. عندئذ، سمعنا صوت السيد ديكنسون الهادىء قادماً من إحدى تلال الرمل. «لا تقاوموهما يا رجال. إنها فرصتكم الوحيدة».

أمسك الهمجيان بالزنجيين الاثنين واندفعا بهما نحو المخيم. وضع ديك ليم بيني يديه حول فمه على شكل قمع وصرخ:

«سيد ديكنسون، سيدي، هل بإمكانك الإمساك بهما إلى أن نستطيع إطلاق النار؟»

كنت أشك كثيراً في أن تتوفر لنا بندقية صالحة للاستعمال أو مقدار قليل من البارود الجاف المتبقي على ظهر المركب، لكن ذلك لم يكن أمراً ذا أهمية كبيرة. نادى السيد ديكنسون، هادئاً كعادته، مجيباً إيانا: «اتركوا بنادقكم خلفكم وتعالوا». هز ديك ليم بيني كتفيه استهجاناً وقال: «أعتقد أنه على حق. ليس علينا سوى أن نجيء بعش زنابير ونضعه حول آذاننا، لكن كل ذلك سيفضي بنا في النهاية إلى نفس النتيجة حسب ما أعتقد» جدفنا إلى الجانب الآخر، ووصلنا المخيم في اللحظة التي أطلق المحاربان سراح الزنجيين. وقفا ممسكين بمديتيهما بإحكام وتشبث، وعابسين على نحو مهدد في وجوه نزلاء الخيمة العاجزين.

حين وصلنا ارتدا متخذين وضعية الدفاع. ورغم أننا كنا نفوقهما عدداً، فمن الجلي أنهما لم يكونا مستعدين لبيع حياتهما بثمن بخس. غير أن السيد ديكنسون قدم بعض التبغ وغليونين مومئاً بودّ، وفي نفس الوقت كان يقول لنا بثبات: «أصدقائي، إن قتلتم هذين الاثنين، فإن ذلك سيكون في نهاية الأمر أسوأ لكم ولنا. سيكون هنالك المئات مرة أخرى لينتقموا لهما. على أية حال، إنني لن أؤيد إراقة الدماء. تذكروا، إننا جميعاً عباد الله». كان المقاتلان لايزالان يحملقان فيه مغضبين مرتابين من وجود فخ.

علق سولومون مكشراً باستهزاء: «ربما يكونان عبدين لله، لكنهما يبدوان أكثر شبهاً بفراخ الشيطان. أبقِ عينيك عليهما يا سيد ديكنسون وإلا سيطعنانك بمديتيهما».

قال السيد ديكنسون بهدوء: لست خائفاً. وقدم التبغ والغليونين ثانية. وفجأة انقضّ الهمجيان عليه انتزعا الهدايا منه بعنف كاد معه أن يُطرح أرضاً، ارتدا للوراء وفرّا هاربين.



قال السيد ديكنسون بهدوء: «من الأفضل لنا أن نتشاور في الأمر». وتجمعنا كلنا سوية حول الخيمة.

تابع قوله: «سوف يعودان ويحضران قبيلة كاملة معهما. علينا أن نقرر الآن كيف سنتصرف ما دام هناك وقت».

تأوه السيد كيرل بشدة وضرب جبينه بقبضته المطبقة بإحكام، ثم قال: «حين أفكر بأنني أنا من وضعكم جميعاً في ظروف كهذه، أشعر بالذنب».

قال ديك ليم بيني: «لا تقل المزيد من هذا الكلام يا سيدي! علينا جميعاً أن نفعل ما بوسعنا. اسمح لنا بأن نشيد حاجزاً دفاعياً من رزم البضاعة الضخمة والصناديق، ونجمع كل سلاح يمكن أن تصل إليه أيدينا، وكل ما يمكن أن يصنع منه سلاح. إن استطعنا إبعادهم فذلك مستحسن وجيد، وإن لم نستطع فعلينا إذن أن نقتل النساء والأطفال قبل أن نقتل أنفسنا».

سأل سولومون بمرح: «ماذا يحدث للنساء والأطفال إن نحن قُتلنا أولاً يا سيدي؟»

سأل ديك ليم بيني: «حسنٌ، ماذا يمكنكم أن تقترحوا أيضاً؟»

قال السيد بارو بصوت دال على إيمان راسخ: «أقترح بأن نثق بالله».

تأوه السيد آلن المسكين، الذي كان لا يزال ضعيفاً على نحو يرثى له بعد مرضه، قائلاً:

«آمين، لكن مع ذلك أتمنى لو كنت ميتاً وبعيداً عن كل ذلك».

أكد له سولومون: «سوف نموت كلنا قريباً يا سيدي، إن ما أريد معرفته هو فقط كيف نبدأ بذلك».

قال نيكولاس: «كنت أريد أن أؤيد اقتراح السيد ليم بيني، إذا لم تكن هناك مخاطرة بأن تقع أيٌ من النساء والأطفال بين أيديهم أحياء. هل هنالك طريقة للتأكد من ذلك؟»

أكد السيد بارو: «نعم، ضعوا كامل إيمانكم بالله، إنه السبيل الوحيدة».

ومنذ أن ذكر القدر المحتمل وقوعه للنساء والأطفال، لم يُزح السيد ديكنسون عينيه عن زوجته وطفله. بدا من وجهه أنه كان يحاول إيجاد حل، وعضّ على شفته وقال أخيراً: «أتقصد بأن علينا ألا نقاومهم حتى إلى النهاية يا روبرت؟»

قال السيد بارو: «أقصد بأننا جميعاً عباد إله واحد، ويجدر بنا أن نضع ثقتنا به يا جوناثان».

قال السيد ديكنسون وهو يتأوه: «لا أعتقد بأنني أستطيع فعل ذلك يا روبرت!» جلس على برميل خشبي وغمر وجهه بيديه. لم أُعجب به قط إلى ذلك الحد البعيد. وضع السيد بارو يده برفق على كتفه وقال: «لقد هداك الله من قبل يا جوناثان. ثق بأنه سيهديك ثانية».

سأل السيد ديكنسون: «ماذا سنفعل يا روبرت؟» وكان وجهه لا يزال مخبأً بيديه.

قال السيد بارو مندهشاً: «سنقوم بالمهام التي بوسعنا أن نفعلها يا جوناثان. لندع كل الأقوياء والمتمتعين بصحة جيدة يتابعون تفريغ المؤن بينما يقوم بقيتنا الموجودون هنا بترتيب الأسياء بقدر ما نستطيع. إن مخاوفنا سوف تكبر في آخر الأمر إن نحن أضعنا الوقت بالتراخي والكسل، وحين يأتي الهنود إلينا ــــ كما هو مؤكد ــــ فإن الله سيوحي إلينا بما سنفعل»

قال السيد ديكنسون: «فليكن ذلك» وقف، وكان وجهه مشرقاً ودالاً على الثقة بالنفس. كان قد تغلّب على ضعفه الآني، واحترمناه أكثر لأجل ذلك. قال: «دعونا نعمل يا أصدقاء»

سأل ديك ليم بيني: «ماذا قال السيد كيرل؟ أليس علينا أن نعمل السوط فيهم؟»

ردد بقية الرجال: «بلى، بلى، ماذا يقول الربان؟»

قال السيد كيرل، الذي كان مستنداً إلى صندوق وساقه المضمدة ممدودة بخط مستقيم فوق الأرض:

«يا رجالي، لقد وضعتكم في مأزق فاجع. لقد خسرت سفينتي، ولسوف أخسر ركابي وطاقمي، وبالمقارنة مع كل ذلك، فإن حياتي أنا نفسي لا تساوي الشيء الكثير. لكن إن سألتموني ما علينا فعله الآن، فإنني أخبركم بصراحة أن الأمر سيّان في النهاية. إن هؤلاء الهمجيون سيقتلوننا على أية حال. وأفسّر نصيحة السيد بارو بكل بساطة على النحو التالي: إن لم نقاوم، فإنه من المحتمل لنا أن نموت سريعاً، بينما إن نحن أغضبناهم، فإنه من المؤكد لنا أن الناجين سيموتون على نحو بطيء. أما عن رأيي، فإنني أفضل خطة ديك ليم بيني ولكن، إن أخذنا كافة الأمور بعين الاعتبار فإنني أؤيد السيد بارو والسيد ديكنسون»

قالت السيدة ديكنسون بهدوء: «إنني أوافق زوجي. غير أني لا أفقد الأمل»

قال نيكولاس: «ولا أنا يا سيدتي. إن نحن نجونا من الهجوم الأول، ألن يكون بوسعنا مداراتهم؟»

قال سولومون موافقاً: «لم لا؟ إن ذلك يستحق المحاولة».

قال السيد كيرل: «أخشى أنه لا فائدة ترجى من ذلك. حالما يكتشفون بأننا انكليز فإنهم سيقتلوننا جميعاً وعلى الفور».

قال سولومون: «إذاً لا تدعهم يكتشفون ذلك يا سيدي، دعهم يظنون بأننا إسبان. هؤلاء هم الأجانب الوحيدون الذين يكنون لهم الاحترام».

قاطع السيد بارو بهدوء: «لكن ذلك سيعني الحيد عن الحقيقة. لا يمكننا أن نكذب».

غمغم سولومون هامساً: «آه، حقاً؟ هل سيكون لديك أي مانع إن تكلمت إليهم بالإسبانية يا سيدي؟»

قال السيد بارو: «تستطيع أن تتحدث إليهم بأية لغة يفهمونها، لكن ليس بإمكاني أن أؤيد قول الكذب».

نظر السيد كيرل إلى السيد ديكنسون، وبعدئذ إلى السيدة ديكنسون وطفلها ثم عاد بنظره ثانية. أومأ كلاهما إيماءة ضئيلة للغاية، وسرى بينهما اتفاق لا كلام فيه. عندئذ قال السيد كيرل شيئاً ما لوكيل الربان بصوت منخفض، وانطلقنا جميعاً

على طول الشاطىء باتجاه المركب ثانية، عاهدين إلى السيد ديكنسون والسيد كيرل بمهمة رعاية المرضى والنساء والأطفال.

كانت السيدة ديكنسون والنساء الزنجيات تعملن في ذلك الحين ليجعلن الخيمة أكثر ملاءمة للسكن، ونشرن بعض الثياب الرطبة لتجف أمام النار.

قال ديك ليم بيني عندما كنا خارج مرمى السمع: «جميعكم يعلم ما عليه فعله».

قال جاك هيلارد: «أجل، أجل يا سيدي. نحن إسبان، من أكبرنا لأصغرنا. لكن لا تطلبوا مني أن أتكلم اللغة الأجنبية».

قال سولومون كريسون: «سأتدبر أمر ذلك»

قال نيكولاس: «أنا كذلك، رغم أن لغتي الإسبانية ليست جيدة بما يكفي. يبدو أملاً شبه يائس، لكنني أعتقد أنه يستحق المحاولة. ورغم ذلك، لو لم يكن هناك مخاطرة فيما يتعلق بالنساء والأطفال، لحسمت الأمر بالقتال».

قال وكيل الربان: «أنا كذلك، لكنها أوامر القبطان».

بعد حوالي ساعتين أو ثلاث أشرقت الشمس، وبدا المنظر بأكمله مختلفاً. كان الشاطىء لا يزال شاطئاً مهجوراً، بيد أن البحر كان يتلألأ في شروق الشمس مما أحال الزبد الذي تقاذفه الموج إلى ما يشبه الفضة.

كانت تلال الرمل ذهبية الآن بدلاً من تلك التي كانت مجلودة بسياط المطر ورمادية اللون.

حملنا أنا ونيكولاس زوجاً من صناديق السفينة من جانب إلى اخر نحو المخيم، ووجدنا الصاحبيين يصلون. أنزلنا الصناديق بهدوء، وكنا على وشك العودة إلى المركب حين سمعنا صرخة من الشاطىء:

«إنهم قادمون! كان الله في عوننا!» لم يتحرك أيٌّ من المتحلقين في الدائرة الصغيرة، واندفع بقية الرفاق عائدين نحو المخيم، رغم ذلك لم يتحرك أحد. وانضموا إلى المجموعة واحداً تلو الآخر. نظر نيكولاس إلي كما لو أنه أراد قول

شيء ما لكنه لم يستطع أن يقطع الصمت. كنت مدركاً لما أراد قوله. على أية حال، لم تكن هناك ثمة كلمات تعبر عما أراد قوله. جلسنا جنباً إلى جنب على أحد الصناديق وانتظرنا. احتشد البدائيون أسفل الشاطىء بالمئات، لكن معظمهم اندفع نحو المركب وشرع في نهبه. هبط زعيم القبيلة برفقة ما يقارب ثلاثين مقاتلاً أو أكثر إلى المخيم ورغم ذلك، لم يتحرك أحد ولم يقطع الصمت شيء. رغم أن اهتياجاً عظيماً كان محتدماً في طول الشاطىء وعرضه.

سأل زعيم القبيلة: «نيكالير؟»وردد رجاله سائلين: «نيكالير؟»

لم يعلم أحد ما كانوا يقصدون. معظمنا هززنا رؤوسنا. كان واضحاً من أسلوب تعبيرهم بأن«نيكالير» كانت تعني شيئاً ما كانوا يكرهونه كثيراً.

صرخوا: «نيكالير؟ نيكالير؟» وهززنا رؤوسنا مرة ثانية. سألوا أخيراً: «إبانيا؟»

وانفجر سولومون كريسون بفيض من الإسبانية، وكان نيكولاس يقاطع بكلمة أو اثنتين. وقاطع الآخرون الحديث معبرين عن موافقتهم مفعمين بالأمل: «إبانيا! إبانيا!»

جلس السيد ديكنسون ويده فوق عينيه، وكان السيد بارو لايزال غارقاً في صلاة صامتة.

«لا! لا! نيكالير! نيكالير!» قال البدائيون بصوت عال عميق بينما أحاطوا بنا. وفجأة جلس زعيم القبيلة خلف السيد ديكنسون، وأدخل أصابعه في شعره، ثم قذف برأسه بحركة سريعة نحو الوراء لكي تسقط يده بعيداً عن عينيه. بقي هادئاً تماماً. وفقط قبل أن أمسك أنا نفسي، لاحظت بأن يده الأخرى سعت إلى يد زوجته وأمسكتها بإحكام. عندئذ شعرت بركبة قاسية على ظهري، وبأصابع تقبض على شعري بإحكام، ولمّا كنت قد أُكرهت على وضع رأسي للوراء، رأيت مدية لامعة فوقي تنتظر أن تغمد في حلقي. وكنت أدرك أن جميعنا كنا نعاني نفس الوضع، وأننا كنا هالكين. كانوا ينتظرون فحسب أن يعطي زعيم القبيلة الإشارة. كنت أعلم بأنه كان حريٌ بي أن أصلي. ما كان يجدر بذهني أن يكون فارغاً في

وقت كهذا. لكنني لم أكن واعياً إلا لرائحة العرق النتنة، وللهدير الذي أحدثه أسري في حنجرته بينما اهتزت يده في شعري بصبر نافذ.

لست أعلم متى أدركت أن الصاحبيين كانوا لا يزالون يتعبدون سوية. لا أستطيع أن أصِف شعوري، كان ذلك كما لو أن مصباحاً كان قد ومض ثم خبا في الريح، قد أصبح متوهجاً ثانية على نحو مريح للنظر. وفجأة، رأيت الضوء يتألق على نحو مبهر عبر الفتحة في النافذة ذات الزجاج الملون في إلفورد. وعندئذ سمعت صوت السيد بارو يقول بهدوء دون ارتعاش: «رغم أنه يقتلني، إلا أنني مع ذلك سأثق به».

توقف صوت الهدير الحنجري من خلفي، ولدقائق قليلة توقفت جميع الأصوات. لست أدري كم من الوقت استمر الصمت، كل ما أعلمه هو أنني لم يكن بوسعي تحمله لوقت أطول. فجأة، أنزل زعيم القبيلة مديته.

وأطلق سراح السيد ديكنسون، وفعل مقاتلوه الشيء نفسه. كانوا جميعاً يتصرفون بشكل عنيف كما لو أنهم، كذلك، قد وجدوا ذلك أكثر مما يطيقون التحمل. سلب البعض المخيم، بينما حاول آخرون انتزاع أي شيء ثمين كان في حوزتنا، وقام المحارب الذي أمسك بي بإطلاق سراحي على نحو مفاجىء جداً لدرجة أنني سقطت في كومة عند قدميه. نظر للأسفل نحوي ونخر كالخنزير، وللحظة ظننت أنه سيقتلني برغم كل شيء.

آنذاك، انحنى للأسفل ومزّق الثياب عند ظهري بصرخة جنونية. وقبيل أن ينتهي مني، لم يتبقَّ لدي سوى بنطلوني القصير، وسريعاً كانت حال الجميع كحالي، ما عدا السيد بارو والسيد كيرل والسيدة ديكنسون وطفلها.

وقفنا معاً لاهثين ومندهشين لكوننا ما زلنا على قيد الحياة حين وجّه زعيم القبيلة فجأة سؤالاً مباشراً إلى السيد ديكنسون. سأل: «نيكالير؟ نيكالير؟»

كان السيد ديكنسون واقفاً بالقرب من زوجته ولازال ممسكاً بيدها. كان متسخاً وأشعث الشعر، وكان هناك خدش طويل على جبينه. كان حافي القدمين وعارياً إلا من بنطاله القصير، ورغم ذلك شعرت بأنه رجل أفضل مما كنت أظنه.

ابتلع لعابه مرتين من قبل أن يجيب. بعدئذ نظر إلى زعيم القبيلة ملّياً في وجهه وقال: «بنسلفانيا!»

نخر زعيم القبيلة كالخنزير قائلاً: «آه!» وبدا راضياً. وتدخل سولومون كريسون سريعاً. أعتقد أنه كان لديه وخوف خفي أن يوجه نفس السؤال للسيد بارو. ورغم أن السيد بارو قد أنقذ حياتنا جميعاً بطريقة يتعذر تفسيرها نوعاً ما، إلا أننا كنا خائفين أن يُسقط كارثة فوق رؤوسنا بسبب سذاجته. شرح سولومون بلغة إسبانية طليقة، بأننا نتمنى الذهاب إلى حصن سانت أوغستن الإسباني، لكن وفي كل مرة كان يطلب فيها أن يُدل على الطريق، كان زعيم القبيلة يتهرب من أسئلته بطريقة خبيثة. بعدئذ، اقترح نيكولاس سانتالوسيا حيث كنا نعتقد أنه كان هنالك إرسالية دينية إسبانية. وبيّن لنا زعيم القبيلة، بشكل متذمر، الوجهة التي تقع فيها، لكنه كان يهز رأسه كلما اقترحنا أنه علينا السفر نحو الشمال بأسرع ما يمكن، ويمرر إصبعه بشكل ذي دلالة على حلقه. كان لدي شعور بالقلق من أن حياتنا ربما لاتزال معلقة بخيط. رغم ذلك، بدا زعيم القبيلة ميالاً إلى حمايتنا. واحتشد أتباعه رجالاً ونساء» حول السفينة بهياج سالبين ما فيها، وصارخين معاً على نحو مبتهج بالنصر، لكن ومع اقتراب هبوط الليل، أشار لنا أن نرتب الخيمة ونجعل منها صامدة للعوامل الجوية، واتخذ، بشكل سري، الترتيبات الضرورية لحفظ نصيبه من الغنائم هناك. وحين تم ترتيب كل شيء، استلقى فوق الصناديق محتوياً ممتلكاته الجديدة، وخرّ نائماً على الفور شاخراً بقوة، وشعرنا جميعاً بأمان أكبر لوجوده معنا.

أنقذنا من الغرق القليل من البطانيات الممزقة وقصاصات من الأشرعة، وغطينا أنفسنا قدر ما استطعنا ثم جلسنا لنستريح إن لم يكن لننام. وارتفعت أصوات شنيعة في الخارج بينما كان الهمجيون يرقصون بابتهاج على الشاطىء، لكننا سددنا آذاننا عنهم مصلين كلٌّ حسب مذهبه الخاص رجاء أن يحمينا الله من كل شرور وأخطار تلك الليلة المرعبة. وفي وقت مبكر من الصباح التالي، توسل سولومون إلى زعيم القبيلة أن يسمح لنا بالسفر نحو الشمال لكنه رفض على نحو نهائي، وأخبرنا بشكل جاف بأن علينا أولاً الذهاب إلى قريته.

إن قيام سولومون بالتوسل إليه مجدداً جعله فظاً ومرتاباً في نهاية الأمر، إلى أن غادر الخيمة أخيراً على نحو مفاجىء. نظرنا إلى بعضنا بيأس. إذا انقلب زعيم القبيلة ضدنا، فربما كان ذلك بحق بداية النهاية.

وفجأة، عاد زعيم القبيلة وجلس على صندوق بالقرب من السيد بارو الذي نظر إليه بهدوء وابتسم.

سأل زعيم القبيلة: «نيكالير؟ نيكالير؟»

ردد السيد بارو بصوت محتار: «نيكالير؟» بينما حبسنا أنفاسنا جميعاً وأردنا أن يصمت. «نيكالير؟ أخشى أنني لا أفهمك يا صديقي».

سأل زعيم القبيلة على نحو ثابت: «نيكالير؟»

همس سولومون كريسون: «قل لا يا سيدي»

غمغم السيد ديكنسون: «قل بنسلفانيا يا روبرت! قل بنسلفانيا!»

ردد السيد بارو ثانية: «نيكالير؟ وعندئذ، بدا أن الاشراق الروحاني يبزغ: «آه، أنت تقصد إنكليز! نعم، نعم، بالطبع! نيكالير يا صديقي، نيكالير!»

نظر زعيم القبيلة حول رفاق الرحلة، ثم أشار إلى نيكولاس وسأل: «نيكالير؟»

أجاب السيد بارو: «حسب معرفتي، نعم يا صديقي».

غمغم زعيم القبيلة متجهم الوجه: «توتس نيكالير!»وخرج. عاد سريعاً برفقة بعض مقاتليه الذين اندفعوا للداخل بعنف بالغ لدرجة أنني رُميت بعنف إلى الأرض عند هجومهم الأول، كان من المستحيل أن أنجو منهم لو لم يسحبني نيكولاس من تحت أرجلهم إلى جهته، حيث كان هو كذلك معرضاً للخطر. انتزعوا ما كنا نرتدي من ثياب وهو يضربون نحو اليمين ونحو اليسار في غمرة غضبهم الشديد، مزقوها جميعها عدا بنطالي السيد بارو والسيد كيرل وجردوا السيدة ديكنسون وطفلها من ثيابهما. استمر الصخب بعنف شديد لبرهة، لكن سرعان ما بدأ الهنود يهدؤون، رغم أن بعضاً منهم كان لا يزال ينخر: «نيكالير! نيكالير!» بنظرات سريعة مؤذية. كان المهاجمون القابعون في الأسفل على

الشاطىء قد بدؤوا يتفرقون بغنائمهم، وتحول بذلك انتباه مضطهدينا. راقبناهم بقلق متسائلين عما سيفعلون بعد ذلك.

قال السيد كيرل: «أعتقد بأنهم سوف ينقلوننا إلى مكان آخر قريباً. إن هم ساقونا للخارج في هذه الشمس المحرقة، فإن الأمر سيكون شاقاً علينا. من الأفضل لنا أن نقطع الخيمة لنصنع ما يشبه الغطاء»

وفور ملاحظتهم ما كنا نفعل، حاول الهنود أن يأخذوا منا حتى مزق الأشرعة، لكننا احتفظنا بأقل ما أمكن الاحتفاظ به، وكلٌّ تدبر أمره بقدر ما أمكن. ولم نكن خائفين فقط من وهج الشمس المحرقة، بل أيضاً من أثر الرمال المسببة للقروح على أرجلنا الحافية.

أمرنا عند الظهيرة أن نحطم المخيم. أنزلنا رزم البضاعة الضخمة، والصناديق، والصرر إلى الشاطىء، وهناك تم صفّنا وأُجبر كل منا على أن يتولى القيام بحمولة. ولم يُعفَ سوى المصابين بمرض عضال والعاجزين. تضمن ذلك بشكل طبيعي السيد بارو، لكنه حمل طوعاً كتلتين كبيرتين، الكتاب المقدس الكبير الحجم الذي كثيراً ما قرأ لنا منه بصوت عال على ظهر السفينة، وكتاب حول الدين الصاحبي بقلم شخص ما يدعى روبرت باركلاي.

كنت أعتقد أنه بوسعنا التخلي بسهولة عن الأخير، وبالنسبة للكتاب المقدس فقد كنت واثقاً أن الرجل العجوز كان يحفظه عن ظهر قلب.

اصطف حارس مقاتل مسلح بأقواس وسهام في مكان قريب منا، وبعدئذ قدم زعيم القبيلة ليفتشنا للمرة الأخيرة.

قال شيئاً ما لسولومون كريسون، وبعدئذ أشار أولاً إلى أحمالنا ومن ثم إلى الحارس. هز سولومون كتفيه واستدار إلينا. قال مفسراً: «إنه يقول إن حاول أي شخص أن يهرب أو أن ينزل حمولته، فإنه سيرمى بالسهام على الفور».

أشار نيكولاس إلى القبطان، الذي كان يتكىء رامياً أغلب ثقله على غلامه الزنجي بن، وقال بالإسبانية: «أخشى أنه ليس بوسعي فعل أي شيء حيال ذلك. إن بن غير قادر على حمل أي شيء»

أومأ زعيم القبيلة موافقاً، مما جعلنا نرتاح إلى حد بعيد، إذ لم يكن السيد كيرل في حال تهيئه ليقاسي عذابات رحله كهذه. كان يخفي معاناته عنا بوجه باسل، وطدنا أحمالنا بأحسن ما يمكن متشجعين بثباته، وانطلقنا في الطريق المروع الذي امتد أمامنا، ولولم يكن من المفروض علينا أن نسافر في أكثر الأوقات حرارة من النهار لكان الأمر أسهل. مشينا بتثاقل على طول الشاطىء جارين أقدامنا بين الرمال الناعمة اللاذعة والشمس تسحقنا من الأعلى دون أن يكون هناك بقعة ظل صغيرة على الإطلاق، أما أرجلنا فقد آلمتنا وتقرحت وامتلأت بالبثور على نحو سريع، لكن ورغم الوجع، لم يتحرأ أحد على إنزال حمله رغم أننا كنا نتوقف بين الحين والحين لننقلها من كتف لأخرى، وفي كل مرة كنا نتوقف فيها حتى ولو للحظة فقط، كان حراسنا يرفعون أقواسهم وسهامهم مستعدين لرمينا بها. وبعد حوالي خمسة أميال، قدمنا إلى جون عريض في البحر، ورأينا قرية هندية على الجانب الآخر تتألف من أبسط طراز من الوغوم [١] مشيدة من أعمدة مسقوفة بأوراق البلميط. أشار حراسنا إلينا أن نجلس على الأرض، وبارتياح كبير طرحنا أحمالنا عن أكتافنا واسترحنا. قاسينا العطش، وكنا مرهقين جداً لدرجة أننا لم نقو حتى على التفكير. بعد برهة، قدم زعيم القبيلة وتفحصنا بعينيه، وحين شرح سولومون بأننا عطشى هز كتفيه بازدراء وأشار للأرض.

كنا جميعاً متعبين جداً لنحزر ما كان قصده. أشفق علينا في نهاية الأمر، وبخفة حفر فجوة في الرمال. كان هنالك ماء على عمق قدم، وأشار لنا أن نشرب. كان الماء مالحاً وملوثاً بالوحل، لكننا كنا سعيدين به. آنذاك غادرنا، وجلسنا لوقت طويل تحت الشمس المحرقة وانتظرنا. رأينا عبر الجون دخاناً يتصاعد.

أنَّ جاك هيليارد قائلاً: «أترى الدخان القائم هناك؟ أراهن أنها النيران الموقدة من أجل أوعية الطهي. يا إلهي، أتمنى لو أنني لم آت للبحر أبداً!»

قال سولومون: «سيكون لدي نفس الأمنية إن لم تستطع الاحتفاظ بهدوئك يا جاك. ما فائدة إخافة النساء؟ كن رجلاً!»

قال نيكولاس: «إنهم لن يحتاجوا أوعية طهيهم إن هم احتفظوا بنا هنا لوقت أطول. إنني نصف مشوي مسبقاً».

---

(١) جمع وغم: كوخ بيضوي أو مستدير الشكل عند هنود أميريكا الحمر.

قال ديك ليم بيني مظللاً عينيه بيده: «هنالك كنو [1] يبحر من شاطىء الجانب الآخر، ربما سيعبرون بنا نحو الجانب الآخر».

وجدّف هندي ببطء من جانب لآخر، وراقبناه بعبوس. كان وضعنا الحالي غير مريح، ورغم ذلك، لم يعجب أحد بفكرة الذهاب إلى القرية الهندية، إذ لم يبدُ أن هنالك أملاً كبيراً بالخروج منها أحياء. وبينما كان الهندي يرسو على الشاطىء بقاربه الكنو، قدم زعيم القبيلة مرة ثانية، وأمر بشكل صارم السيد بارو والسيد والسيدة ديكنسون مع طفلها أن يركبوه. قمنا جميعاً بتوديعهم. لقد بدا من الصعب أنهم سيكونون أول من عليه مواجهة كل ما كان ينتظرنا على الجانب الآخر من الجون. لوّحوا لنا بابتهاج حين ذهبوا وقال السيد آلن المسكين، الذي كان مريضاً جداً، قال لاهثاً: «إن لم يكن لديكم مانع، أعتقد أنهم يريدون منا أن نصلي من أجلهم». وتناوبنا في الصلاة. أعتقد أنها كانت ذات فائدة لنا. وعاد الكنو من أجل مجموعة أخرى، وتدريجياً، تم نقلنا جميعاً نحو الجهة الأخرى.

لدى وصولنا، أُخذنا مباشرة إلى وغم زعيم القبيلة حيث وجدنا السيد بارو وكذلك السيد والسيدة ديكنسون اللذين بديا كليهما شاحبين ومرهقين.

شرح السيد ديكنسون قائلاً: «لم يمسنا أحد بسوء. لكن زوجة زعيم القبيلة أخذت جوناثان الصغير، واعتقدنا أنه لن يكون بوسعنا أن نستعيده أبداً».

لم تقل السيدة ديكنسون شيئاً، لكنها ضمت الطفل إلى صدرها كما لو أنها لم تستطع تحمل أن ينظر إليه أو أن يلمسه أحد ثانية.

قدّم الهنود لنا سمكاً على أوراق البلميط، غير أن القليلين منا استطاعوا ابتلاع شيء منه. قدم في آخر الأمر زعيم القبيلة، وصنع نوعاً من المأوى واضعاً عيداناً وأغصان البلميط بجوار وغمه. تم إحضار حصيرتين أو ثلاث ومُدّت فوق الأرض، وآنذاك أشار إلينا بأن نستلقي أرضاً. وضعنا النساء والمرضى على الحصير واستلقى بقيتنا على الأرض. كنا مرتاحين بما يكفي ونحن بمنأىً عن

(١) زورق طويل خفيف ضيق يقاد بمجداف أو أكثر.

الريح على الرغم من أنها كانت سكنى تفتقد لأقلّ أسباب الراحة ضرورة. دخل زعيم القبيلة وغمه حيث كان بإمكاننا رؤيته جالساً بساقيه متصالبتين على منصة مرتفعة مشيدة من العيدان ومغطاة بحصيرة. صاح طالباً سلة من توت البلميط، والتهمها بشراهة باصقاً الأجزاء على الأرض.

هبط الليل أخيراً وطلع القمر، عندئذ قدم هندي طويل ماشياً بتشامخ نحو الأرض المقطوعة الشجر في الغابة أمام الوغم. شدّ جسده إلى أقصى طوله، ثم مدّ ذراعيه إلى القمر وأطلق صيحة شنيعة، وكرر ذلك مرة بعد مرة لما يقارب النصف ساعة. لم يكن هنالك أي صوت آخر. بدا وكأن العالم برمته قد حبس أنفاسه بينما كانت هذه الروح الواحدة الإنسانية تصرخ عالياً على نحو مكرب إلى إلهها الرهيب. بعدئذ، انضم إليه حشد كامل من الهنود، وكانت أصواتهم تُعول وتزعق في الليل الأجوف. نصبوا، فيما بعد، نوعاً من الأعمدة الطّوطميّة[1] وجاء الرجال والنساء مندفعين كالأمواج خارج وغومهم وصارخين في محاكاة مضحكة غريبة لأغنية.

لم يكن هناك من راحة أو نوم إلى أن انتهى ذلك. استلقينا مرتعدين في ضوء القمر، متسائلين بم كانت هذه الأصوات الغريبة تنذر، وعمّ إذا كان الذي رأيناه هو مأتمنا نحن. لم يكن هنالك من يخبرنا. لم يكن هنالك سوى سكون مطبق ورعب لا يمكن تصوره، وأخيراً وقبل الفجر، شهدنا برداً وهبوطاً غزيراً للندى.



(١) عمود منحوت مزدان برسوم طوطمية يقيمه بعض الهنود الحمر أمام منازلهم.

الفصل التاسع

يارب ارحمنا برحمتك



في الصباح التالي، أرسل زعيم القبيلة ابنه إلى الجون ليصطاد السمك بالرماح من أجلنا، وبينما كنا أنا ونيكولاس نراقب الشاب الرشيق الأسمر راكضاً عند حافة الماء وضارباً بين الحين والآخر عميقاً في المياه حيث لم نرَ شيئاً، فكرنا كيف أنه كان علينا أن نستمتع بالتجربة لو كان بوسعنا فقط أن نكون متأكدين بأننا لم نكن نُسمَّن من أجل مخزن حفظ اللحوم في القرية. وفي كل مرة تقريباً ضرب فيها الشاب الماء كان يخرج رمحه بسمكة ترتجف عند طرفه وسرعان ما كان لديه سلة ممتلئة، وحملناها عائدين إلى الوغم حيث طبختها النساء لنا، منذ زمن طويل، لم تكن قد سنحت لنا فرصة في أن نأكل ملء جوفنا، ورغم ذلك لم تكن لدينا شهية للطعام.

لقد كان ذلك اليوم يوماً شاقاً. ذهب زعيم القبيلة باكراً ليفتش البرك، وبقينا نحن قريبين من بعضنا إذ بدا أن بعض رجاله يتوعدون. وخلال فترة ما بعد الظهر، رأينا سحابة كبيرة من الدخان ترتفع من الشاطىء بالقرب من مكان حطام السفينة.

غمغم ديك ليم بيني قائلاً: «إن ذلك ينهي أمر السفينة، إنهم يدمرون المركب. يا إلهي، أتمنى لو ينتهي الأمر برمته»

عند هبوط الليل تغيرت وجهة الريح، وحركنا مأوانا المرتجل، ورتبنا الحصير لنشيد جداراً. كان على الجميع أن يستلقوا على الأرض العارية، لكن ذلك كان أفضل من أن نتعرض لريح الليل القارسة بعد حرارة النهار المحرقة، وخلد معظم الآخرين للنوم. رأيت السيد بارو في ضوء القمر نائماً في طمأنينة وسلام كأي طفل صغير.

جلست أنا ونيكولاس قريباً من بعضنا لنبقى دافئين. كان السكون مطبقاً، وفجأة رأينا جماعة من الهنود يزحفون نحونا دون أن يصدروا أي صوت، وكانت أقواسهم وسهامهم في وضعية الاستعداد.

همس نيكولاس: «سيد ديكنسون، سيدي، هل يمكنك رؤيتهم؟» وحتى حين تكلم جثم المحاربون أرضاً وبقوا بلا حراك.

علق السيد ديكنسون بهدوء: «ربما تكون هذه النهاية. من الأفضل لنا أن نوقظ الآخرين».

واستيقظ السيد بارو بسلام كما غط في النوم بسلام. جلسنا صامتين نراقب بينما كان الهنود يراقبوننا بصمت.

سمعت السيد بارو يغمغم قائلاً: «يارب ارحمنا برحمتك!» وكنت أعتقد أن تلك الكلمات لا بد منتمية إلى كل المسيحيين من كل الأجناس وكل العقائد، أو إلى الذين لا ينتمون إلى عقيدة محددة بذاتها، الذين وجدوا أنفسهم في أماكن مظلمة وفي مواجهة خطر يهدد حياتهم. «يارب ارحمنا برحمتك!»

أخيراً زحف الهنود بسكون مبتعدين نحو وغومهم، واستلقى السيد بارو لينام ثانية، لكن أغلبنا ظل يراقب مرتجفاً حتى الفجر حين أرسل السيد كيرل بسولومون ليرجو زعيم القبيلة مرة أخرى ليدعنا ننطلق نحو سانت أوغستن.

قال سولومون لدى عودته: «إنه يقول بأنه من المؤكد أن البدائيين على طول الساحل سوف يقتلوننا ويأكلوننا في الطريق، وهو مصر على أنه ليس هناك إسبان في سانتا لوسيا. هل نحن مهيؤون لنتحمل المخاطرة؟ أو أننا نفضل الشياطين التي نعرفها؟»

تأوّه السيد كيرل قائلاً: «بحق الله قل له بأن يدعنا نمضي! أفضّل القيام بأية مخاطرة على أن أتحمل هذا الترقب القلق ليوم اخر».

ردد ديك ليم بيني: «أنا كذلك! وبالنسبة لأمر الشياطين التي نعرف، فإنه لم يخبرنا أحد سوى زعيم القبيلة عن وجود هؤلاء البدائيين على طول الساحل»

قال سولومون: «فليكن ذلك. علي أن أقول بأنني أنا نفسي أريد تغيير الشياطين لدفع السأم بكل ما في الكلمة من معنى». مشى الهوينى نحو الجانب الآخر قاصداً وغم زعيم القبيلة بسيمائه المرحة المعتادة رغم أنه كان يدرك، كما أدركنا نحن، بأنه كان يخاطر بحياته إكراماً لنا. وبعد برهة عاد بالأخبار السعيدة التي تبشر بأن زعيم القبيلة بدا ميالاً لأن يلين. نبهناقائلاً: «لا تعتمدوا على ذلك! ولا تدعوا حتى التعابير على وجوهكم تتبدل، وإلا فربما يتراجع عن ذلك. لقد نظرت إليه كما لو أنني لم أهتم للأمر بطريقة أو بأخرى، أما هو فقد لمّح بأنه من الجائز أن يدعنا ننطلق في الغد. لكن يجدر بنا أن نستمر في المراقبة ونبقى يقظين طوال النهار، إذ أنه ماضٍ لجمع فتات الغنائم الأخيرة من الريفور ميشن، ولا تعجبني هيئة شعبه»

وبينما انقضى اليوم ببطء، أحببنا هيئة شعب زعيم القبيلة حتى ولو أقل مما أحبها سولومون. كانوا جميعاً منشغلين جداً في فرز الغنائم من المركب. الكثير من العدد كانت قد هُشمت خلال العاصفة أو كُسرت منذ أن وصلت إلى أيديهم، وفي بعض الأحيان كانوا يأمروننا بأن نصلح أشياء أو أن نشغلّها.

راقبت رئيس جماعة طويل القامة، لديه حول طفيف في عينيه، يفحص مَسكيت [1] أنقذها من حطام السفينة.

(١) بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة.

كان لديه فكرة غير واضحة إلى حد ما عن كيفية استعمالها، إذ أنه وضعها على كتفه وقام بضرب عدتها [٢] بيده في محاولة منه ليجعلها تطلق النار، وحين لم يحدث، شيء من هذا، أمسك بي من ذراعي وأشار لي بأن علي أن أجعلها تطلق النار وإلا فإن ذلك لن يكون خيراً لي. هززت رأسي وحاولت أن أجعله يفهم بأن المهمة مستحيلة، فما كان منه إلا أن ازداد اغتياظاً وغضباً مني ثم قام أخيراً بضربي بهراوة فطرحني أرضاً. ركض نيكولاس وسولومون لإنقاذي، تبعهما السيد ديكنسون، وعندئذ قام البدائي الضخم بضربي ضربة وحشية للمرة الأخيرة وتركني وهويغمغم قائلاً حين مضى: «انكليزي ابن كلب!» ساعدني نيكولاس في الوقوف على قدمي ونظرنا إلى بعضنا غير مصدقين. قال سولومون مكشراً: «هل سمعت ما سمعته أنا؟»

أومأ نيكولاس موافقاً وقال: «من الواضح أنه كان هنالك رجال انكليز هنا من قبلنا، يا للرجال البائسين! أخرجهم الله من بؤسهم سريعاً». وتنهد السيد ديكنسون بعمق بينما تمشى مبتعداً عنا. لقد كان الأمر أصعب عليه منا كان علينا، إذ كان لديه زوجته وطفله ليفكر بهما. وحين عاد زعيم القبيلة بآخر حمولة مما تم إنقاذه من المركب الغارقة، أحضر القارب الطويل من الريفور ميشن، ووعدنا، لراحتنا المطلقة، بأننا ربما نبدأ رحلتنا فيه في اليوم التالي. كان القارب يرشح، وقد بلي بسبب الاستعمال العنيف إلى أبعد حد، ولهذا فقد أنزلناه في الجون آملين أن يرتفع الماء بأضلاعه.

كان سيحمل القليل منا فقط، أما الباقون فسيكون عليهم بالطبع أن يمشوا.

كانت أوغستن تبعد على الأقل مسافة مئتي ميل. كانت آمالنا مشرقة، بيد أن ما كنا نشعر به من يأس كان يقيدنا. أمضى معظمنا ليلة قلقة، إذ كنا خائفين أن يتراجع زعيم القبيلة عن وعده، لكن رغم هواجسنا فقد مضي كل شيء على خير ما يرام. كان على وجهه تكشيرة حائرة بينما راقبنا نمضي. أعتقد أنه كان هو نفسه متحيراً في تعليل رأفته بنا. وحين رأينا البرك ثانية، وقد كان منظراً مؤسفاً، إذ

(٢) الآلة المفجّرة لشحنتها.

تحطم في الحريق إلى أضلاع أرضيته، وبصعوبة كان يمكن تمييزه كتلك السفينة الضخمة التي حاولت بكل شجاعة أن تركب العاصفة.

تركناها لتدلي بشهادتها الصامتةعلى ذلك الشاطىء القاحل وتابعنا مشينا مجهدين.

كان للحرية مذاقاً عذباً. أوقدنا في المساء ناراً من خشب جرفته المياه نحو الشاطىء، وطهونا بعض السمك الذي كنا قد وجدناه على الشاطىء بعد أن قذفت به العاصفة إلى هناك. وفيما بعد حاولنا النوم، غير أن الجو كان يعجّ بالبعوض وذباب الرمل لدرجة أننا سريعاً ما تخلينا عن محاولتنا تلك وشرعنا في رحلتنا ثانية.

مشينا مسترشدين بالشاطىء ما تبقى من تلك الليلة وطوال اليوم التالي. وكنا أحياناً نلتقي بهنود متفرقين كانوا يسلون أنفسهم وهم يروننا، بحركات إيمائية مخيفة، نوعية المعاملة التي علينا أن نتوقعها من السكان الأصليين لسانتا لوسيا. لقد كان من الواضح أن الناس هناك قد اخترعوا بعضاً من الطرق الغريبة الكريهة في قتل أسراهم.

وبينما انقضى اليوم في تثاقل، كان بوسعنا رؤية القارب الطويل يعاني صعوبات في مياه البحر العاتية، وقد حاول ركابه أن يرسوا مراراً، غير أن الليل كان قد بدأ بالهبوط قبل أن ينجحوا في فعل ذلك. وكانت التجارب التي مروا بها قد هزت كيانهم إلى حد كبير.

قبيل ذلك الوقت كنا قد وصلنا شاطىء جون عريض، وكنا نعتقد أن سانتا لوسيا تقع على الجانب الآخر منه، لكننا كنا جميعاً متعبين جداً للسفر إلى أبعد من ذلك، ولهذا قررنا أن نستريح حتى الفجر. ومع ذلك، فقد أمرنا السيد كيرل بشكل قاطع أن نجمع أولاً بعض الأغصان المقطوعة ونوقد ناراً. قال: «لن أتحمل أية مخاطرات، هنالك دببة، ثمة اثار أقدام ظاهرة هناك وأخرى قريباً من هنا. لا بد لنا من أن نوقد ناراً أو نراقب طوال الليل».

سأل نيكولاس: «وماذا إن رآها الهنود وهاجمونا؟»

قال السيد كيرل شاداً شفتيه: «سيحدث ذلك على أية حال، دع كل شيء لأوانه يا سيد كريغ».

فكرت بالهنود المتفرقين وتمثيلهم الإيمائي المقزز للنفس، فارتعدت. وكنت شخصياً أعتقد أنني أفضل الدببة.

نمنا لوقت قصير جداً، وسرعان ما تخليت أنا ونيكولاس عن محاولتنا لأن ننام وراقبنا ما تبقى من الليل.

بدا كل صوت في السكون المطبق عظيم الشأن. فجأة، ترامى إلى مسمعي الإيقاع الرتيب لحركة مجاديف في مياه الجون. همست مذعوراً: «ماذلك يا نيكولاس؟» عندئذ رأينا كنواً أهلياً للسكان الأصليين يشق صفحة المياه في الظلمة. لقد كان شاغلوه غير مدركين لوجودنا. كان أحدهم يحمل عالياً مصباحاً ملتهباً، بينما وقف آخرون برماح مرفوعة وهم على أهبة الاستعداد، ولدى وقوفهم، ليوجهوا ضربة للسمكة في الأسفل. لقد كان مشهداً يوقع في النفس الرعب بما تميز به من جمال وحشي.

في الصباح التالي، رأينا هنديين يصعدان المضيق في كنو صغير، حيّاهما سولومون بالإسبانية وبدت ردة فعلهما منذرة بسوء، إذ نظرا إلينا ولم يردا التحية، لكنهما جدفا على الفور نحو الشط المقابل. ورأيناهما يرسيان كنوهما على الشاطىء، ويركضان بأقصى سرعة نحو مجموعة الوغوم التي من الواضح أنها كانت سانتا لوسيا.

قال السيد كيرل: «لا يبدو ذلك جيداً».

تنهد السيد ديكنسون وقال: «أخشى أنه كذلك. وقد كنت معتمداً على صداقتهم».

كان السيد بارو جالساً على الرمال وكتبه الضخمة على ركبتيه. قال بلطف: «ليس هذا بالوقت المناسب لليأس يا جوناثان. إن لم يكن بمقدورنا الاعتماد على صداقتهم، فإنه لا زال بإمكاننا الاعتماد على رحمة الله».

قال السيد ديكنسون: «أعلم يا روبرت، أعلم» لكنه أخذ يدَ زوجته في يده وأمسك بها كما لو أنه ما كان ليحررها أبداً.

صرخ ديك ليم بيني فجأة: «انظر! انظر هناك!»

نظرنا جميعاً عبر الجون لنرى حشداً من البدائيين يركضون على نحو جامح هبوطاً باتجاه الشط وهم يلوحون مهددين بالرماح والأقواس والسهام. وثب بعضهم داخل زوارق الكنو وبدؤوا يجدفون باهتياج، بينما اندفع الباقون إلى الماء وأخذوا يسبحون، ولو أننا لم نكن باعث غضبهم الشديد لكان مشهداً رائعاً إلى حد استثنائي.

علق السيد بارو: «إنهم لن يحاولوا رمينا قبل الوصول إلينا، ربما تكون تلك سمة حسنة».

وافق السيد ديكنسون قائلاً: «من الجائز أنها كذلك. مهما فعلنا، فإن علينا ألا نظهر أية علامة تدل على الخوف. ربما تتوقف حياتنا على ذلك».

قال صبي السيد كيرل الزنجي، بن: «لكنني خائف!» ناظراً إلى سيده على نحو مثير للشفقة. «ماذا عساي أن أفعل؟».

استدار السيد كيرل إلى خادمه المخلص، وألقى يده بلطف على كتفه وقد أرهقه وأضناه الأرق والقلق والألم المتواصل من طرفه المكسورة. قال مبّسطاً عليه الأمر: «بن، يا صديقي الطيب، أعتقد أننا جميعاً خائفون. كان الله في عوننا!» بعد ذلك لزمنا الصمت. إن مجرد حقيقة الاعتراف بخوفنا قد هونت علينا تحمل الأمر. وبدا، بطريقة ما ليس بوسعي تفسيرها، كما لو أن الله كان يقف إلى جانبنا في محنتنا تلك. وبرغم ذلك، لا أعتقد بأنني كنت العضو الوحيد في مجموعتنا الذي كاد يصاب بالغثيان من شدة الذعر بينما أرسى البدائيون زوارق الكنو الخاصة بهم على الشاطىء، أو بينما كانوا يخرجون من المياه وقطرات الماء تتساقط منهم مطلقين ولولات مخيفة من الغضب الشديد.

انتصب سولومون كريسون واقفاً وحاول دون جدوى أن يصيح إليهم بالإسبانية، بيد أن صوته غرق في خِضَمٍّ صراخهم الشديد. كانوا

يصرخون: «نيكالير! نيكالير!» بينما توجهوا نحونا عبر الرمال. وابتُلعنا، في لحظة قاسية، في بحر شنيع من الوحشية. لم يكن لدي فكرة عما كان يحدث لأي شخص آخر.

أمسك بي أحد البدائيين من حلقي وآخر من ساقي ومزق ما تبقى علي من ثيابي. لقد خدشوني، ركلوني، ضربوني بجمع أيديهم حتى كدت أفقد الوعي، وبينما تمددت باسطاً ذراعي وقدمي فوق الرمال عارياً أنزف، أدركت أن حال رفاقي كانت تشبه حالي إلى حد بعيد. أما السيدة ديكنسون المسكينة، فقد مُزقت ثيابها عنها وانساب شعرها الطويل منحلاً. كانت تتوسل إلى اثنين من البدائيين ليعتقا رضيعها الباكي حيث كانا يمزقان عنه أغطيته القليلة البالية. رميا به معيدانه إليها، وضمّته هي إلى صدرها وغطته بشعرها.

بعدئذ أخذ الهنود يرقصون من حولنا بصخب مهددين إيانا بأقواسهم وسهامهم، و واخزيننا بحرابهم إلى أن سال الدم منا. بدا وكأنه لن ينقذنا من ذلك سوى حدوث معجزة. لكن لم يكن هنالك من داع للمعجزة، إذ بدا لنا أن ما تعرضنا له كان الإهانة الأخيرة. أما السيد بارو المسكين، فقد طُرح أرضاً وقد جُرِّد من ثيابه من أول مرة انقضوا فيها عليه، كانت كتبه الثمينة ملقاة على الرمال وقد نُزع الغلاف الخلفي لأحدها وتناثرت الأوراق خارجه. وبينما كان يترنح على قدميه، مرتجفاً بفعل الصدمة، انحنى للأسفل ليلتقط بعض الصفحات الممزقةو قدمها للسيدة ديكنسون لتستر بها جسدها. زعق البدائيون منتشين بالمشهد، وأخذوا يلتقطون المزيد والمزيد من الصفحات المتناثرة مطلقين صرخات مرحة، مقدمينها له ومن ثم مبعدينها عنه ثانية ومبعثرين إياها على الرمال. أمسكوا بالكتب، وأخذوا يمزقون الصفحة تلو الصفحة وهم يقدمونها له ويصيحون ضاحكين بينما كانوا يراقبون محاولاته الخرقاء ليستر عريه. بعدئذ، نشلوها منه، وهم يطلقون صرخات ساخرة، وأخذوا يرمون بها على الأرض أو يقدمونها للآخرين وينتزعونها منهم ثانية إلى أن قاموا، في نهاية الأمر، برميها بعيداً وبتجعيدها على شكل كرات، وأخذوا يرشقوننا ويرشقون بعضهم البعض بها ويركلون البقية البالية من الكتب جيئة وذهاباً صائحين بنشوة كمجموعة من القنافذ البرية المصممة على إحداث الأذى. وفجأة أدركت جثوم نيكولاس بالقرب مني:

قال: «يا إلهي، نايجل، انظر إلى الرجل العجوز المسكين!».

كان السيد بارو واقفاً وسط الجلبة، عارياً، ذليلاً، والدم يسيل هزيلاً رقيقاً من الخدوش في جسده، كانت عيناه ملأى بالدموع. غمغم نيكولاس قائلاً: «لا أستطيع تحمل ذلك!» وصل إلى جانب الرجل العجوز بوثبة، وتبعته أنا على الأثر. وضع السيد بارو يديه المرتجفتين على كتفينا، ووقفنا نحن إلى جانبه نساعده على الوقوف. ولم نأبه إن نحن متنا بسبب ذلك.

وفيما بعد، اعتقدت أنه ربما يكون الهنود قد أشبعوا رغبتهم العارمة في الاستهزاء بنا، ومن المؤكد بأن أسوأ جزء من الجلبة قد انقضى.

ويدؤوا بجرنا نحو الشاطىء كما لو أنهم عقدوا النية على نقلنا عبره. دُفع السيد والسيدة ديكنسون وطفلهما بخشونة إلى الكنو الأول ومن بعدهم السيد بارو، ودُفعنا نحن إلى الكنو التالي برفقة سولومون كريسون والسيد الن. كان البدائيون يخزون أجسادنا العارية بحرابهم إن نحن أبدينا أقل إيماءة تدل على المقاومة. لم يكن من المجدي أن نحاول الدفاع عن أنفسنا. جثمنا في قعر القارب وأخذنا نراقب الكنو الذي أمامنا بينما كان يتقدم تدريجياً وباطّراد مقترباً من الشاطىء المقابل حيث كانت تنتظر جمهرة أخرى من الهنود العدائيين رافعة أقواسها وسهامها للأعلى. اندفع بعضهم نحو الماء صائحين: «نيكالير! نيكالير!».

فجأة، ولشدة خوفنا، رأينا الحراس الهنود يثبون خارج القارب ويسبحون نحو الشط تاركين أسراهم العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم تحت رحمة الغوغاء.

همس نيكولاس: «إنهم لن يصلوا الشاطىء أحياء أبداً» ملقياً نظرةً سريعة على حراسنا الذين كانوا جميعاً يقصدون ثورة الغضب القابعة أمامهم. «لو أمكننا الإفلات من هؤلاء الرّجال، دعونا نغطس في الماء ونحاول الوصول إليهم».

قال سولومون: «من المحتمل أن نكون أول من يرمى، لكن الأمر يستحق المحاولة. حظاً طيباً لأي منا يبقى حياً».

وبينما كنا على وشك أن نغطس في الماء، سمعنا صوتاً ذا لهجة جازمة يصيح ملقياً الأوامر. رجل طويل، بدا من الواضح أنه زعيم القبيلة، شق طريقه عبر الحشد وقمع الجلبة. أُمِرتْ نصف دزينة من الهنود بأن تسبح وتحضر الكنو، وراقبناهم وهم يجلبون ركابه، الذين كانوا بلا حول ولا قوة، بأمان إلى اليابسة. وقبل أن يمضي وقت طويل، كان جميع رفاق الرحلة قد جُمِّعوا على الشاطىء. لقد كنا معتمدين بشكل مطلق على رحمة زعيم القبيلة، وعلى قدرته في إبقاء محاربيه المتعطشين للدماء تحت مراقبته. كان بعضهم يستحثه بشكل واضح ليدعهم يقتلوننا على الفور، وبدا البعض كما لو أنهم كانوا يفكرون بتأجيل متعة ذبحنا فقط للاستمتاع بها بطريقة أكثر روية فيما بعد، بينما وقف اخرون إلى جانب زعيم القبيلة وهم على أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامره.

تم سوقنا جميعاً، في نهاية الأمر، على طول الشاطىء باتجاه القرية الهندية، وكان البعض يضربنا ويرشقنا بالحجارة أثناء سيرنا، بينما قام آخرون بالدفاع عنا حتى لو عرّض ذلك حياتهم للخطر. كانت السهام تطير من بيننا، غير أنها لم تصب أحداً بجروح. أصابني جرح حاد في جبيني، وللحظة أعمى الدم السائل عيني عن البصر بعد أن دخل إليهما، لكنني بطريقة أو بأخرى بقيت واقفاً على قدمي، وساعدت نيكولاس في جر السيد بارو العجوز المسكين على طول الطريق. حاولنا أن نحميه من أسوأ ما يمكن أن يصيبه، لكنه كان في وضع يرثى له، كان مصاباً بالدوار ومشوشاً ويغمغم مردداً: «لقد مرت علي كل البحار والأمواج العظيمة، لقد مرت علي كل البحار والأمواج العظيمة!» لقد بدا أمراً قاسياً أن عليه هو، من بين جميع الرجال، أن يعاني على هذا النحو. أخيراً، وصلنا بتثاقل إلى داخل منزل زعيم القبيلة وجثمنا أرضاً شاكرين الله على بقائنا أحياء.

وبينما أخذت أعيننا تعتاد على الضوء الخافت الذي تسلل عبر أوراق البلميط المتشابكة، التي كونت كلاً من السقف والجدران، استطعنا أن نتبين أنه كان كوخاً ضخماً، ومن الواضح أن القبيلة كانت تستعمله كمكان لاجتماعها. كانت الأرضية مغطاة بالأقذار والهوام وتوت البلميط الممضوغ على نحو غير كامل، وكانت الرائحة النتنة طاغية تقريباً. احتشدت من حولنا حشرات بق

وعناكب ضخمة، زاحفة فوق أجسادنا العارية ومشكلة مصدر عذاب بالنسبة لنا. وحين مسحت الدم عن وجهي بظهر يدي، استقر فوقها عدد لا حصر له من المخلوقات المقرفة، وكان كل خدش وجرح في جسدي في وضع مماثل.

غمغم السيد كيرل قائلاً: «بحق الله يا سولومون، انظر إن كان بوسعك إقناع زعيم القبيلة بأن يعطينا مايستر أجسادنا».

كان زعيم القبيلة محاطاً بالهنود يتشاورون، لكن سولومون شق طريقه عبر جمهرة المتفرجين وقدم طلبنا.

ومع ذلك لم يستطع إحضار سوى قطع قليلة من جلد الغزال الخام من أجل النساء، وأحزمة هندية ساترة للعورات لبقيتنا لم تق أجسادنا رغم أنها قد وفرت لنا المظهر المحتشم بشكل واف للغرض وكاف إلى حد بعيد.

لقد كانت من الزي المعتاد، شقوق من القش المجدول المربوطة إلى حزام يثبت عند الظهر بذيل حصان مصنوع من أعشاب كشعيرات كوز الذرة. وحين ارتديناها، نظر سولومون إلى نيكولاس وفي عينيه بريق لا يمكن إخفاؤه، وقال مكشراً: «حين أفكر، بأنني عندما رأيتك للمرة الأولى اعتقدت أنك تبدو سيداً أنيق المظهر!»

ضحك نيكولاس على نحو ودي، لكنني لم أشاركهما المزحة، إذ كنت أعتقد أنه لا يزال يبدو سيداً أنيق المظهر.

أمضينا يومين فوق تلك الأرضية القذرة ذات الرائحة الكريهة. كان الهنود يتحادثون ويدخنون، وكانت أدخنة التبغ ترتفع كثيفة لتمتزج مع الرائحة الكريهة للعرق والقذر في جو الغرفة النتن. ومن وقت لاخر، كان يدلنا صوت هسيس[1] وخرير على أنهم كانوا يُخمّرون الكازينا، مشروبهم المحلي. كان يُحمل للداخل حين يبرد في الطاس الكبيرة التي خُمّر فيها، وكان زعيم القبيلة وأصدقاؤه يشربونه بعد سكبه في أصداف المحار متبعين في ذلك الكثير من الطقوس. وفي المساء، كان يتم تحويل طاس الخمر إلى طبل، إذ كانت تُشد عليها قطعة جلد بإحكام،

---

(١) يهسهس: يحدث صوتاً كلفظ حرف «س» على نحو مستمر.

وكانوا يضربون عليها بعصي في إيقاع رتيب ويهزون أجراساً مصنوعة من ثمار القرع، بينما كانت نساؤهم تغنين بحزن وترقصن.

لم نكن ننام نهاراً أو ليلاً، ورغم أنهم كانوا يحضرون لنا التوت وقطعاً من السمك على أوراق البلميط، فإن القليلين منا أبدوا اهتماماً لأن يأكلوا كثيراً. كان لثمار التوت مذاقاً مقززاً للنفس، حتى السيد ديكنسون قال بأن لها مذاق الجبن الفاسد المنقوع في التبغ.

توسل سولومون إلى زعيم القبيلة مراراً وتكراراً أن يدعنا نمضي، بيد أن كل ما كان يقوله هو بأنه قد أرسل نبأ وصولنا إلى زعيم آيز الذي سيصدر، بعد وقت قصير، دون شك أمراً يتعلق بما يجب فعله بنا كان من الجلي أن زعيم آيزهو الحاكم الأعلى للمنطقة، وكان قدرنا النهائي يتوقف عليه. وبينما جثمنا وسط القذر والدخان وقرع الطبل الكبير المتوعد بالخطر ينبض في اذاننا، بدأنا نزداد قنوطاً أكثر فأكثر. واستلقى المسكين السيد بارو العجوز للوراء منهكاً، وقد تغلغل القذر في شعره الرمادي، نفسهُ يُكاد لا يُحسّ، وأطبقت عيناه الغائرتان بسرعة. لقد بدت تلال ويست مورلاند بعيدة جداً.



الفصل العاشر

الطريق إلى سانت أوغستن



أثناء ليلتنا الثانية في سانتا لوسيا، حين كان الهنود جميعاً يغنون ويرقصون ويشربون الكازينا، وصل فجأة الرسول من زعيم آيز. كان رجلاً طويل القامة، قوي البنية على نحو مهيب جداً، عاري الجسد إلا من الحزام الساتر للعورة الذي يرتدى عادة ومسلحاً بقوس وسهام. نظر إلينا بفضول بينما كنا جالسين محتشدين معاً في زاوية واحدة من الغرفة، لكن لم يكن بمقدورنا أن نتبين من نظرته السريعة ما إذا كان وصوله ينذرنا بالخير أم الشر.

قمع زعيم القبيلة الجلبة الحادثة في الغرفة ووقف بشكل رسمي ليحييه. تم إحضار أصداف المحار وشربا الكازينا سوية ودخنّا بينما كانا يتحدثان. لقد بلغ بنا التشويق حداً لا يحتمل، إذ أن وجهيهما الداكني اللون اللذين لم يظهرا أية تعابير، لم يعطيانا أي إلماح عن فحوى حديثهما. بعدئذ، ودون سابق إنذار، أطلق زعيم القبيلة قولاً آمراً. وقام الهنود الأقرب إلينا، في الحال، بجرّنا بخشونة كبيرة لنقف على أقدامنا، وبدؤوا يدفعوننا بقوة نحو المدخل موجهين إلينا الضربات والركلات بينما كنا نمضي. صرخت النساء في ذعر، وتعلقت كل من السيدة ذيكنسون وهاجر بطفلهما باهتياج شديد وقد تملكهما الخوف أن ينتزعا من أذرعهما في غمرة الاضطراب العام ويسحقا تحت الأقدام.

رأيت ساق السيد كيرل المصابة تنهار من تحته، لكن ديك لم يبني شق طريقه إليه بصعوبة وأمسكه حين سقط. لقد دُفعنا جميعاً بعنف خارج المبنى لنجد أنفسنا محاطين بجموع عدائية. كل ما كان بوسعنا فعله هو أن نحاول البقاء معاً جاعلين الأعضاء الأكثر ضعفاً بيننا في المركز لكي يتسنى لنا حمايتهم بأفضل ما يمكن.

حاول زعيم القبيلة استعادة النظام، لكن لم يكن بالإمكان سماع صوته في الصخب. عندئذ ظهر الرسول القادم من آيز، بمظهر يدل على الثقة، وأمرنا أن نتبعه وهو يفسح الطريق أمامنا بصفرات قليلة وجهها على نحو حسن.

وبينما مررنا عبر الوغوم المحتشدة، أأخذ الهنود يهددوننا ويشتموننا ويرشقوننا بالحجارة، لكن لم يمض وقت طويل قبل أن نترك مضطهدينا وراء ظهورنا، ونبدأ الرحيل على طول الشاطىء بسرعة ثابتة.

في اليوم التالي، وحين بلغت الشمس ذروة السماء، قدمنا إلى ايز. كانت واقعة في مستنقع كبير تظللها أشجار المنغروف [1]. ورغم أنها كانت أصغر من مجموعة أكواخ خشبية مهلهلة، فقد كان واضحاً أنها مكان على قدر كبير من الأهمية. وخرج زعيم القبيلة، وهو رجل مسن تبدو عليه شيء من سيماء الوقار، للقائنا يرافقه بعض رؤسائه. بدا ودوداً للغاية في بداية الأمر، لدرجة أن روحنا المعنوية ارتفعت عالياً. وعد بأن يوصلنا إلى سانت أوغستن بعد وقت قصير جداً، لكن بعد مضي أيام قليلة أدركنا بأنه كان يلعب معنا لعبة القط والفأر.

لو كنا نعلم كم من الأسابيع الشاقة كان علينا قضاؤها في ايز، فإنني أشك بأننا كنا سنقدر على مواجهة الأمر. وإن جاز التعبير فإننا عشنا بينهم، وأحياناً كنت أعتقد بأن حالنا لم تكن أسوأ بكثير من حال الهنود أنفسهم، إذ كانوا مجموعة من الأشخاص الكسالى عديمي الحيلة والتدبير يعيشون عيشة كفاف وسط الأقذار والمشقات.

---

(١) شجر استوائي تنبثق من أغصانه جذور جديدة.

إنهم لم يكونوا يمارسون حتى أبسط أشكال الزراعة أو تدجين الحيوانات، وهكذا كانوا، معتمدين كلية في تأمين طعامهم على ما يمكن للبحر والشاطىء والشجيرات البرية أن تنتجه. وخلافاً لكثير من القبائل الهندية، فإنهم لم يملكوا خبرة في الطب، إذ أن مرضاً من أي نوع كان يثير مرحهم أكثر مما يثير شفقتهم، وكانوا كثيراً ما يضحكون من شخص أصابه البُطاح [1]. أما الشيخوخة فقد كانت موضوعاً للسخرية والازدراء.

ومع ازدياد برودة الجو بشكل مطّرد، ازدادت معاناتنا نظراً لأنه لم يكن لدينا ملابس سوى أحزمتنا الهندية الساترة للعورات وقليل من الأسمال البالية الرثة، وعلاوة على ذلك كنا جائعين حتى الموت. بات الطعام نادراً واحتفظ الهنود بمعظمه لأنفسهم، وهكذا كنا لننبش أكوام القمامة بيأس من أجل فتات الطعام وأحشاء السمك، ومن ثم نمزجها مع الماء الذي طها فيه الهنود سمكهم.

كان الأطفال في وضع يرثى له، تشبث كاجو الصغير بأمه مصدراً أنيناً وهو الذي كان ولداً مرحاً عفريتاً، كان لون جلده رمادياً على نحو ملفت للنظر بغرابته وقد ظهر كل ضلع من ضلوعه، بينما استمر رضيع السيدة ديكنسون في العويل دون انقطاع إلى أن أشفقت عليه بعض النساء الهنديات وأطعمنه وكان، في كل يوم تقريباً، ينهار أحدهم ويصاب آخر بالهذيان وتتعاظم أعراض مرضه على نحو مفاجىء، أو يصاب باكتئاب تشاؤمي. ولم يكن يقتض حدوث ذلك أمر هام. أذكر يوم وجدت موسى حلاقة انكليزية وقد كتب اسم صاحبها، توماس فوستر، بشكل واضح على المقبض. وتساءلت عمن كان توماس فوستر، وعمّ حدث له، وعم إذا كان شخص ما في الوطن يتذكره ان مجرد النظر اليها جعل ديك ليم بيني ينفجر بالغضب فجأة ويتمنى لو يموت. وكان الغريب في الأمر أن السيد بارو كان دائماً على علم بحالنا. لقد كان حاضراً على الدوام مهما بلغ به المرض والضعف.

لم يكن يتفوه بالكثير، إذ لم يكن هناك الكثير ليقال. ورغم ذلك، فقد كان يشجعنا.

لقد أتى علي يوم لم أستطع فيه ابتلاع السائل الرمادي المقرف الذي دعوناه بالطعام. جلست محاولاً التقيؤ أرتجف برداً، وعندئذ أمسكني نيكولاس فجأة من

(١) هذيان الحمى.

كـتـفيّ، وجـذبني لأقف على قـدميّ. هتف قـائلاً: «أصـغ يا نايجل! هل يمكنك سماعه؟ إنه صوت إطلاق نار!» وتحولت آيز، على الفور، إلى مايشبه تلة نمل مضطربة، إذ تراكض الهنود جيئة وذهاباً صـارخين «إبانيا! إبانيـا!» وكـان زعيم القبيلة يصدر الأوامر التي بدا أن أحداً لم يلق لها بالاً. استدعى سولومون وأخبره بأن علينا التجمع على الشاطىء. قال بحزم: «من الجيد أننا عاملناكم على نحو حسن جداً!» وعاد سولومون إلينا بابتسامة ساخرة على وجهه المنهك ليخبرنا بأن نصطف من أجل استعراض عسكري للهياكل العظمية. وسرعان ما ارتفع في مرمى النظر مركب اسباني مسطح القعر ذو صاريين، وأرسل الهنود صرخة ترحيب شاركنا بها بحماسة. كان على متن المركب عشرة جنود مع ربانهم، وفور إرسائها وثب الربان خارجاً منها ليحيينّا هاتفاً بأنه سعيد لوصوله في الوقت المناسب ليجدنا أحياء. قال: «إسمي سيباستيان لوبيز، في خدمتكم أيها السادة!»

فيما بعد، شرح الربان لوبيز بأنه قد أرسل به من سانت أوغستن من قبل الحاكم الذي سمع من بعض رسل محليين بأن سفينة قد تحطمت على الساحل باتجاه الجنوب، وأن طاقم السفينة والركاب مهددون بالموت.

لقد كانت أوامر الحاكم واضحة. كان من الواجب إنقاذ من وُفقّوا إلى بلوغ الشاطىء مهما كانت جنسيتهم».

كان القبطان لوبيز رجلاً ذا حزم. وقد أدهشنا، في وضعنا الضعيف، أن نرى أي شخص يتصرف بتلك القوة والتصميم. أجبر زعيم القبيلة على توفير كنوين مأهولين بأربعة من رعيته، وأمر باستعادة وإصلاح القارب الطويل على الفور.

كان على المركب المسطح القعر ذي الصاريين أن يُقلنا لجزء من الطريق قبل أن يعود ليستطلع الساحل قرب مكان حطام سفينتنا، وكان على أحد الإسبانيين وحارس هندي أن يكملا معنا كامل الطريق إلى سانت أوغستن.

جمع زعيم القبيلة رؤساءه، وودعناهم وداعاً رسمياً بقليل من الأسف. لقد كانت آيز شبيهة بالقبر لنا، فلم نرغب في التريث في البقاء هناك.

تقدمنا باتجاه الشمال وفق مراحل بطيئة وشاقة، وتخللت الخلجان الصغيرة والجُون [1] والمجاري المائية الداخلية الساحل الذي كان علينا اجتيازه صعوداً، ونحن نقاسي ميلاً بعد ميل من السبخات والمستنقعات الغادرة.

وأحياناً، كان لابد لنا أن ننزل من القوارب ونسحبها فوق اليابسة من مجرى مائي إلى آخر. وعلى الرغم من أننا كنا قد اعتدنا إلى حد كبير، قبيل ذلك الوقت، على السير حفاة، إلا أنه سرعان ما جُرحت أقدامنا ونزفت، إذ كانت الأرض واخزة بما فيها من أشجار خفيضة وأشواك، وكان من الشاق متابعة الطريق. وبعد أن غادرنا المركب المسطح القعر ذا الصاريين، مضينا حتى على نحو أبطأ، إذ أن الهنود الأربعة الذين رافقونا هربوا مع زوارق الكنو، ولم يكن هناك متسع لنا جميعاً في القارب الطويل. وعلى الرغم من ذلك، فقد واصلنا تقدمنا بجهد كبير تارة بطريق البر وتارة أخرى بطريق البحر، تضربنا الريح والمطر بسياطهما في النهار، ويجمدنا الصقيع حتى العظام في الليل. لم نكن نجرؤ على الاستلقاء أرضاً لننام ونحن عراة تماماً، لكن كنا نشعل ناراً كبيرة ونستدير حول أنفسنا ببطء أمامها كما الدجاجات المشكوكة على السفّود، أو كنا نتكيء على بعضنا البعض وقد أنهكنا التعب، وهكذا ننام ونحن واقفون. وأتى أسوأ الأيام جميعها حين صرنا، أخيراً، على مقربة من سانت أوغستن.

أعتقد أن ذلك ما جعله أكثر الأيام شقاء. لقد تحطمت سفينتنا ونُهبنا، رُشقنا بالحجارة وعُذّبنا، قطعنا مائتي ميل شاقة مسافرين عبر البحر، عبر اليابسة، وعبر الأنهار؛ قاسينا عذاب الجوع والعطش ودرجات الحرارة العالية جداً والمنخفضة جداً؛ وبعد أن قاسينا كل تلك الأشياء، بدا الأمر كما لو أنه لا بد لنا أن نموت على مرأى من هدفنا.

بعد أن قضينا ليلة شديدة البرودة، استقبلنا النهار منهكي القوى. كان على الجميع الآن أن يسيروا براً، لأن القارب الطويل لم يعد يستطيع المضي إلى أبعد من ذلك وكان علينا مغادرته. وبعد أن واصلت الحراسة أنا ونيكولاس، كان كلانا قد تجمد من البرد حتى عظامه. لقد كنا في وضع لا يؤهلنا للشروع حتى برحلة غير

(١) مفردها جُونٌ: الخليج الصغير.

شاقة، ورغم ذلك، كان علينا، من أول ميل تقريباً، الخوض في مستنقع ضخم كانت تغوص فيه أقدامنا في كل خطوة نخطوها، وشعرت بأن هذا الوعث الذي نخوض فيه هو بقدر رداءة الوعث الموجود في الوطن، وتساءلت عن الطريقة التي سننسحب بها أنفسنا خارجه ثانية إن حالفنا الحظ السيء وسقطنا في الوحل. لم تكن أسناني لتتوقف عن الاصطكاك، وحين وصلنا آخر الأمر الأرض الصلبة ثانية، سقطت خائر القوى أرتجف في كل جزء من أوصالي. جذبني نيكولاس لأقف على قدميّ ثانية.

قال بحدة: «انهض يا نايجل. علينا مواصلة السير».

قلت: «وما الفائدة يا نيكولاس؟»

قال حاضاً إياي: «حافظ على شجاعتك، لا يمكننا أن نستسلم الآن».

غمغمت قائلاً: «ومن قال بأنه لا يمكننا؟» لكنني مع ذلك واصلت التقدم بصعوبة إكراماً لنيكولاس. امتد طريقنا على طول شاطىء أجرد عصفت به ريح شمالية شرقية كانت شديدة إلى الدرجة التي لم نستطع الوقوف في مواجهتها إلا بصعوبة كبيرة. لقد شعرت من قبل بريح باردة تهب عبر الخليج المتجمد قادمة من التلال الثلجية، لكن هذه كانت أكثر برودة وأكثر شدة من أي شيء جربته أو تخيلته في حياتي.

لم أستطع الوقوف مستقيم القامة أو حتى أن أرى الاتجاه الذي كنت ماضياً فيه. سقطت أرضاً المرة تلو الأخرى، وكان علي أن أزحف على يديّ وركبتيّ إلى أن جذبني نيكولاس لأقف ثانية على قدميّ، وهو الذي لم يكن يستطيع الوقوف إلا بصعوبة شديدة. لم نعد نرى بقية الرفاق، وكان من المستحيل لأي منا أن يبقى مع المجموعة في تلك العاصفة الشديدة القوة. تبعثرنا فرادى ومثنى وثلاث على ذلك الشاطىء المهلك، زنوجاً وبيضاً، رجالاً ونساء، صغاراً ومسنين، يجمعنا معاً شيء واحد فقط، وهو أن الرفيق نفسه، الموت، كان يمشي ببطء إلى جانب كل منا. وقد أتى عليّ وقت وصلت فيه إلى مرحلة لم أعد أستطيع فيها المضي لمسافة أبعد.

وانزلقت، للمرة الأخيرة، على يديّ وركبتيّ ساقطاً على الأرض ولم أستطع النهوض. لم أكن أريد النهوض، لقد كنت قد جررت نفسي حتى ذلك الوقت فقط من أجل نيكولاس.

قلت لاهثاً: «تابع أنت يا نيكولاس!»

كان نيكولاس جاثماً على ركبتيه إلى جانبي يفرك أوصالي محاولاً تنشيطها لتتحرك.

قال: «لن أتركك يا نايجل» وما كان لشيء مما استطاع فعله أن يعيد الحياة ثانية إلى أوصالي المتجمدة.

سحبني في نهاية الأمر بيأس إلى حِمى ضفة عالية ردت عنا معظم الرياح. ولم يعد من المريح سماع ذلك العزيف المستمر للريح في آذاننا. أردت النوم. صرخ نيكولاس: «توقف عن ذلك!» وصفع وجهي بقوة.

تمنيت لو أنه يتركني وشأني ويدعني أموت في طمأنينة. إلا أنه بدأ يضربني ويهزني إلى أن فتحت عينيّ وحاولت الاحتجاج. عندئذ أوقعني فجأة، وأشار نحو الشاطىء وهو يصرخ: «يا إلهي، نايجل! انظر إلى ذلك!»

لقد كان ذلك السيد بارو العجوز المسكين. كان يشق طريقه للأمام بصعوبة وبصبر في تلك العاصفة الشديدة الرياح. كانت يداه المرتجفتان ممدودتان للأمام وقد انحنى رأسه الأشيب، وهو يجر قدميه متعثراً في مشيته.

لست أدري ما الشيء الذي كان في المشهد الذي جعلني قوياً، كل ما أعرفه هو أنني بِتُّ واقفاً على قدميّ تقريباً قبل نيكولاس. صحنا له، لكنه لم يسمع. آنذاك شققنا طريقنا نحوه، بيد أنه لم يرنا. وفي اللحظة التي أدركناه فيها وأحطناه بأذرعنا قبل أن يسقط، كان لدي انطباع بأن الله قد ساعده في المشي على قدمين متعثرتي الخطى وكان إلى جانبه في غمرة كربه، وإلى هذا اليوم لدي ذلك الانطباع.

أدركت فيما بعد، أنا ونيكولاس بأن السيد بارو وهو في ضعفه قد أنقذ حياتنا، لكن في ذلك الوقت لم نكن مدركين لسوى تصميمنا العنيد على ألا ندع الرجل العجوز يموت. وحين ألتفت بذاكرتي إلى تلك الحادثة، أوشك على الابتسام حين أتذكر كيف كافحنا معه حاثين إياه على التقدم للأمام، وجاذبيته للأعلى حين كان يقع أرضاً، ساحبينه بيننا عندما كانت تنهار ساقاه المرتجفتان. كنا قد نسينا أنفسنا تماماً لكي ندرك لِمَ كنا نقوم بذلك، أو لنظهر له أي تساهل. بَدونا في الحقيقة، وكأننا نعامله معاملة مهينة على نحو غبي غير معقول في كل مرة كنا نجذبه فيها لنعيده من العالم الآخر الذي كان من الواضح أنه متجه إليه.

رأيت في إحدى المرات امرأة شجاعة سقط طفلها في الخليج عندما كان المد عالياً، وقد تم البحث عنه، كما كان واضحاً، إلى أبعد حد ممكن وصل إليه في الماء، فلم يكن منها إلا أن هاجمت الطفل وصفعته بضراوة أدهشتني في حينها. أما الآن فأدرك لم كان ذلك أفضل للأم وكذلك للطفل تماماً كما كان من الأفضل لثلاثتنا بأننا أنا ونيكولاس كان علينا الاستمرار في ذلك الإرهاب الذي لا معنى له بالصياح في وجه رفيقنا الورع على ذلك الشاطئ الجنوبي المحتوم علينا اجتيازه.

وبعد وقت طويل من هبوط الليل، حين كنا قد فقدنا شعورنا بالاتجاه أو هدفنا أو ذاكرتنا أو إرادتنا في أن نعيش، عثر علينا في وسط الظلمة جندي إسباني ودود، وقام بجذبنا إلى مكان آمن.

كنا قد وصلنا إلى أول معسكر من معسكرات الحراسة الثلاثة الواقعة بيننا وبين سانت أوغستن.

وهناك، أمامنا وبعيداً عن متناول يدنا، كان الأمان؛ وخلفنا وعلى ذلك درب الآلام الذي رحلنا على طوله، استلقت الجثث المتيبسة لأربعة من رفاقنا، من ضمنها السيد الن المسكين، الذي انتهت عذاباته .ــــ» إذاً، أهم هائنون لأنهم أموات».

أمضينا تلك الليلة في أجمة تقع خلف المخفر الأمامي، متحلقين حول نار متقدة. كان كوخ الحارس صغيراً جداً، غير أن الجنود أخذوا السيد بارو للداخل، وكذلك السيد والسيدة ديكنسون وطفلهما اللذين كانا قد شقا طريقهما بصعوبة قبلنا بوقت قليل. كان الطفل جائعاً جداً ومصاباً بالبرد، وبصعوبة كان يمكنه النجاة لليلة أخرى في العراء. كنا نملك دليلاً محزناً على أن الأمر كان كذلك، لأننا حين وصلنا معسكر الحراسة الثاني في اليوم التالي، سمعنا بأن هاجر قد وُجدت على الشاطىء هناك أثناء الليل. كانت على قيد الحياة لكن منهكة القوى، تحمل كاجو الصغير ميتاً على ظهرها. أرونا قبره، وقام نيكولاس بصنع شكل تقريبي للصليب ليضعه عليه.

لم يكن قد مضى وقت طويل منذ كان كاجو يلعب تحت الشمس على ظهر سفينة الريفور ميشن، ورغم ذلك، فيالها من هاوية تلك التي تكمن بين ما كان عليه في ذلك الوقت وما هو عليه الآن. خطرت ببالي، ومن تلقاء نفسها، الكلمات التي كنت قد سمعت ابنة العم إيزابيل ترددها:

«لا تخف بعد الآن حرارة الشمس، ولا ثورات رياح الشتاء الغاضبة.

مادمت قد أنجزت مهمتك في الدنيا ــــ».

لكن المهمة استغرقت وقتاً قصيراً على نحو يستدعي الشفقة إلى حد بعيد.

على الرغم من تعبنا الشديد، فقد تمكنا من إنجاز بقية الرحلة مشياً على الأقدام، وهؤلاء الذين لم يكونوا قادرين أبداً على الرحيل، بقوا عند معسكر الحراسة الثالث على أمل الحصول على وسيلة نقل ما لاحقاً، لكن بقيتنا تابع تقدمه بصعوبة.

عاملنا الجنود الإسبان الذين احتلوا المعسكر معاملة حسنة، وأعطونا أفضل ما لديهم من طعام ومأوى، ولم يكن بإمكاننا تجاوز حدود اللياقة مقابل حسن ضيافتهم، وكذلك هم لم يكن بوسعهم. تحمُّل أعداد كهذه.

وانطلقنا، تحت قيادة السيد كيرل، في آخر المراحل المرهقة لرحلتنا خائضين مستنقعات، ومجتازين تلال رمل في مشي مجهد إلى أن قدمنا، في نهاية الأمر، إلى جون عريض ورأينا على الجانب الآخر البيوت البيضاء لسانت أوغستن. لقد كان ذلك أكثر مما استطاع بعضنا تحمله. لقد رأيت بحارة أقوياء، شديدي البأس، تنهمر الدموع أسفل وجناتهم.

انطلقت قوارب من الشاطىء المقابل استجابة لإشاراتنا، وحين وصلوا إلى مرمى السمع، أخذوا يصرخون لنا بكلمات التشجيع. لم نضيع وقتاً في ركوب متن القوارب. فهؤلاء الذين كانوا أضعف من أن يركبوا متن القوارب دون مساعدة أحد، حملهم الجنود الإسبان بلطف، كان له كبير الأثر في قلوبنا. انتظرنا على الشاطىء المقابل حاكم سانت أوغستن وجنوده مصطفين من حوله. وعزف بواقوه لحناً قصيراً بينما كنا نقترب، ونسينا بأننا كنا عراة ومتقرحي الأقدام من كثرة المشي، ونتنزف وفاقدي الحس بسبب البرد، لأن أمة أبية كانت تبدي مظاهر الحفاوة والتكريم لأمة أخرى في تقيّدها بذلك القانون المقدس الذي تخضع له جميع الأمم.

مدّ الحاكم كلتا يديه للأمام مستقبلاً السيد كيرل بينما تقدم بصعوبة نحو الشاطىء، وعندئذ انتهت كل مظاهر الرسميات، إذ اندفع سكان سانت أوغستن للأمام على نحو جماعي يساعدوننا في النزول من القوارب، لافين من حولنا أغطية ومعاطف، ويرجوننا أن نقبل استضافتهم لنا في بيوتهم.

أُخذنا في بداية الأمر إلى منزل الحاكم حيث تم تزويدنا باللباس والطعام. وبعدئذ، تم توزيعنا بين السكان الذين تنافسوا جميعاً مع بعضهم البعض على شرف إيوائنا. أرسل الحاكم مركباً مسطح القعر ذا صاريين إلى أولئك الذين بقوا عند معسكر الحراسة الثالث، وصرّح بأنه لن يرتاح إلى أن يكونوا هم أيضاً في أمان.

أمضينا حوالي أسبوعين في سانت أوغستن. كنا جميعاً بحاجة للراحة، وعانى الكثيرون من المرض، يعزى بعض ذلك إلى المشقة التي قاسيناها، وبعضه

كان كنتيجة للانتقال السريع من الموت جوعاً إلى الوفرة النسبية للطعام. وكان المسكين السيد بارو العجوز مريضاً جداً، والقليلون منا اعتقدوا أنه سيغادر سانت أوغستن على قيد الحياة. إلا أنه أكد لنا بأن الله أخبره أنه بإمكانه أن يُرقد عظامه بين أصدقائه، وذلك أكثر ما كان يرغب فيه في ذلك الوقت، لقد كنت أعتقد بأنه، في أي مكان يموت فيه، سيكون مع أصدقائه.

كان جنود سانت أوغستن الأقوياء يطؤون الأرض برفق حين كانوا يمرون بمثواه المؤقت مخافة أن يقلقوا راحته، وقام أحد الرهبان الإسبانيون بإحضار أفضل قمصانه الكتانية له، وساعده بلطف بينما قام هو بارتدائه. تأثر الرجل العجوز على نحو بالغ، وغمغم بشيء عن كوننا عباد إله واحد» إن أنتم أحببتم بعضكم بعضاً».

قال نيكولاس، فيما بعد، بينما كنا جالسين في البستان الكبير التابع للمنزل حيث أقمنا بشكل مؤقت:

«أتمنى لو كنت هناك لتراهم يا سولومون»

وهدأت العاصفة التي كانت قد أنزلت بنا البلاء على هذا النحو، وكانت أشعة الشمس دافئة جداً والطبيعة المحيطة بنا جميلة جداً لدرجة اعتقدنا فيها أن فلوريدا هي بلد جميل جداً لو لم نقاسي قدراً سيئاً كهذا هناك. هز سولومون كتفيه مستهجناً وقال بأنه من المؤسف أن جميع الكاثوليك والبروتستانت ليسوا كذلك، وكنا نوافقه الرأي.

أضاف نيكولاس قائلاً: «لكنهم سيكونون كذلك لو استطاع الملك جيمس أن يفعل ما يريد».

سأل سولومون: «لكن هل سيكونون كذلك إن هو استلم زمام السلطة بشكل فعلي؟»

أجاب نيكولاس: «بالطبع»

علق سولومون بطريقة جافة: «إن ثقتك به لعظيمة»

قال نيكولاس موافقاً: «هذا طبيعي، لا بد للمرء بالتأكيد أن يضع ثقته فيمن يحب، لا يهمني إن كان ذلك ملكاً، صديقاً أو امرأة. لا شيء من هذا يهم».

سأل سولومون: «وماذا إن خان الحب ثقتك به؟»

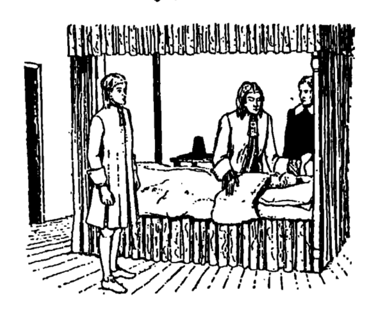
هز نيكولاس رأسه وقال: «هذا لايصدق، لكن حتى في ذلك الحين ستبقى هنالك، في المستقبل كما في الماضي، ثقة المرء بنفسه».

كنت أعتقد أنني أدرك طبيعة الأمر على نحو أفضل. كنت أعتقد أنني وقد قاسيت الكثير في صغري من جرّاء خيانة الناس لثقتي بهم، لن أعرّض نفسي على الإطلاق للأذى الأشد خطورة بأن أثق بأي شخص مهما كانت درجة حبي له. إنني بالتأكيد لن أثق بملك، وبشكل أكثر تأكيداً أيضاً بامرأة. أما فيما لو كان بوسعي على الإطلاق أن أثق بصديق، فربما يتوقف ذلك على نيكولاس نفسه ليقوم بإثباته.



الفصل الحادي عشر

بلدة تشارلز



تعهد السيد ديكنسون بكافة الترتيبات من أجل مغادرتنا لسانت أوغستن، وقد حصلنا على قرض من الحاكم من أجل سد حاجات يمكن أن نشتريها، وكذلك من أجل المكافآت الواجب دفعها للقبطان لوبيز ورجاله.

وافق الحاكم على تزويدنا بمرافق وزوارق كنو لتأخذنا إلى بلدة تشارلز في كارولاينا الجنوبية، ورغم أنه قد بدا أن علينا توقع رحلة طويلة وشاقة في ذلك الوقت من السنة، فقد تم القيام بكل ما أمكن لحمايتنا من خطر أية بلية أخرى.

وحين تم ترتيب كل شيء، قصدنا السيد ديكنسون في مثوانا المؤقت ليسأل إن كان بمقدور نيكولاس أن يمنحه ضماناً لتسديد نصيبنا من التكاليف في وقت ما لاحقاً.

قال نيكولاس: « سيسعدني أن أفعل ذلك يا سيدي. أخشى بأنني لا أستطيع أن أدفع لك شيئاً إلى أن نصل فيلادلفيا، إذ أننا فقدنا كل ما كان بحوزتنا في تحطم السفينة، إلا أنه لدينا اعتماد أكثر من كاف لدى السيد إلياس ويث مان بواسطة السيد فراير، إن كان بمقدورك الانتظار حتى ذلك الحين».

أومأ السيد ديكنسون قائلاً: « سيكون ذلك مرضياً. وفيما يتعلق بالرحلة إلى فيلادلفيا، فسيكون من دواعي سروري أن أقدم لكما خدمة، إن سمحتما لي بذلك. إني أدين لك ولنايجل لعنايتكما بروبرت بارو».

وتردد نيكولاس ثم قال في آخر الأمر: «سيد ديكنسون، أشعر بأنني أدين لك بشيء ما أيضاً. إنني أدين لك بتفسير».

علق السيد ديكنسون: «إنني لم أطلب أي تفسير يا صديقي».

قال نيكولاس: «إن ذلك يزيد من التزامي فحسب، يا سيدي. لقد قمت بالترتيب من أجل رحلتنا بالبحر مع أن ذلك لم يكن مريحاً لك أنت نفسك، وذلك ببساطة لتتفضل بمعروف على عضو آخر من أبناء طائفتك. لقد تبين لي بأنك تمارس الصراحة والصدق كجزء من دينك، ولهذا فإنني أشعر بأن علي أن أكون صريحاً وصادقاً معك.

إنني هنا في مهمة سرية، وهي مهمة ما كان علي أن أنغص عليك بسببها لو أن رحلتنا كانت تبشر بالخير.

لكن الآن ومن المحتمل أن نصل بأعجوبة تستغرق حوالي تسعة أيام، أُحسّ بأن عليك أن تعلم بها لأنه ربما يكون الأمر في غير مصلحتك إن حالفني سوء الطالع وانكشف أمري».

قال السيد ديكنسون: «لقد كنت صريحاً معي وسأكون صريحاً معك على حد سواء. إنني لا أحب أن أتدخل في مكيدة لا تعنيني».

ابتسم نيكولاس وقال: «ولا أنا يا سيدي. وعلى الرغم من ذلك، فأنا تابع مخلص لجلالة الملك جيمس، ولقد قدمت لأرى كيف تزدهر شؤونه على هذا

الجانب من الأطلسي. إنني أقوم بالرحلة على مسؤوليتي الخاصة لكن مع علم جلالته بها، ومن الصائب إذن أن يكون لك علم بها».

هز السيد ديكنسون رأسه ببطء وقال: «كنت أتمنى لو كنت هنا في مهمة أخرى. ومرة ثانية، لأكن صريحاً معك، فإن صديقنا ويليام بين كان ولا يزال موضع شك بسبب صداقته لجيمس ستيوارت. إن وجودك في بنسلفانيا لن يؤدي إلا إلى الإضرار به إن كان أمر وجودك معروفاً بشكل عام».

قال نيكولاس موافقاً: «بالضبط يا سيدي. حسناً ـــ هل هناك ضرورة ليكون أمر وجودي معروفاً بشكل عام؟»

نظر السيد ديكنسون إليه بارتياب وقال: «إنني لا أفهم قصدك».

قال نيكولاس: «أقترح بأننا حين نفترق عنكم في بلدة تشارلز فإن عليكم أن تنسونا يا سيدي. سوف نتذكر لطفكم ما حيينا. وذلك الجزء الضئيل لدينكم علينا، الذي يمكن حسابه، سوف يتم تسديده من خلال السيد ويث مان في فيلادلفيا. لكننا لن ندعي معرفتكم، وكذلك لا حاجة بكم للإشارة إلى وجودنا معكم. صدقني يا سيدي، سيكون الأمر أفضل كذلك، لكم ولنا».

تردد السيد ديكنسون ثم قال: «ربما يكون كذلك أفضل بالفعل. ومع ذلك، أعتقد أن من واجبي تحذيرك بأنه ليس من المرجح لمهمتك أن تنجح».

سأل نيكولاس: «ولم؟»

قال السيد ديكنسون: «لقد تحجرت المشاعر تجاه الروم الكاثوليك في كل مكان من المستعمرات. حتى هؤلاء الذين لا يزالون مخلصين لجيمس ستيوارت فإنهم نادراً ما يساندون دينه. فإن هو استبقاه، وإن استبقاه ابنه، فإن هناك فرصة ضعيفة بأن يُترجم الولاء نفسه إلى فعل ـــ ومع ذلك فإن الفرصة ستكون أضعف إن هم استمروا في اعتمادهم على ملك فرنسا. إذا وسع الفرنسيون نفوذهم في وادي المسيسبي، وجميع الدلائل تشير إلى أنهم ينوون فعل ذلك، فإنه من المحتمل أن يتم احتواء مستعمراتنا بين الفرنسيين الكاثوليك والإسبان الكاثوليك.

إن ما يُفزع في هذا الأمر هو الهدف الواحد الذي يمكنه أن يجمعهم في الوقت الحاضر، وبقدر ما يستمر هذا الأمر المفزع فإن من المحتوم لقضيتك أن تقاسي».

ضرب نيكولاس إحدى قبضتيه بالأخرى بقوة ونفاد صبر ثم سأل: «لم لا يستطيع رجال من كل العروق والأديان أن يعيشوا معاً في سلام في العالم الجديد؟»

ردد السيد ديكنسون: «حقاً، لماذا؟ تلك هي الفكرة التي يسعى ويليام بين إلى إرسائها، لكن ليس بإمكان مهمتك إلا أن تعوق عمله. ألست مدركاً بأنه حين أسس بنسلفانيا قام أعداؤه بنشر إشاعة بأنه كان يسوعياً [1]، وبأن مستعمرته كان لا بد لها أن تكون قاعدة لعمليات الروم الكاثوليك ضد البروتستانتيةفي العالم الجديد؟ إن اكتشاف عميل سيتوارتي في فيلادلفيا يمكن أن يعيد الحياة إلى جميع الافتراءات القديمة وأن يثير ألسنة الأشرار لتتحرك».

قال نيكولاس: «إذن لا تدع أمري ينكشف. يعلم الله أنني لا أرعب في إثارة المتاعب للسيد بين أو أي شخص آخر».

قال السيد ديكنسون فجأة: «أخبرني يا صديقي، هل لك أن تفكر في مسألة التخلي عما تقدمه من خدمة حالياً والاستقرار في بنسلفانيا؟ إن صديقنا ويليام بين قد بدأ بالفعل بتنفيذ تجربة مقدسة، كما يسميها، لكن تأتي أوقات يقوم فيها إما باختيار رجال ليسوا بالجيدين ولا بالرديئين، أو أنه يستخدمهم لقلة وجود من هم أفضل. وبصريح العبارة، إن وضع أفكاره موضع التنفيذ يتطلب شجاعة وولاء أكثر مما يمكن لبعض رجاله أن يكونوا مستعدين لتقديمه».

قال نيكولاس: «ربما يكون الأمر كذلك إلى حد بعيد. لكن ولائي هو في الدرجة الأولى للملك».

قال السيد ديكنسون مستفهماً، ناظراً إلي بوقار: «وماذا عن ولاء نايجل؟»

أجبت: «إن ولائي هو لابن عمي».

---

(١) يسوعي: عضو جمعية دينية للرجال أسسها القديس أغناطيوس ليولا عام ١٥٣٤.

قال السيد ديكنسون منهياً حديثه: «دعني إذن أقل شيئاً واحداً قبل أن نقفل هذا الموضوع بيننا. إن أصبحت في حلٍّ من ولائك في يوم من الأيام، فهل ستذكر بأن هناك من يحتاجه في بنسلفانيا؟»

أكد له نيكولاس: «سأذكر ذلك يا سيدي، بالفعل. ومهما كان القدر يخبىء لنا، فإنه لمن دواعي سروري أننا التقينا في دروب الحياة». تصافحا بحرارة، وبعدئذ استدار السيد ديكنسون نحوي وأخذ يدي. ارتسمت على وجهه نظرة حائرة كما لو كان غير متأكد تماماً مما عليه أن يقول لي، وتذكرت تلك الأوقات حين رأيت تلك النظرة على وجهه من قبل واحترمته أكثر لأجلها.

قال فجأة: «تذكر!» وبعدها انصرف. وتساءلت لم أعتقد بأنه كان عليه أن يودعني مذكّراً إياي بتلك الأشياء التي قمنا بها سوية.

غادرنا سانت أوغستن في نهاية تشرين الثاني. لقد كانت فترة ما بعد ظهر مشمس، وبدا المكان جميلاً جداً، بمنازله الصغيرة المكسوة بالجص تتألق بيضاء تحت أشعة الشمس ما بين بساتين البرتقال والليمون. وكان من الصعب علينا أن نصدق أنه قد مضى أكثر من أسبوعين مُذ تقدمنا بصعوبة في مواجهة تلك الريح العاتية لنصل إلى هنا. تجمعنا كلنا على الشاطىء، ونزل الحاكم ليشيّعنا ونحن نصعد إلى القوارب.

ابتسم على نحو رسمي حين شكرناه بلطف ثم قال هازاً رأسه: «حين تعودون جميعاً إلى أهلكم آمنين، سوف تنسوني، أيها السادة».

أبدينا جميعاً احتجاجنا، وبناء على طلب من السيد ديكنسون، ألقى سولومون كريسون خطاباً بالنيابة عنا بالإسبانية السَّلسة صرّح فيه بأن علينا الاعتزاز بذكرى لطفه طوال حياتنا وأننا نأمل، بالمثل، أن نَساعد أياً من أبناء بلده ممن هم في محنة أو خطر.

انحنى الحاكم وشكرنا قائلاً: «سيكون من دواعي امتناني أن تبقوني في ذاكرتكم أيها السادة. لكن إن لم تفعلوا، وإن أنتم نسيتموني حقاً، فإني أعيش على اليقين والأمل الأكيد بأن الله لن ينسى».

تمايل السيد بارو بخطوات متعثرة متجهاً نحو رصيف الميناء، وكان في ذلك الوقت يزداد ضعفاً باطّراد، وأسرع الراهب المسن ليضع ذراعه من حوله ويساعده في الصعود إلى القارب.

قال: «فليباركك الله في رحلتك».

قال السيد بارو متوقفاً عند رصيف الميناء وناظراً في الوجه الوديع للراهب العجوز: «أعتقد أنها ستكون رحلة طويلة جداً يا صديقي».

قال الراهب راسماً بيده الصليب على صدره: «فلتكن كذلك. أعتقد بأن الرحلة نفسها تمتد أمامنا نحن الاثنين يا صديقي».

فكرت كم كان الرجلان المسنان قريبين جداً من بعضهما، وكم كانت ثقتهما بالله راسخة. وتذكرت بأن السيد بارو لم يظهر أية علامة للخوف في أي طور من أطوار رحلتنا المليئة بالمخاطر، وكنت أعلم بأنه سيبقى كذلك حتى النهاية.

امتد طريقنا على طول ساحل يوقع في النفس شعوراً بالرضا والابتهاج أكثر من الذي سرنا فيه في السابق. كان الهنود أكثر تمدناً، والكثيرون كانوا مسيحيين. كانوا يزرعون الذرة والخضار، ويربون الخنازير والطيور الداجنة، وكانت منازلهم تبدو في حالة جيدة ومتينة بالمقارنة مع الوغوم والأكواخ البائسة التي اعتدنا عليها. وحتى عندما كنا نضطر لأن نبيت في العراء، كانت حالنا أفضل مما كانت عليه في المراحل الأولى في رحلتنا، إذ كان هنالك أخشاب بكميات وفيرة تمكنا أن نشيد بها ملتجآت ووقاءات من الريح وأن نوقد منها النار. أحياناً كان من الصعب إيجاد الطريق، وكان الجو عاصفاً في أغلب الأحيان، لكن بعد ما مررنا به من تجارب كانت الأحوال تسير بسهولة ويسر، وقلقنا الوحيد كان من أجل السيد بارو الذي كان عليلاً جداً لدرجة أننا ارتبنا كثيراً في أن يصل إلى بلدة تشازلز حياً.

كان نادراً ما يشكو رغم أنه كان يقاسي الشيء الكثير من البرد لدرجة بدا أنه لا توجد نار تستطيع تدفئته.

بدا أن القشعريرة، بحق، كانت تأتي من داخل جسمه ولم يعرف أحد منا كيف السبيل إلى مساعدته.

احتفل الإسبان، في الرابع عشر من كانون الأول، بليلة عيد الميلاد لديهم. لقد كانت ليلة عاصفة، وكنا قد اتخذنا ملجأ لنا في غابة طويلة الأشجار أشدنا لأنفسنا تحتها أكواخاً ووغوماً لنتجنب المطر. كانت كمية الطعام لدينا أقل مما يكفي لعيد ديني، غير أن الإسبان مضوا يطوفون من كوخ إلى كوخ منشدين ترانيم الميلاد، وأعطاهم الهنود هدايا. بعدئذ طاف الهنود بدورهم منشدين ترانيم الميلاد، وأعاد الإسبان لهم هداياهم ثانية. كانت الهدايا نفسها تروح وتأتي، ونفس ترانيم الميلاد كانت تُغنى مرة بعد أخرى، وبدت تلك طريقة غريبة للاحتفال بعيد الميلاد رغم أنها كانت طريقة لا بأس بها.

لم يشارك الصاحبيون في الاحتفال، لكنني شاركت أنا ونيكولاس بسعادة في غناء ترانيم الميلاد التي غنوها متنقلين من منزل إلى اخر في القرى الواقعة حول الخليج؛ «هاقد أتينا ننتقل من منزل لاخر، منشدين ترانيم الميلاد بين أوراق الشجر الشديدة الخضرة».

غنى الإسبان والهنود بأعلى صوتهم مبدين إعجابهم ورشقونا بالهدايا، التي بدورنا أعدناها لهم في حينه.

بعدئذ، شرع سولومون كريسون بإنشاد أغنية قديمة لكليمنت ماروتس. كان يملك صوتاً حسناً صادحاً.

فجأة، هدأ الجميع ولم يكن هناك ما يُسمع سوى غنائه، والريح والمطر، وحفيف أغصان النباتات دائمة الخضرة.

«ألم تسمع بالقصة القديمة،

كيف كان على مريم العذراء اللطيفة أن تحمل،

بكل معنى الكلمة، طفلاً يكون ملك السعادة السماوية.

أتتخذين الأرض مهداً لطفل هو أكثر الأطفال تفرُّداً.

لقد ولد الطفل

تماماً في هذا الصباح

هلمّوا دعونا نرحب بقدوم إيمانويل

ولنغن أنشودة الميلاد!

أنشودة الميلاد!

أنشودة الميلاد!»

كنا نتكلم جميعاً، إسباناً وهنوداً، إنكليزاً وفرنسيين، وزنوجاً إفريقيين، اللغة نفسها، وربما كنا قريبين من بيت لحم [1] ومن بعضنا البعض بقدر ما كان مرجحاً لنا أن نكون كذلك في حياتنا كلها في هذا الوجود.

«فلنغن أنشودة الميلاد! أنشودة الميلاد! أنشودة الميلاد!»

وبعد أقل من أسبوعين كنا في بلدة تشارلز.

كان الانتقال السريع بمجمله من البرية البكر تقريباً إلى الحضارة النسبية أكثر مما استطاع أن يتحمله بعض البحارة، فنزلوا إلى الحانات المتوضعة على الواجهة المائية، حيث استضافهم الجميع قاطبة، وقدموا لهم أفضل ما احتوته الحانة من طعام وشراب إلى أن أصبحوا عاجزين عن الوقوف من شدة ثملهم. كنت أنا ونيكولاس سنفعل الشيء ذاته لو أننا شعرنا برغبة في ذلك، وكذلك سولومون كريسون. لكن فور سماع مستعمرة الهوغونوت بوصول سولومون، تجمهروا من حوله عارضين عليه استضافتهم له، وكنا نحن مشمولين بتلك الاستضافة إكراماً له. ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا أنفسنا في منزل حرفي أمين يدعى جاك دوراند وزوجته هورتنز.

كان جاك وأبناؤه نجاري أثاث فاخر، وكان الطلب كبيراً على خدماتهم في المستعمرة الآخذة في النمو. ولسوء الحظ، كان الابن الأكبر أنطوان قد كسر أصابع يده اليمنى، وهكذا كان عاجزاً عن العمل بشكل موقت.

---

(١) المكان المقدس عند المسيحيين، فيه المغارة التي ولد فيها السيد المسيح عليه السلام.

كانت دعوة جاك لنا نابعة من القلب تماماً، لكن حين عرض سولومون أن يأخذ مكان أنطوان في الورشة في الوقت الحالي، أكد لنا جاك بأن عمله سيكون أكثر من كافٍ لتسديد مصاريف استضافة العائلة لنا.

كانت بلدة تشارلز في ذلك الحين ميناء صغيراً مزدهراً. وكانت مُشيّدة على رأس سهم شبه جزيرة عند نقطة التقاء نهرين شهيرين تدفقا سوية في مضيق واسع، هكذا نحو عرض البحر.

كان المضيق يضج بالسفن بما فيها سفن القراصنة، إذ لم يمانع أحد بوجود القراصنة ماداموا يعودون على البلدة بالمال، وانتشرت شائعات في المنطقة مبالغ فيها حول ماثرهم ضد الفرنسيين، وكذلك شائعات مبالغ فيها على نحو أكثر حول أعمالهم الوحشية المقززة للنفس التي كانوا يمارسونها ضد أصدقائهم أو أعدائهم أو زملائهم الملاحين على قدم المساواة، غير أن الناس في بلدة تشارلز لم يكونوا خائفين منهم، إذ كانت لهم في ذلك الحين حياتهم الآمنة جداً والخاصة بهم. لقد كان مكاناً صغيراً مزدهراً تنتصب فيه عالياً بيوت جديدة في كل مكان، وكانت في الأغلب بيوتاً ريفية جميلة عائدة للأغنياء من المستعمرين. كان القليل منهم يهتم بأن يعيش على نحو دائم في مستعمراته، التي كانت تدار من قبل عمال بيض متمرنين مأجورين وفق عقد رسمي لأجل معين، وهنود وعبيد زنوج.

كان، في الواقع، يدور كلام في ذلك الحين حول استيراد أعداد هائلة من الزنوج لتعهد محصول الأرز.

لقد كانت زراعة الأرز تجربة جديدة وواعدة. ومؤخراً تضمنت حمولة سفينة من مدغسقر كيساً من الأرز، وقد كان محصولها ضخماً جداً لدرجة أنه كان لابد من تكريس جميع الأراضي المستنقعية المنخفضة الموجودة في المستعمرة لزراعة الأرز. إن نجحت التجربة ــــ هكذا أخبرتنا عائلة دوراند ــــ فإن غنى المستعمرة سيكون أكيداً، وسيعود عليهم ذلك بالازدهار بدورهم، وسيجذب أعداداً إضافية من المستعمرين الأغنياء ليبنوا منازل جميلة في بلدة تشارلز، وليؤثثوها بأناقة وذوق. لقد بدا ذلك توقعاً باهراً، إلا أننا، أنا ونيكولاس، لم نتمالك أنفسنا عن التفكير بأنه ربما كان هنالك وجه آخر للفكرة.

صدف أن شاهدنا وصول سفينة عبيد، فدفعنا ذلك للارتياب في الأمر.

بقينا، بحكم الظروف، لفترة قصيرة في بلدة تشارلز رغم أن نيكولاس كان تواقاً للرحيل. لم يكن ثمة سبيل لتعزيز مصالح الملك. وقد امتنع عن فعل ذلك مراعاة لمشاعر الصاحبيين واحتراماً لمضيفنا الهوغونوتي في نفس الوقت.

علاوة على ذلك، فقد كان الخوف من النفوذ الفرنسي في وادي المسيسبي عاملاً يحسب له حساب على نحو متزايد في كارولاينا الجنوبية.

غادرنا زملاؤنا الملاحون واحداً تلو الآخر، ووقّع البحارة عقود عمل مع سفن أخرى، وكان القبطان كيرل يتواجد يومياً عند المرقب ليرتب لرحلة بحرية سريعة تعود به للوطن. وعندما حان وقت الوداع، شعرنا بالأسف للافتراق عنه، إذ كنا قدقاسينا الكثير معاً. كان لايزال يمشي بساق ضعيفة، وكان ثمة تجاعيد على وجهه لم تكن موجودة حين أبحرت الريفور ميشن مفعمة بكثير من الأمل، خارجة من بورت رويال.

وقبل أن نغادر نحن أنفسنا بلدة تشارلز، نادى خادم وقور على منزل عائلة دوراند طالباً إلينا زيارة السيد بارو الذي نُقل مؤخراً إلى البلدة من المستعمرة النائية حيث كان يمكث. جلب الخادم رسالة من السيد ديكنسون شرح فيها أن الرجل العجوز كان يتوق توقاً شديداً إلى رؤيتنا مرة ثانية، إذ كان متيقناً بأن لديه رسالة لنا من الله.

كتب السيد ديكنسون يقول: «لقد وضحت له بأن وجودكما ربما لن يفيد الصاحبيين، لكنه يؤكد لي بأن الاهتمام بالصاحبيين ليس ذا شأن بالنسبة له، وكذلك أمر مهمتك. إن كل ما يعرفه هو أنه ليس بإمكانه أن يرتاح حتى يراكما. فإن كان لديكما الوقت لزيارته، فإن حامل هذه الرسالة سيرشدكما إلى منزل ماري كروس الواقع على نهر كوبر، حيث يمكث».

«ماري كروس» كنت متعجباً! لمَ بدا الاسم مألوفاً على نحو غامض. وحين أذن لنا، أنا ونيكولاس، بالدخول إلى حضرتها. كنت لا أزال أفكر تفكيراً عميقاً فيَ الأمر. وربما كان ذلك السبب في أني نسيت سلوكي الجسن وقلت فجأة من غير تفكير وبصوت عالٍ: «الآن أذكر أين سمعت اسمك من قبل».

التفتت إلي السيدة العجوز مبتسمة. كانت عيناها حادتين وثاقبتين. سألت: «وأين سمعت بي يا نايجل كريغ؟»

قلت: «أستميحك عذراً يا سيدتي. ما كان علي أن أقاطعك بينما كنت تتحدثين إلى ابن عمي. لكن اسمك كان مألوفاً وقد أثار حيرتي. والآن أذكر بأن السيد فراير من بريستول هو من تحدث عنك. لقد قال بأنك تستحقين أن تتقلّدي اللآلىء».

علقت السيدة كروس: «لقد كان ذلك شيئاً أحمق جداً ما كانَ على ناثان فراير أن يقوله». لكنها لم تبدُ متضايقة.

قال نيكولاس موضحاً: «لقد أخبرك نايجل نصف القصة فقط يا سيدتي. لقد كان السيد فراير يشير إلى بعض النساء الصاحبيات المتميزات، اللواتي كنت إحداهن. لقد أخبرنا بأنك قد سافرت وحدك ومشياً على الأقدام لتزوري تركيا العظمى. وأخشى أنني كنت أعتقد أنه لعمل أحمق لتقومي به».

قالت السيدة كروس بهدوء: «لقد كان كذلك، لكنه أخذ بحماقات هذا العالم التي تدحض الحكمة، وكما ترى فقد أرسلني الله».

سأل نيكولاس مستغرباً: «وحدك، ومشياً على الأقدام».

قالت السيدة العجوز موافقة: «بالضبط. لقد كان الأمر أكثر أماناً على ذلك النحو، بالطبع».

صاح نيكولاس: «كيف يمكنك قول ذلك يا سيدتي؟ إنني مندهش بأنك قد بقيت على قيد الحياة لتسردي القصة».

تقلّصت عينا السيدة العجوز كما لو أنها كانت تعود بذاكرتها إلى الماضي. قالت في نهاية الأمر: «ليس هذا بالأمر العسير جداً على إمرأة. هنالك دوماً أمور بسيطة يمكن للمرء القيام بها على سبيل المساعدة، كأن يتولى العناية بطفل، أو أن يحمل قدر ماء، أو أن يرعى مصاباً، أو أن يطحن الذرة في الطاحونة. وتلك هي لغة الكون.

إن معشر الفلاحين، في جميع أنحاء العالم، يفهم بعضهم البعض، وخصوصاً النساء. إنني لم أجلد حتى سال الدم مني في القرى التركية، بل كان ذلك في كامبريدج. ولم أُجرّد من ملابسي وأُهَنْ في القرى التركية، بل كان ذلك في بوسطن ومع ذلك، فإن الناس يتكلمون عني بوصفي «ماري فيشر التي زارت تركيا العظمى «كما لوكان في ذلك شيء ما رائع وبطولي. رائع بالنسبة لي، نعم، لكن ليس بطولياً. كل ما كان علي فعله هو تسليم رسالة من الله».

قال نيكولاس مبتسماً: «أتعلمين ما الذي كنت سأخشاه يا سيدتي؟ كنت سأخشى أن أفقد أعصابي وأنسى الرسالة عندما يحين وقت الكلام».

وضّحت ماري كروس قائلة بهدوء: «لكن لا يمكن للمرء أن يخشى أمراً كهذا. إذ أنها لم تسلَّم إلي إلى أن بِتُّ في حضرة تركيا العظمى».

حدق نيكولاس فيها بدهشة وسأل: «أتقصدين القول بأنك قد واجهت تلك المخاطر المروِّعة من أجل رسالة لم تكوني متأكدة من أنها ستعطى لك؟»

قالت ماري كروس بإصرار: «لكنني كنت متأكدة! كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي استطعت التيقنّ منه. لقد كنت واثقة بالله.»

صمت نيكولاس للحظة، وبعدئذ التفت إليها فجأة وقال: «سيدتي، أنا وأنت ننتمي إلى مذهبين مختلفين. وأنت قديسة في نظر مذهبك في حين أنني آثم في نظر مذهبي، بيد أن ثمة شيء واحد كان له على الدوام موقع الرهبة في نفسي، وهو الخيانة من قبل أصدقائي وليس من قبل أعدائي لأنه من الطبيعي أن يواجه المرء أمراً كهذا، لكن فقدان المرء لثقته فيمن أحب سيودي إلى فقدانه لشيء من ثقته بالله، على ما أعتقد».

مدت ماري كروس، التي كانت سابقاً ماري فيشر، يداً هزيلة رقيقة ووضعتها بلطف على كتف نيكولاس وقالت: «اه، كلا يا نيكولاس كريغ. لا حاجة بك لأن تخاف ذلك أبداً. أحياناً، يكون علينا أن نقاسي عذاب الجحيم لندرك أن الله معنا. إن المزمور [1] يقول ذلك، وأنا أصدقه. لقد كنت هناك بنفسي».

(١) أحد الأناشيم والترانيم والصلوات المئة والخمسين التي يتألف منها سِفر المزامير في التوراة.

انفتح باب الغرفة التي كنا جالسين فيها، وقدم السيد ديكنسون للداخل. قال: «إن روبرت بارو مستيقظ الآن وهو متشوق ليراكما كليكما. بيد أنه مكروب لأنه لم يوحى له بالرسالة حتى الآن».

نهض نيكولاس ليتبعه وقال: «لا يهم يا سيدي، أعتقد أنني أدرك ماهيتها».

أومأ إلي نيكولاس لأتبعه، وصعدنا سلماً خشبية مسطحة قليلاً إلى الغرفة الخالية من الأثاث ذات الجدران البيضاء التي تم ترتيبها وتنظيفها على نحو مدقق، حيث كان يرقد صديقنا العجوز. كان قد هزل كثيراً عما كنا رأيناه آخر مرة، وحتى عندما وقفنا إلى جانبه أدركنا بأن النهاية باتت قريبة، وبأنه لن يرى مطلقاً تلال ويست مورلاند مرة ثانية. حدّق فينا صامتاً لوقت طويل. تنهد بعمق في النهاية وقال: «لم يرسل الله رسالة بيّنة».

انحنى نيكولاس فوقه وقال مريحاً إياه: «لقد سلمتنا رسالة يا سيدي. لقد ملأت قلوبنا بالشجاعة ولسوف تدوم هذه الشجاعة حتى يوم مماتنا».

أمسكت أصابع الرجل العجوز المرتجفة بملاءة السرير البيتية الصنع وأخذت تسحبها على نحو متواصل.

غمغم قائلاً: «إنه شيء يعود إلى لحظة تلاقينا للمرة الأولى، بيد أنني لا أستطيع تذكره. نايجل، ألا تذكر تلك المرة الأولى حين تكلمنا سوية؟»

قلت: «كنا على ظهر السفينة يا سيدي، وقد أخبرتني بأنك مستعد لمنح أي شيء مقابل نظرة إلى تلال ويست مورلاند».

قال روبرت بارو: «والآن لن أراها مطلقاً مرة ثانية في هذه الدنيا، لكن كليكما سيراها، وحينها تذكرا ــــ».

أغمض عينيه وبدا كما لو أنه قد بدأ يخرف. تكلم نيكولاس ثانية ببطء ووضوح شديدين محاولاً أن يصل إليه في عالم اللاوعي. قال: «حين نراها، يا روبرت بارو، فإننا سنتذكرك، وسوف نتذكر هذا اليوم. وأعتقد أننا، نتيجة لذلك، سنشعر بالطمأنينة في قرارة أنفسنا».

فجأة، انفتحت عينا الرجل العجوز واسعتين، غير أنه لم يرنا. كان ينظر إلى ورائنا، نحو البعيد. قال: «إنها دائماً تبدو شديدة الزرقة في غروب الشمس. حين كنت صبياً، كنت أعتقد بأن الجنة تقع في العالم الآخر، وأدرك الآن بأنها كذلك لأنني غالباً ما أراهم، ودائماً تكون السماء معهم حمراء وذهبية تماماً في أشعة الشمس الغاربة.

وتلك هي الطريقة التي تأتي بها الرسالة إليك، إنك سترفع عينيك عالياً نحو التلال، وسيأتي الفرج ـــ و ـــ و ـــ وستكون تلك هي الرسالة فحسب ـــ تذكر!»

رسم نيكولاس صليباً على صدره، ومن ثم انحنى للأسفل ليقبّل جبين الرجل العجوز. كان روبرت بارو غير واع لما يحدث.

ولم أعلم كيف سأودعه أو كيف سأظهر له اهتمامي به. عندئذ دسّت ماري كروس يدها برفق تحت وسادته، وأخرجت غُصيناً ذابلاً من الخزامى وأعطته لي. أخذته دون أن أتفوّه بكلمة لأنه لم يكن هنالك من شيء أعرف كيف أقوله، وأعتقد أنها فهمت ذلك.



الفصل الثاني عشر

الوفاء بالعهد للماضي



حين وصلنا، في آخر الأمر، إلى فيلادلفيا برفقة سولومون كريسون بعد رحلة بحرية طويلة ومرهقة إلى حد ما، توجهنا مباشرة إلى مكتب المحاسبة وعقد الصفقات الخاص بالسيد إلياس ويث مان ووجدنا في انتظارنا رسالة من الملك.

كانت ملقاة هناك منذ شهور عديدة، لكن أحداً لم يلمس الختم. فتحها نيكولاس بلهفة، عبس للحظة حتى نهايتها بينما كان يحاول حل الشيفرة، وبعدئذ جعّدها في يده فجأة ثم قال: «إنها رسالة استدعاء».

هتفتُ: «وكيف ذلك؟ ماذا تقصد يا نيكولاس؟»

سوّى نيكولاس الرسالة من جديد. قال معلّقاً: «من الواضح أن جلالته قد كتب في عجلة. في عجلة ــــ يا إلهي! ــــ وقد استغرقت حوالي سنة لتصل إلينا، ونحن بصعوبة بدأنا بتنفيذ مهمتنا. إنه خائف أن تلحق نشاطاتنا الضرر به في

نظر الفرنسيين ــــ دائماً الفرنسيون، كما لو أن صداقتهم هي الصداقة الوحيدة التي نستحق الحصول عليها، والقوة الوحيدة التي تستحق أن نأخذها بالحسبان! ــــ وأن تقع مصالحه ضحية للسلام الذي لابد أن يتم التفاوض عليه في نهاية الأمر. إن الشيء الأوحد الذي يروّعه هو أنه من الممكن أن يفقد حقه في اللجوء السياسي ضمن الأراضي الفرنسية. يعتقد بأنه لن يعيش طويلاً، وأمله الوحيد المتبقي هو أن لويس الرابع عشر سيعترف بأمير ويلز كملك انكلترا القانوني. إنه يأمرني بالعودة فوراً، وسأجازف بأن أجلب على نفسي استياءه الشديد إن أنا تأخرت، كما أنه يرفض الاعتراف مُقدّماً بأي مشروع ربما أكون قد اشتركت به».

علق سولومون: «إذاً، هل انتهى الأمر؟»

تردد نيكولاس ثم قال في تمهل: «لست ــــ أدري. أي شخص يستطيع أن يعلم أين ينتهي أي شيء. لكن عليّ بالتأكيد أن أعود في الحال. لقد كتب جلالته هذه الرسالة منذ سنة تقريباً، ولديه فكرة بسيطة للغاية عن عدد شهور الجحيم التي كان علينا أن نتحمل، أو عن مدى ندرة الفرصة التي سنحصل عليها حتى هذا الوقت لندفع قضيته للأمام أو لنسيء إليها. إنه لن يعلم كم من الوقت بقيت هنا ملقاة دون أن يقرأها أحد، وسوف يعتقد أنني تخليت عنه عند الضيق».

قال سولومون: «والأكثر ترجيحاً بأنه سيعتقد أنك متّ. ولم لا؟ مُت في سانت جيرمان يا صديقي وابدأ حياة جديدة هنا. صدقني، إنكِ لن تندم على ذلك، إن هذا هو بلد المستقبل».

قال نيكولاس: «من الممكن أن يكوّن الأمر حسناً كذلك، لكن ليس بوسعي أن أنقض عهدي مع الماضي. عليّ أن أطيع أوامر جلالته وأن أعود حتى لو كان ذلك من أجل أن أبرىء ساحتي وأؤكد له ولائي فحسب».

نظر إليه سولومون للحظة مبقياً رأسه في وجهة واحدة ثم قال مردداً: «ليس بوسعك أن تنقض عهدك مع ماضيك. نيكولاس، سأكون مستعداً لأقسم بأن هنالك ما هو أكثر من ملكك الذي يربطك بالماضي. لا بد أن تكون ثمة فتاة، في مكان ما، تحوز على إخلاصك لها».

صرخت بصوت حاد: «كلا!»

قال سولومون بإصرار: «أليس الأمر كذلك؟»

لم يُجب نيكولاس، ومنذ تلك اللحظة، بدأ يلوح طيف عبر طريق عودتنا. لقد عرفته، إذ كان ذلك الطيف هو كريغز. مضى بعض الوقت قبل أن نستطيع الحصول على إذن بالسفر على متن سفينة، رغم أننا كنا في ذلك الوقت نملك الموارد المالية الكافية تحت تصرفنا. كنت أسعد لكل عذر يؤدي إلى تأجيل النهاية المحتومة.

كان السيد ديكنسون لا يزال معوقاً في بلدة تشارلز، إلا أننا سددنا ديننا تجاهه عن طريق عملائه، وتركنا رسائل كثيرة تعبر عن عرفاننا بالجميل.

استكشفنا البلدة بإرشاد من سولومون، ودُهشنا حين وجدناها غاية في الكبر ومُخططة على نحو حسن. لم يُترك شيء للصدفة، إذ بُنيت المنازل على أساس خطة تم وضعها مسبقاً، حيث سمحت بوجود مساحة واسعة للأشجار والحدائق. كان ذلك في بداية شهر آذار والجو بارد، إلا أنه كان بوسعنا تخيل مدى ما سيكون عليه المكان من جمال في الأشهر الأكثر دفئاً. عرض علينا سولومون أن يأخذنا إلى أبعد من ذلك في الحقول إن نحن مكثنا لوقت أطول، بيد أن نيكولاس كان متشوقاً جداً للرحيل. ورغم أن خططه التي كان قد احتفظ بها أخفقت، إلا أنه لم يستطع أن يتحمل التفكير بأن الملك لا بد يسيء الحكم عليه في ذلك الوقت بالذات.

أقمنا مع والدة سولومون الأرملة، ماري كريسون، وهي سيدة مسنة شجاعة ذات عينين سوداوين تلمعان وتشبهان إلى حد كبير عيني ابنها. حضّرت لنا في الأمسية الأخيرة مأدبة صغيرة، وأخرجت زجاجة نبيذ معتق عائدة، لبيير كريسون. شرب سولومون نخب عودتنا السريعة، وشاركتُ في شرب النخب بحماس.

بعدئذ شرب نخب «المجهول المبشّر بالنجاح»، فأنزلتُ كأسي ورفضت شرب المزيد. كنت متعباً ومتشائماً، وكانت كل أحاسيسي الفطرية تصرخ عالياً رافضة هذه العودة. ورغم ذلك فقد كنت مدركاً أنها لا بد آتية. كان شيء ما

يجذب نيكولاس ليعيده إلى العالم القديم، أما بالنسبة لي، فقدْ علمت بأنه كان محقاً حين قال بأنني في يوم ما لابد عائد إلى كريغز. تماماً في ذلك الحين، ومن أجل ما قاله، لم أعد أشعر نحوه بالمودة. أنزل سولومون كأسه، متغاضياً عن فظاظتي، واتكأ على المائدة. قال: «هل اتخذت قرارك على نحو لا رجعة فيه يا نيكولاس؟»

أجاب نيكولاس: «تماماً».

سأل سولومون: «وماذا بعد أن تعقد الصلح مع ملكك على الجانب الاخر من المحيط؟»

قال نيكولاس: «إذا سمح جلالته، نعود إلى إنكلترا، وربما يكون ذلك للمرة الأخيرة. أؤكد لك بأنني لا أستطيع العيش هناك في ظل حكم أجنبي، لكن رغم ذلك لا يمكنني أن أدع قلبي يعتصر ألماً على الجانب الآخر من القناة منتظراً إلى أن تسعد قوة أجنبية بغزو بلادي. صدقني يا سولومون، إن نجحت فرنسا حقاً في إنزال جنودها إلى الأرض الانكليزية، فقد ضاعت قضيتنا للأبد، لكن الملك لن يصدق ذلك. لقد فطر قلب والدي لأنه لم يكن ليصدق ذلك، ولسوف يفطر قلبي أنا أيضاً».

بدا وجه سولومون كريسون المعبّر أكثر وقاراً مما سبق أن رأيته في حياتي. قال: «صديقي، حافظ على العهد مع ماضيك إن كان لا بد لك من ذلك، لكن لا تدعه يدمّرك. عُد ولسوف نجد مكاناً حيث يمكن للرجال الإنكليز أمثالك أن يتنفسوا هواء الحرية ثانية، وإن أتى اليوم الذي يروِّع ملكك وَطُردت عائلته الملكية من فرنسا، حسناً، لقد طُرد آخرون من فرنسا ووجدوا ملجأ هنا. تشجّع يا صديقي، إنك لم تفقد كل شيء، ما لم نرغب أنا وأنت في أن نضيع كل شيء».

التفت نيكولاس إليه بارتياب وسأل: «أتقصد بأنك كنت ستنضم إليّ في قدري يا سولومون؟»

قال سولومون: «بالتأكيد، لقد فعلت ذلك منذ زمن بعيد». مدّ يده، فصافحها نيكولاس، وبعدئذ شرب كل منهما نخب الآخر بكؤوس مُترعة.

وأدركت أن نيكولاس يشعر بالسعادة من جديد لأنه وثق، وكنت أعلم أن هذه الثقة لن تُضيّع. بيد أنني لم أكن متيقناً، إلى حد كبير، من أن ماضيه لن يخونه قبل أن يستطيع امتلاك غده.

حصلنا في نهاية المطاف على إذن بالسفر على متن حرّاقة [1] تدعى باليونيكورن، مع القبطان ويس بتش، قاصدة بليماوث. لقد كانت أجمل سفينة أبحرت على متنها في حياتي، وذلك على نقيض إيكليت الصغيرة الحجم المتواضعة التي قمنا على متنها برحلة مملة في العام الماضي. انطلقت في رحلتها مباشرة، وكان ذلك جيداً لأن نيكولاس كان مستاء، وما كان ليطيق التأخير إلا بشق الأنفس. أمضى الوقت في تعليمي بعض الكياسات الاجتماعية اللائقة برجل من الحاشية الملكية، متضمنة أفضل فنون السِّيافة.

كان توم هابرستي قد درّبني على الطرق القديمة الجيدة في الطعن والهجوم، فكانت النتيجة أن أصبحت بارعاً إلى حد كبير في استعمال الأسلحة ذات الطراز القديم. إلا أن نيكولاس كان رئيساً سابقاً للمدرسة الفرنسية.

كان يدربني قليلاً من وقت لآخر تدريباً غير ذا منهج أو هدف، لكن الآن وقد بدأنا نعمل على نحو جاد، أثبتُّ بأنني تلميذ شديد الذكاء بشكل واضح، رغم أنني لم أرقَ أبداً إلى المستوى الذي توقعه مني. لقد جعل من نفسه معياراً رفيع المستوى في هذا المجال كما في كل المجالات الأخرى، إلى أن كانت النتيجة أن استوقفني القبطان ويس بتش ذات يوم بينما كنت أعبر ظهر السفينة، وسألني عما إذا كنت مدركاً بأنني أتلقّى دروساً من أحد أبرع المثاقفين في أوروبا.

أذكر شعوري في ذلك الوقت بأن علينا الاستمتاع إلى الحد الأقصى بتلك الأيام التي نقضيها في البحر بسبب الأشياء المجهولة المتربصة بنا.. كنت خائفاً من مهمتنا إلى سانت جيرمان لأنني كنت أعلم أن الظروف ستعاكس نيكولاس إن رفض جلالته أن ينهي خلافه معه. ومع ذلك فقد كان هنالك ما هو أسوأ، فقد جعلتني فكرة العودة إلى كريغز أشعر بأن قلبي عليل، إلى حد ما من أجل نيكولاس

---

(١) سفينة حربية شراعية.

وكذلك من أجلي أنا. كنت أرى كريغز كنسيج عنكبوت تتمطط للخارج لتمسك بالغافل ولتنتزع ثقتهم في ما يأملوا. وكذلك كان يراها هو، بطريقة ما، بيد أنه كان يرى جوديث كالضحية الفاتنة لذلك النسيج، وكان مصمماً على إطلاق سراحها، أما أنا فقد كنت قد قررت قبل ذلك الحين بوقت طويل أن نسيج عنكبوت يمكن أن يكون مكاناً مريحاً جداً بالنسبة لشخص كجوديث، وغالباً ما كان كذلك.

تلك كانت المسألة الوحيدة التي لم نستطع أنا ونيكولاس الاتفاق عليها في الرأي مطلقاً، وقد تعلمت أن أتجنبها.

أما بالنسبة لي، فقد كنت أعي بمرارة حقيقة أنه قد مضى أكثر من سنة على المرحلة التي كنت فيها ذلك الصبي الذي كان أداة في يد آسكو وكنت خائفاً من أن يحاول فرض سلطته عليّ من جديد. وكنت أعتقد أن بوسعي الهروب من ذلك الخوف بأن أدير له ظهري، وهكذا كنت أرفض التفكير في المستقبل، بل كنت اسعد بالأيام المشمسة المذروة بالريح التي قضيناها في البحر، والصحبة الحميمة مع نيكولاس. وتمنيت لو كان بالإمكان أن تستمر الرحلة لضعفي مدتها. وحين ألتفت إليها بأفكاري، يكون كل ما أتمناه هو لو أنها طالت إلى تلك المدة.

رسونا في بليماوث في صباح ربيعي جميل، حين كانت الأشجار ناضرة خضراء والأزقة ملأى بأزهار الربيع.

أسرعنا مباشرة إلى النزل الصغير الذي كان ملتقى الستوارتيين، وبدا لنا أنّ كل شيء هناك على ما يرام.

ولكن لم يكن المرء ليعلم حقيقة ذلك. كان نيكولاس قلقاً أن يكون مكان الالتقاء قد تغير أثناء غيابنا الطويل.

تذكر سيلاس لاي، صاحب النزل، رسالة نيكولاس للملك وقد قام بنفسه بإرسال رسالة الملك الخطية العاجلة لنا، والمسلّمة باليد من قبل ناثان فراير، دون تأخير إلى عملائه في فيلادلفيا.

قال: «لقد بذلنا جهوداً كبيرة لمعرفة أخباركما منذ ذلك الحين يا سيد كريغ. وقد بعثتُ برسالة مفادها أنكما من المرجح قد انتهى أمركما وقضيتما نحبكما»

قال نيكولاس: «لقد كان من المحتمل جداً أن نكون كذلك. أما الآن، فإلى العمل. هل بوسعك أن تعدّلنا ترتيبات السفر إلى سانت جيرمان دون تأخير؟»

قال صاحب النزل: «ذلك ليس من شأني يا سيدي، لكن إن فضّلتما البقاء أمواتاً، فإن هذا سيّان عندي. وربما يكون أفضل لكما، كما يبدو».

هز نيكولاس رأسه وقال: «كلٌّ في حينه يا صديقي. أنا خادم جلالته مادمت حياً، ولسوف تعاكس الظروف كل من ينكر ذلك. الآن، متى يكون أقرب موعد يمكننا السفر فيه إلى سانت جيرمان؟»

هز صاحب النزل كتفيه غير مبال ثم قال: «يمكنكما العبور هذه الليلة في قافلة قوارب الصيد يا سيدي.

سيقوم سام وين بتمريركما سراً إلى منزل بير برونيل، والباقي سهل. توجد لدى بير برونيل أوراق لكما كما تحتاجان، وكذلك الخيول. ألا زلتما متأكدين بأنكما لا تفضّلان أن تكونا ميتين هالكين يا سيدي؟»

قال نيكولاس ضاحكاً: «متأكدان!» بعدئذ، و وعلى نحو مفاجىء أصبح جدياً وأضاف: «آمل ألا يعني هذا بأنك تضعف القضية يا صديقي؟»

قال سيلاس لاي بتمهل: «كلا، كلا يا سيدي! لكن المكيدة الأخيرة القائمة هناك قد أخذت بألباب الناس. وبعدها، وكان ذلك في الصيف الماضي، بعد ذهابك يا سيدي. يقولون بأن ويليام داتش قد عرض بأن يجعل من أمير ويلز وريثه فقط إن هم تركوه يكون كذلك. ويقولون بأن الملك السابق ما كان ليسمح بشيء من هذا القبيل».

هتف نيكولاس بسخط: «إن ذلك هو عين الصواب! إن ذلك كان سيعني الاعتراف بويليام كملك شرعي. إن جلالته يؤثر الموت في المنفى».

سأل صاحب النزل المسن: «ويدع أمير ويلز يموت في المنفى؟»

قال نيكولاس: «لا سمح الله! ولم يكون ذلك استجمع شجاعتك يا رجل! إن الأمر غير وارد! تماماً كما تبدو الأمور في ظاهرها، ليس بوسع أحد أن ينكر حقه في العرش من بعد غلوسيستر. أما غلوسيستر، ذلك الطفل المسكين، فإنه لن يعيش طويلاً في هذا العالم، إن صدقت جميع الروايات وإن لم تتخل الأميرة آن عن حقها في الخلافة على العرش إلى أخيها، رغم أنها ستفعل إن فكرنا بالأمر على نحو منطقي تماماً، فإنها بالتأكيد ستعترف به كوريث لها. فيمَ نحن نبحث بحق السماء؟ في الطبيعة البشرية، أم في الحجارة؟»

قال سيلاس لاي: «ثمة إشاعة تقول بأن الخلافة ستنتقل إلى منتخبة [1] هانوفر وابنها».

هتف نيكولاس: «لا أصدق هذا! إن الأمير روبرت كان سيدفن نفسه إن وصلت أخته في أي وقت إلى العرش قبل الوريث الشرعي. كلا يا رجل، سوف نحيا لنشهد جيمس الثالث يُتوّج على ويست مينستر، إن شاء الله!»

رسم سيلاس العجوز الصليب على صدره وقال: «كما تقول يا سيدي، إن شاء الله!» غير أنه لم يتكلم في الأمر لأبعد من ذلك. كان قد رأى الكثيرين جداً من عملاء السيتوارتيين يغدون ويروحون.

انطلقنا في رحلتنا البحرية مع موكب قوارب الصيد على مركب سمّاك نتن صغير سرعان ما أفلت من بقيتها.

كان سيده سام وين، صياداً قليل الكلام متقدماً في السن رفض الإجابة عن الأسئلة، أو السماح لنفسه بأن يُجذب للحديث. اقتربنا من الساحل الفرنسي بحذر في الظلام. كان هنالك الكثير من المشاة والعربات المتحركة جيئة وذهاباً، حتى في زمن الحرب. لكنها كانت على الأغلب حركة سير غير مشروعة. وربما كان المركب الصغير الذي تسلل دون أن يحدث ضجة متجاوزاً إيانا، قاصداً الصيد، لكن من الممكن كذلك أن يكون ركابه من المهربين، أو حتى من الجواسيس. لم

(١) المنتخِبة: زوجة أو أرملة منتخب جرماني.

نطرح أية أسئلة حولهم. وكذلك هم لم يسألوا عنا، وكان ما يهمنا جميعا وبنفس الدرجة هو تجنب انتباه حرس السواحل غير المرغوب به.

رسا بنا سام وين بأمان عند جون صغير على بعد أميال قليلة شمال لوهافر، لقد كانت بقعة منعزلة، غير أنه على بعد ميل تقريباً على طول الساحل كانت تقع قرية الصيادين الصغيرة حيث كان يعيش بير برونيل. وبينما مشينا في موازاة المجاز الضيق المنطلق من الشاطىء، شعرت بحماس للمغامرة. أخيراً وطأت بقدمي أرض فرنسا حيث عاش والدي في المنفى بسبب ولائه؛ أخيراً كنت في طريقي لرؤية الملك الذي ضحى والدي بحياته في سبيل قضيته، والذي كان نيكولاس كذلك مستعداً لأن يحيا أو يموت إكراماً له.

نقرنا على باب بير برونيل في ضوء الصباح الباكر، ففتح الباب بحيطة ليدعنا ندخل، تكلما هو ونيكولاس بسرعة بالفرنسية، ورغم أن الأب بنديكت قد أسسّني جيداً في تلك اللغة مفكراً في إمكانية أن يحصل لي على عمل في سانت جيرمان فيما بعد، غير أن معرفتي بها كانت أقل من أن أتمكن من فهم ما يقولون.

بعدئذ جلسنا لنتناول وجبة بسيطة قبل أن نشرع في رحلتنا. تم ترتيب أوراقنا سريعاً، ولم يكن ثمة صعوبة في الاقتراب من القصر في سانت جيرمان حين تم في إحدى المرات إعداد المقدمات الأساسية على الرغم من أن الحرب كانت لا تزال قائمة بين انكلترا وفرنسا. لكن حين استفهم نيكولاس عن ماهية التوقعات لحدوث سلام قبل أوانه، هز بير برونيل رأسه وقال: «واعدة جداً بالنسبة للعالم ككل، لكن ليس بالنسبة لك.

إن ويليام داتش الذي تؤيده سيصر على الاعتراف بالدولة، ومليكك بصعوبة يستطيع أن يرفض ذلك، مع أن الأمر سيكون قائماً فعلاً وليس شرعياً. على الرغم من ذلك، فإن هذا سيكون بمثابة كارثة لقضيتك».

قال نيكولاس: «لقد بات مليكك معروفاً بأنه يأخذ بإحدى يديه ويعيد بالأخرى، دعنا نرجو بأن يكون الأمر كذلك في هذه القضية لكن بالنسبة لي الشرعي هو القائم، والثاني من دون الأول غير جدير بولاء أي إنسان».

قـال بيـر برونيل : «ومع ذلك ربمـا يكون الأول من دون الثـاني هو مـجـرد حلم» .

قال نيكولاس : «آنذاك سأكون مخلصاً للحلم» . غير أن وجهه تكدّر حين ودعنا بير برونيل .

وسرعان ما ابتهجت أرواحنا بينما انطلقنا على متن الجياد متجهين شرقاً . كان أمراً حسناً لنا أن نمتطي الجياد ثانية . ورغم أن جوادينا ربما لن يكونا جديرين بفروسية نيكولاس ، إلا أنهما كانا أفضل من أي من الجياد التي كنت قد ألفتها . كان داريوس جواد عمي آسكو ، هو الجواد الوحيد الجدير بأن ينظر إليه في اسطبلاتنا ، ولم يكن يسمح لي على الإطلاق بركوبه .

اتخذنا طريق باريس سائرين بسرعة ثابتة ، متوقفين في النزل القائمة على جانب الطريق في الأماكن النائية ، مفضلينها على تلك الواقعة في القرى والبلدات الأكبر .

لقد صدمني فقر أهل الريف . كنا نحسب أنفسنا في الشمال الغربي أناساً ذوي حياة قاسية بالمقارنة مع حياة أهل الجنوب الأكثر ازدهاراً ، غير أنني لم أرَ مطلقاً أكواخاً مثل هذه الأكواخ المتداعية في القرى الصغيرة المتوضعة حول الخليج ، أو مثل هذه الفاقة والجوع إلى حد الموت ، مع كدح متواصل كالذي رأيته في الكثير من المقاطعات التي مررنا عبرها . حين تكلمت إلى نيكولاس معلقاً على هذا الأمر بدا وقوراً .

قال : «أعلم ، ورغم ذلك إن كان لا بد لي من أخذك إلى فرساي يا نايجل ، فإنك سترى ثراء لم يحلم بمثله قط ملوكنا في وايت هول . أحياناً أتساءل عما إذا كان من الجيد لأي رجل أن يمتلك سلطة كهذه كما هو حال لويس الرابع عشر» .

قلت : «إنني متأكد إلى حد بعيد أن ذلك ليس بالأمر الحسن ، وربما ذلك هو الذي جعلني أتمنى لو كان ملكنا وأمير ويلز في مكان آخر غير سانت جيرمان ، لو

أنهما لم يكونا يعيشان على نفقة لويس. لقد بدأت أشعر أنني لا أستطيع التنفس في هذا البلد يا نيكولاس، إنه أسوأ من آيز. دعنا نعد إلى سولومون ـــــ بسرعة ـــــ قبل أن يفوت الآوان».

قال نيكولاس: «لقد فات الأوان، لكن بعدئذ ـــــ من يدري؟ ربما كان سولومون محقاً حين أخبرنا أن أميريكا هي بلد المستقبل».

وفي إحدى الأمسيات، عند الغروب، انطلقنا على صهوات جيادنا نحو سانت جيرمان. بدت مكاناً صغيراً هادئاً على الرغم من قصريها العظيمين القائمين فوق نهر السين.

انتصب القصر الفرنسي الإقطاعي القديم أمامنا، حيث شيّده جيمس الثاني في المنفى، على نحو مكفّهر في ضوء المساء، تلونت جدرانه بحمرة وردية داكنة، وأُضيئت نوافذه بعدد كبير جداً من الشموع الخافقة الشعلة وضعت داخل المبنى كان هنالك صوت موسيقا، غير أن صداها لم يكن يصل إلينا إلا ضعيفاً. آنذاك دفع أحدهم نافذة في الطابق الأول من الجناح الشمالي على مصراعيها وخرجت منها أغنية لتطوف في الهواء.

«ينتهي المساء بتؤدة

وينحسر الشفق بعيداً

لكن الورود الحمراء الخجلة

سترحب قريباً بيوم آخر

ومع ذلك، حين يضع الموت أخيراً

نهاية للنشوة

فإننا لن نستطيع استرداد

ورود الماضي أبداً

لأن الوقت الحافل ينقضي بسرعة

هارباً... دون أن يتوقف أبداً

ولابد للصبية والفتيات الشقراوات

أن يذبلوا في الليل

إنها لبليّة محزنة جداً

أن ينتهي اللعب

رغم ذلك... لا سبيل لإنكار

أننا لن نعود مرة أخرى»

قال نيكولاس فجأة: «اعتاد والدي أن يغني تلك الأغنية. هَلُمّ يا نايجل، سنمكث في نُزُل هذه الليلة. عند الصباح، ستكون هنالك أشباح أقل في المنطقة».

في اليوم التالي، جلس نيكولاس مع جلالته في مقابلة رسمية استمرت طويلاً. انتظرت في حجرة الانتظار، قلقاً عليه على نحو بائس ومدركاً، وأنا أشعر بالحرج، لحقيقة أن تدربي على السلوك الصحيح اللائق بالقصر لم يكن سوى تدرباً سطحياً. بدا الأمر بسيطاً بجملته حين كنت برفقة نيكولاس وكان بوسعي تقليده فيما يفعل، لكن في فترة غيابه كنت في ذعر مستمر من التصرف على نحو أحمق. حاول سيد نبيل مسن ذو وجه وديع متعب أن يهدّئ من روعي. كان قد عرف والدي جيداً، كما بدا لي، وعندما تحدث إليّ في غير كلفة،

أدركت بأن هذه المناظر لابد كانت مألوفة جداً لوالدي الشاب الذي أذكره بصعوبة، فيما عدا أنها كانت مبشرة أكثر حين عرفها هو. آنذاك، وعلى نحو مفاجىء، انفتح بسرعة باب في مكان ما من الخلف، وكان هنالك عدْوُ أقدام صغيرة فوق الأرضية الباركيه [1] الملمعة. ركض طفلان إلى داخل الغرفة، فتاة صغيرة عفريتة تجذب أخاها الأكبر، الذي كان نوعاً ما محجماً عن الدخول، من

(١) الباركيه: أرضية مفروشة بقطع خشبية مزخرفة تقوم مقام البلاط.

يده، ومربيتهما تركض لاهثة وراءهما محاولة دون جدوى اللحاق بهما. انحنى جميع من كان في حجرة الانتظار للأسفل، وضرب الحراس عند باب جلالته الأرض بأرجلهم ووقفوا منتصبين ساكنين في استعداد. تقدم صديقي المسن للأمام ليعترض سبيل الطفلين وحينئذ انحنى ثانية. طلبت الفتاة الصغيرة قائلة: «أريد أن أرى بابا! أريد أن أراه في الحال».

فسّر صديقي: «لابد لي أن أُعلِم سموك الملكي بأن جلالته مشغول في الوقت الحاضر. إنه في اجتماع مع السيد نيكولاس كريغ»

هتفت الطفلة فرحة: «لكنني أذكر نيكولاس! لقد كان من عادته أن يلعب معنا. أرجوك دعنا ندخل!»

أصرّ صديقي: «ليس الآن، يا صاحبة السمو الملكي. انظري، إن السيدة في انتظارك».

وقفت الفتاة الصغيرة في وسط الغرفة وقد مدت شفتها السفلى للخارج. كان واضحاً أنها لم تكن معتادة على أن يخذلها أحد. انحنى أخوها للأسفل ليهمس لها، إلا أنها دفعت به بعيداً بصبر نافذ، بعدئذ، وفجأة انتبهت لوجودي. سألتْ: «من يكون ذلك الصبي هناك؟»

قال صديقي: «ذلك هو ابن عم السيد كريغ، السيد نايجل كريغ».

طلبت بأسلوب ملكي متعجرف: «أخبره إذاً أن يأتي ويلعب معنا!»

احمرّ وجهي وارتبكت إلى حد بعيد وانحنيت على نحو منخفض لأخفي ارتباكي. عندئذ، وعلى نحو مفاجىء، تقدم الصبي نحوي وقال: «عليك أن تغفر لشقيقتي يا سيدي. إنها صغيرة الحجم كثيراً. إلا أن كلينا سعيد ليرحب بابن عم السيد كريغ في القصر». مدّ يده للأمام، ونزلت على ركبة واحدة وقبلّتها. لم يكن بي من حاجة لنيكولاس لكي يخبرني أن هذا هو أمير ويلز.

قالت الأميرة الصغيرة ملحة: «قل له أن يأتي ويلعب معنا!» قافزة من قدم لأخرى وقد نفد صبرها.

نظر السيد النبيل اللطيف نظرة عجلى متسائلة إلى مربيتها، التي هزت كتفيها على نحو معبّر. قال في نهاية الأمر: «إنه لمن دواعي سرور سموهما الملكي أن تقوم على خدمتهما يا سيد كريغ. سوف أُعلم السيد كريغ بالأمر حين ينتهي اجتماعه».

اندفعت الأميرة الصغيرة نحوي كالسهم مادّة يديها للخارج، غير أنني تراجعت للوراء وانحنيت بصورة بروتوكولية وبختها مربيتها برفق، وللحظة التمعت ببريق بارد زجاجي على أهداب جفنيها، دموع سريعة. بعدئذ انتصبت، وانحنت انحناءة احترام للرفاق المجتمعين. تناول شقيقها يدها، وخرجا من الغرفة سوية. تبعتهما، محجماً بعض الشيء، برفقة مربيتهما وقس طويل القامة كان يقوم على خدمتهما أيضاً. وتشكلت وراءنا حاشية صغيرة من الحراس والخدم بينما بلغنا الباب وعبرنا للخارج متجهين نحو أعلى السلم الخشبية. هبطنا درجات السلم وسرنا على طول الردهة السامقة ببطء وبكثير من الطقوس والرسميات، وكان الحراس يقفون في استعداد ويؤدون التحية لدى مرورنا، لكن حالما وصلنا المصطبة الكبرى بدا أن الخدم يغيبون عن الأنظار في الخلف، وكان الأمر كما لو أنني كنت مع الطفلين الملكيين سوية دون الآخرين.

رفعا بصرهما للأعلى ناظرين إلي يترقبان مني أمراً ما، وتساءلت كيف يمكنني تسليتهما دون أن أخرق أياً من مبادىء قواعد التشريفات الخاصة بالقصر. وسرعان ما حلّت الأميرة الصغيرة المشكلة. قالت: «الآن سنلعب بالكرة».

نظر إلي أمير ويلز لاهياً وعلّق على نحو مذعن: «من الأفضل لنا أن نفعل مثلما تقول».

قدّمت لنا خادمة كرة، فأخذنا نقذف بها جيئة وذهاباً إلى أن بدأ الطفلان الملكيان يشعران بالتعب تحت أشعة الشمس الحارة.

قالت الفتاة الصغيرة: «الآن سنجلس في الظل، وسوف تحدثنا عن انكلترا. يوماً ما سنعيش جميعاً هناك، وسيكون شقيقي ملكاً وأنا سأكون ملكة».

احتجّ أمير ويلز قائلاً: «آه، كلا، لن تكوني ملكة يا لويزا سوف أتزوج إحداهن وستكون هي الملكة، لا أنت».

أكّدت الطفلة بسخط: «سأكون ملكة، سأكون ملكة وحدي تماماً. لقد قال بابا بأن عمته إليزابيث كانت ملكة وحدها تماماً حين كانت صغيرة، وكانوا يلقبونها ملكة القلوب».

لم أخبرها أن ملكة القلوب كان لديها ابنة تدعى صوفيا هانوفر، أرادت هي الأخرى أن تكون ملكة وحدها تماماً. وبدلاً عن ذلك، قلت بأنه اسم جميل للغاية وأن عليّ مناداتها به، وعندئذ صفعت بيديها الصغيرتين وقالت بأن شقيقها أيضاً يملك لقباً للتحبب وهو الشحرور وذلك بسبب عينيه الداكنتي اللون. واسترق الصبي نظرة خاطفة خجلى إلي وسأل إن كان هنالك شحارير في إنكلترا وفيما إن كانت تغرد بنفس العذوبة التي تغني بها في فرنسا. وهكذا، تدريجياً، قدمنا للحديث عن انكلترا والبلد الواقع في الشمال، وأخبرتهم عن الخليج والمد والوعث، وكيف أن خط التلال الطويل يمتد داكناً في غروب الشمس. وأخبرتهم عن الكواكل المتجمعة وعن صيد السمك المفلطح وعن الطريقة التي سيثب بها سمك السلمون الكبير في قنوات النهر حين يأخذ المد في الانحسار.

وحين أتينا للحديث عن الصيادين، أخبرتهم عن الأعداد الغريبة التي كان من عادتهم أن يعدّوا بها مقادير السمك التي اصطادوها دفعة واحدة، ولم يكن من شيء ليرضي الطفلين الملكيين سوى أن يتعلموا تكرارها، وهكذا بدأنا بـ «يان، تيان، تيديرر، ميديرر، بيب»

أطلق الطفلان صرخة طويلة حادة ضاحكين بينما كانا يحاولان أن يعيداها من بعدي. وعندئذ، وفي غمرة كل ذلك سمعت صوتاً خفيضاً يقول: «لا، لا تزعجهما يا نيكولاس. أحب أن أسمع طفليّ يمرحان».

انتفضتُ واقفاً في لحظة، وانحنيت في ارتباك للرجل المسن الهزيل ذي القامة المحنية والوجه الشديد الشحوب المغطى بالتجاعيد الذي كان يتكيء على ذراع نيكولاس. كنت مغتاظاً بيني وبين نفسي من تصرفي الأخرق وقد أخذت على

حين غرة. ولم تكن تلك هي الطريقة التي كنت قد تخيلت بها نفسي أقابل الملك الذي ضحى والدي بحياته من أجله. قدّم الملك يداً شديدة النحول والبياض لدرجة أن الأصابع كانت شفافة تقريباً، ونزلت على ركبة واحدة ولمستها بشفتيّ. آنذاك انزلقت اليد أسفل ذقني وأمالت وجهي برفق نحو الأعلى. قال الملك:

«هذا هو إذاً ابن بيلهام»، وأشار إلي بأن أنهض. قاطعت الأميرة لويز، المتعذر السيطرة عليها، المشهد بثرثرة مفاجئة. «لقد أتينا لنجدك يا بابا وما كانوا ليدعونا ندخل، ولهذا سألنا إن كان بوسعه أن يأتي ويلعب معنا، وهو صبي لطيف ونحن نحبه، لذلك أرجوك اجعله يمكث معنا».

لاطف الملك الطفلة بحنان وهز رأسه سائلاً: «وماذا يقول أمير ويلز؟»

نظر الأمير الصغير إليّ بجدية بالغة وأجاب: «أعتقد أنه صغير جداً على البقاء هنا يا بابا»

تنهد الملك تنهيدة عميقة جداً وقال: «إنك محق يا بني، إن كليهما صغير جداً على البقاء»

شرع نيكولاس مندفعاً: «جلالة الملك ـــــ» أوقفه الملك بإيماءة ثم قال: «سيكون الأمر أفضل كذلك. لكنكما لستما الشخصين الوحيدين الصغيرين جداً على المكوث هنا».

بقيت ذكرى ذلك المشهد في مخيلتي، وبرفقتها صورة طفلين ملكيين يلعبان في أشعة الشمس تحت جدران القصر الداكنة الحمرة، وتذكرت بأن أحدهما كان يُلقب تحبباً بالشحرور الصغير.

لا أعتقد، بالتأكيد، أن الشحارير تغرد بعذوبة في سانت جيرمان كما في انكلترا إذا ما كانت محبوسة في قفص.



الفصل الثالث عشر

المغنّية الرقيقة ذات الصوت العذب



غادر نيكولاس سانت جيرمان بقلب مبتهج أما أنا فغادرتها بقلب مثقل بالهموم. لو أننا كنا قاصدين العالم الجديد مباشرة لكنت راضياً، بيد أنه كان مصمماً على العودة إلى كريغز قبل كل شيء. لم أسأل عما كان يجذبه إلى هناك، إذ كنت أعلم، وقد جعلني ذلك أقل سعادة.

قبل مغادرتنا للقصر صعد إلى غرفة والده القديمة. كان شخص اخر من حاشية الملك قد سكنها في ذلك الوقت، إلا أنه كان لا يزال هنالك القليل من ممتلكات والده، منمنم لوالدته دسّه في جيبه، وكتب قليلة خلّفها وراءه على كره. قال وهو يمسك برقة وعناية كتاباً مهترئاً من قطع الرُبع لمسرحيات شكسبير:

«يوماً ما سنرسل في طلب هذه، كان والدي يقرؤها بالساعات. وكان يقول إنه ليس هناك ممثل في انكلترا يستطيع أن يؤديها على نحو يؤتيها فيه حقها، أما

بالنسبة لاعتقاد السيد تايت بأن بإمكانه إدخال التحسينات عليها، فإن والدي كان دائماً يقول بأن الأمر مماثل للكفر بالله. ورغم ذلك فإنها قد تم اعتبارها في القصر على أنها أشياء حزينة عتيقة الطراز».

قام بترتيب الكتب بحرص على رف، ولست أعرف البتة إن كانت لا تزال ملقاة هناك على حالها. بعدئذ رفع سيف والده ونظر إليه راضياً ثم قال: «إنني لم ألقِ بالاً على الإطلاق لذلك السيف الإسباني الذي ابتعناه في بلدة تشارلز. نعم، وهو ليس بالسلاح الملائم للاستعمالات المختلفة، نعم إنه كذلك، كما أنه بوسعك أخذه يا نايجل رغم أنه حتى الآن ثقيل قليلاً بالنسبة لك ـــــ غير أني أفتقد السيف الذي أضعته في فلوريدا. كان لذلك السيف ميزة، وكذلك هذا السيف فيه ميزة. ربما سيذكرني بالرجل الذي يمثّله والدي».

ثبّت السيف بإبزيم. راقبت أصابعه الحساسة تلاطف بحبور مقبض السيف المزين بالنحت على نحو متقن، وفكرت كيف أن يد والده قد استقرت هناك في إحدى المرات، وربما في يوم ما سيقوم ابن نيكولاس بدوره بارتدائه.

وتساءلت عن نوع الرجل الذي سيكون عليه ذلك الابن، وحاولت إقناع نفسي بأنني غير مهتم بالأمر.

سلكنا نفس الطريق متجهين نحو الوطن، واسترحنا ليوم أو ما شابه في منزل بيربرونيل إلى أن تمكن من إيجاد صياد يمكن الوثوق به ليعبر بنا القناة. رسونا بأمان شرق بليماوث واتخذنا طريق بريستول. لكن قبل أن نبلغ وجهتنا، انعطفنا جانباً لنزور وايف ليسكومب. وأثناء سيرنا على الجياد مجتازين كنيسة القرية، شاهدنا عجوزاً محتشمة الملبس تعرج ماشية للأمام وقد غطت الغرز مئزرها. أوقف نيكولاس جواده ليسألها إن كانت تعرف امرأة تدعى أليس بانويل.

«أجل يا سيدي، كنت أعرفها معرفة حسنة يا سيدي. إنها تقيم بالقرب من هنا».

سأل نيكولاس: «أين أيتها السيدة الطيبة؟»

أشارت المرأة المسنة إلى فناء الكنيسة* بيد ترتعش وقالت: «هناك يا سيدي، وقد فعلت ذلك لسنوات عديدة، ولسوف تقوم به إلى أن يلقى بي إلى جانبها».

انحنى نيكولاس للأسفل ليضع قطعة نقدية في يدها، ثم قال: «أخبريها أن ويل هوكين لا يزال مخلصاً لها». وتابعنا السير.

حين بلغنا بريستول أخيراً، رحب بنا ناثان فراير ترحيباً حاراً. قال: «لقد أخبروني أنه قد فُقد الأمل من رؤيتكما كليكما إلى الأبد. ومن ثم كتب إلياس ويث مان ليعلمني بوصولكما إلى فيلادلفيا وبمغادرتكما إياها على نحو عاجل. لقد كان اسفاً ليراكما تمضيان. وأنا ــ حسناً، لقد كنت دائماً آمل بأن تستقر هناك ــ شريطة أن يعني ذلك أنكما كنتما حرين من أية مهمة أخرى. كذلك ألمح إلى إلياس ويث مان بأن الصاحبيين كانوا يدينون بكثير من الفضل إليكما».

قال نيكولاس: «إنني أرجح الاعتقاد بأننا نحن من كنا ندين بالفضل للصاحبيين، كان هنالك رجل يدعى روبرت بارو ــ وهنا تردد نيكولاس وقاطعته أنا قائلاً فجأة: «أخبر السيد فراير يا نيكولاس، إنه على الأقل شخص يمكنك الوثوق به».

وهكذا أخبرناه القصة بأكملها، غير ناسين اللقاء الأخير بروبرت بارو في منزل ماري كروس، وقد أصغى بوقار حتى النهاية. قال في نهاية الأمر: «لقد كان مقصوداً من ذلك، إنه ما يدعى لدينا بالهداية. لكن ما هي الأمور التالية؟»

صرح نيكولاس: «إنني لن أعيش في هذا البلد في ظل ملك أجنبي. ولا يمكنني أن أحيا في سانت جيرمان حيث يتوقف شرف إنكلترا على قوة فرنسا. هناك بالتأكيد مكان في العالم الجديد لأناس مثلي».

قال ناثان فراير موافقاً: «من المؤكد ذلك، لكنك لن تذهب بمفردك؟ ماذا عن نايجل؟»

(*) وكثيراً ما يتخذ جانب منه مدفناً.

قال نيكولاس: «ابن عمي هو وريث كريغز، ورغم ذلك، فإنني لا أنوي المضي وحدي».

تمت تسوية صفقات عملنا مع ناثان فراير بسرعة. وقد كان الرصيد الباقي من بيع اللآلىء يفوق توقعاتنا، إلا أن نيكولاس ترك معظمه في عهدة السيد فراير. قال مفسراً: «آمل أن أعود قبل مضي وقت طويل، وعندها سأحتاج إلى مساعيك الحميدة ثانية لترتيب أذوننا بالسفر إلى فيلادلفيا وحساب الاعتماد الخاص بنا هناك».

سأل السيد فراير: «وإن غيرت رأيك؟»

بدا نيكولاس مضطرباً. قال: «لن أغير رأيي. إن لم أعد قريباً، فربما تتطلع لتسمع مني. وإن لم تسمع ـــ من يدري؟ فمن المستحسن لك أن تجعل من نايجل وريثي».

كانت أصداء الأغنية في سانت جيرمان ترن في أذنيّ.

«لأن الوقت الحافل ينقضي بسرعة

هارباً... دون أن يتوقف أبداً

ولابد للصبية والفتيات الشقراوات

أن يذبلوا في الليل

إنها لبليّة محزنة جداً

أن ينتهي اللعب

رغم ذلك... لا سبيل لإنكار

أننا لن نعود مرة أخرى»

تحرك السيد فراير حركة ضئيلة بارتباك، ثم قال فجأة: «نيكولاس كريغ، ليس بمقدوري أن أدعك تذهب دون أن أقول الحقيقة كما تم إبلاغي بها. سيكون

من الأفضل لك أن تبحر الآن وتأخذ الغلام معك. ليس بوسعي أن أرى أية فائدة تنالها في الشمال الغربي».

قال نيكولاس: «رغم ذلك، عليّ الذهاب إلى هناك، وإن كان فقط للوفاء بالعهد».

حدث هذا بينما بقيت أنا صامتاً تماماً. لم يبدُ أن هنالك ما يمكنني قوله دون أن أعرض ما تبقى لي من الصداقة القديمة مع نيكولاس للخطر.

نزلنا إلى أرصفة الميناء، واستعلمنا عن السفن الساحلية التي ستقصد جهة الخليج. ولحظنا الجيد جداً، اكتشفنا أن روري تيلبرث ويت كان في بريستول لبعض الوقت، ويجب عليه الإبحار خلال الأيام القليلة التالية بحمولة من القمح والرّم [1] والسكر إلى أولفرستون. بحثنا عنه دون تأخير، وتلقّينا ترحيباً يليق بالملوك.

صاح بأعلى صوته: «هل سآخذكما؟ لماذا، انطقا الأمر ولسوف آخذكما إلى أميركا وأعيدكما. هل سآخذكما؟

نعم، ذلك ما سأفعله، وإن ذكرتما كلمة نقود ولو ذكراً عابراً، فإنني سأرمي بكليكما عن ظهر السفينة وأدعكما تسبحان أو أن تبلعا النقود. إن رؤيتكما كليكما تسعد قلبي بكل ما في الكلمة من معنى بعد أن قالوا جميعاً إنكما ميتان».

سأل نيكولاس: «أذلك ما يقولونه عنا يا روري؟»

وافق روري تيلبرث ويت: «آه، أجل يا سيدي. إن ذلك هو ما يقولونه هنا وهناك في محيط كريغز. وإن أراد النبيل الصغير أن يطالب بميراثه، فمن الأفضل له أن يسرع في التصرف بهذا الخصوص لأنهم يقولون بأن السيد المتقدم في السن لن يعيش طويلاً».

سألت: «أتعني جدي يا روري؟» وسرت في جسدي قشعريرة باردة، لأنه إن كان لا بد لجدي أن يموت، فلن يكون هناك سوى عائق وحيد أكثر ضآلة بيني وبين عمي آسكو.

---

(١) شراب مسكر

قال روري: «نعم، ذلك صحيح، سيد نايجل. لقد داهم المرض جدك منذ فترة على نحو مفاجىء، وهو يستلقي هناك كجذع شجرة وقد أُدير وجهه جانباً إلى حد ما، وليس هناك من يستطيع أن يفهم كلمة مما يقول عدا الأب بنديكت وأحياناً السيدة إيزابيل حين تكون في مزاج جيد. إنهم يقولون بأن السيد اسكو يخطط ليرحلهما معاً على متن الجياد إلى فرنسا، إلى أحد الأديرة، وذلك عندما يتوفى النبيل العجوز».

سأل نيكولاس برجفة في صوته: «لم يستطع التحكم بها: «و ـــ الأنسة جوديث بليث؟ ماذا عنها؟»

قال روري: «اه، إنها تتصرف بحماقة، ولسوف تستمر في ذلك، هكذا يقولون، إلى أن تتزوج السيد اسكو. لقد مضت لتقيم بصحبة السير روبرت بليث وزوجته حين اعتقدوا بأن النبيل العجوز كان يموت منذ مدة قصيرة. بعض الفتيات الصغيرات يخفن من معشر الأموات، كما يبدو، وعلاوة على ذلك كان الأمر أكثر ملائمة، إلى حد ما، بسبب السيد آسكو».

قال نيكولاس فجأة: «خذنا إلى أولفرستون بأقصى سرعة ستبحر بها سفينتك يا روري، ومن ثم سننطلق على الجياد إلى كريغز وسنعرّج على السير روبرت في طريقنا».

قال روري: «أجل، أجل يا سيدي، بيد أنه حين نظر إلى نيكولاس، كانت عيناه الحادتان المعهودتان مضطربتين. حاولت مرة واحدة أن أعبر عن رأيي بصراحة. كنا ندور حول ساحل ويلز، وكانت سفينة روري الصغيرة تشق طريقها بصعوبة وثبات في بحر عات. كنا نساعد في ربط الأشياء وتثبيتها بالحبال وتحقيق الأمان التام حين رفع نيكولاس بصره فجأة بابتسامته المعهودة وقال: «تذكرك بسفينة الريفور ميشن، أليس كذلك يا نايجل؟» ضحكت مجاوباً إياه بينما أبعدت الشعر المبلل عن عينيّ راجّاً إياه، قلت: «إنها كذلك، هل كنت ستقوم بتلك المجازفة ثانية يا نيكولاس؟»

قال: «أجل، هنالك أشياء لاينساها المرء إطلاقاً».

بدأت السفينة الصغيرة تنطلق على نحو أكثر سهولة، ثم بدأت الغيوم تنقشع والشمس ترسل أشعتها على نحو متقطع فوق المياه الإقليمية المضطربة.

أطل نيكولاس بناظريه إلى البحر للحظة، وبعدها وضع يده على كتفي بينما وقفت أنا إلى جانبه. قال: «أمور لن ننساها مطلقاً يا نايجل»، وأدوكت بأنه ما من أحد يمكنه أن يسلبنا الحياة التي عشناها معاً.

قلت فجأة: «نيكولاس، دعنا نعود قبل أن يفوت الأوان. اطلب من روري أن يدخل بالسفينة ميناء ليفربول، ويمكننا أن نستقل سفينة من هناك».

قال: «لا عودة البتّة يا نايجل، ليس بالطريقة التي تقصد».

رميت بكل تحفظي بعيداً وقلت: «وليس بالطريقة التي تقصد كذلك يا نيكولاس، إن جوديث تلك التي تبحث عنها ليست موجودة هناك بكل معنى الكلمة. إنني أشك بوجودها هناك على الإطلاق».

قال نيكولاس: «إذاً، أليس ذلك سبباً كافياً لعودتي؟ لأنها قد تكون هناك؟»

آنذاك لم يعد بوسعي الكلام، رغم ذلك فقد شعرت بالراحة بطريقة ما. كان الفارق الزمني المفعم بالصمت الذي خلق حاجزاً غير سهل بيني وبين نيكولاس قدا انهار، ومرة ثانية أدرك كل منا ما يدور في ذهن الآخر.

رسونا في بلامبتون، قاصدين أولفرستون حوالي منتصف النهار. وهزنا روري بيده بحنان، حاشراً أصابعنا في قبضتيه الضخمتين وداعياً للتذكر أننا نملك صديقاً في أولفرستون إن احتجنا واحداً. قادنا إلى خان حيث حصلنا على جوادين جيدين ووجبة مقبولة. تريثنا لبرهة على أكواز المزر خاصتنا، إلا أن نيكولاس كان تواقاً للمضي بكل معنى الكلمة. طلب فاتورة الحساب وخرجنا إلى الاسطبلات.

دمدم سائس الخيل قائلاً لدى سماعه أن وجهتنا تقع على الجانب الآخر: «إن المد على وشك أن يبدأ فوق رمال ليفين».

قال نيكولاس على نحو ودّي حين قذف بقطعة نقدية للرجل: «إذاً سنكون في الوقت المناسب للعبور حين يبدأ المد».

عندما أدرنا رؤوس جيادنا نحو بوابة فناء الخان، خطرت لي فكرة على نحو مفاجيء. قلت: «نيكولاس! إن كان لا بد لنا من انتظار المد، فدعنا ننطلق على الجياد وندور من طريق قصر سوورث مور».

لم تكن عطفة طويلة. كان نيكولاس سعيداً إلى حد كاف ليمازحني. وبينما امتطينا صهوات جيادنا منفرجي الساقين في المجاز الضيق نسبياً ونظرنا، من جانب إلى آخر، إلى القصر الرمادي القابع في حدائقه الفاتنة، تذكرنا لقاءنا بسيدته منذ أكثر من عام وطمأنينة الروح التي انعكست على وجهها.

سألت فجأة: «هل سبق للأب بنديكت أن أخبرك كيف عبر جسد القديس كاث برت الخليج يا نيكولاس؟»

أجاب نيكولاس: «كلا، إنني حتى لم أكن أعلم مطلقاً بأن القديس المبارك قد عبر هذه الطريق».

قلت: «لقد فعل، في كلٍّ من حياته وموته، كما أن الأب بنديكت يقول بأنه لا زال بمقدورك أن تشعر بروحه على طول الطريق الذي سلكه الإخوة بينما حملوا جسده من شاطيء إلى شاطيء. ربما يكون الأمر كذلك، رغم أنني متيقن كل اليقين بأنهم لم يمروا بالقرب من كريغز مطلقاً. ومع ذلك، فإن لدي نفس الشعور فيما يتعلق بهذا المنزل. لا أدري لِمَ». انفتح باب، في تلك اللحظة تماماً، وخرجت سيدة طويلة مسنة تتكيء على كتف صبي صغير. رفعنا العنان، وقد أدركنا بأننا كنا نتطفل، وكنا سنحث جيادنا على السير للأمام لو لم يأتِ الصبي مهرولاً نحونا، داعياً إيانا للتوقف. فسرّ لاهثاً: «تعتقد جدتي أنكما لا بد صاحبيان لأنكما تمكثان لوقت طويل جداً. إنها تريد التحدث إليكما».

ترجلنا عن جيادنا منزعجين إلى حد ما، وخرج رجل من الاسطبلات ليتولى أمر جيادنا. كانت السيدة فوكس تنتظرنا، وركض حفيدها صاعداً إليها ليقدم كتفه ثانية. إنني لا أزال عاجزاً عن تحديد أين يكمن جمالها بالضبط. كل ما أعرفه هو أنها استطاعت أن تضع الجمال في قلوب الرجال، وقد بقي معهم. كانت ترتدي

غطاء واقياً للرأس والوجه من الحرير الأرجواني الفاتح، وبرداً من الحرير الأسود فوق ثوب نسائي ذي لون أرجواني فاتح، ووقفت بإحدى يديها مستريحة على كتف حفيدها والأخرى على عصاة من خشب الأبنوس. وأدركت أنه لا بد لي أن أتذكرها على هذا النحو لباقي أيامي.

انحنى نيكولاس على نحو منخفض جداً وقال: «نستميحك عذراً يا سيدتي. ليس لدينا عذر لنقدمه سوى أننا رأيناك مرة في الخارج تمتطين صهوة جوادك منذ سنة أو أكثر في يوم يحمل في طياته الكثير من الذكريات بالنسبة لنا. ولقد قدمنا هذه الوجهة لنحافظ على موعد لقائنا بتلك الذكريات».

نظرتْ، في البداية إلى نيكولاس ومن ثمّ إلي، وكانت في نظرتها الكثير من الذكاء. سألت: «هل ستدخلان؟»

قال نيكولاس: «كلا، أشكرك يا سيدتي، نحن منطلقان لندرك المد».

قالت السيدة فوكس مقدمة يدها: «لا بد لي إذن من أن أتمنى لكما رحلة موفقة».

انحنى نيكولاس ووضعها إلى شفتيه. إنه ليس بالشيء المتعارف عليه بين الصاحبيين، إلا أنها لم تسحبها. بعدئذ التفتت إلي، وبينما رقدت أصابعها فوق أصابعي، لم يعد بمقدوري أن أتمالك نفسي. كنت الطفل الذي ينظر عالياً إلى الصليب القابع فوق الشرفات المفُرجّة [1] حيث رقد رأس الأب آرو سميث المبارك، وتذكرت من جديد قصة توم هابرستي حول محاكمة مارغريت فيل، فكنت الصبي المرغم على التجسس على بطله، كارهاً نفسه وكذلك العالم بأكمله. لقد كنت أنا نفسي في ذلك الصباح من أوائل أيام الصيف أراقب، بلا حول ولا قوة، الولاء وهو يفي بعهده مع الغدر، وأتساءل عما إذا كان سيتلو ذلك شيء سوى المأساة.

---

(١) الشرفة المفرّجة: جدار ذو فتحات على سطح حصن يطلق منها النار.

قلت فجأة: «سيدتي، حين قلت إنه على الرغم من إخراجك من حماية الملك فإنك لا تزالين في ظل حماية الله القادر على كل شيء، أكان ذلك صحيحاً؟»

قالت بهدوء: «أجل».

«وهل كان ذلك صحيحاً على الدوام؟»

كررت: «أجل»

«وهل عنى ذلك أنك كنت في وضع آمن؟»

هزت رأسها وأجابت: «آه، كلا، لا يطلب المرء أن يكون في وضع آمن. بل يطلب أن يحفظ غير ملطخ بالعيوب الأخلاقية للعالم». آنذاك قبّلت يدها واستدرتُ لألحق بنيكولاس. وشعرت أن هموم قلبي قد خفّت عما كانت عليه لأيام عديدة، كما لو أن السنين قد تضاءلت فجأة لتعيدني إلى إلفورد.

عبرنا رمال ليفين حين كان المد منخفضاً، وصعدنا على متن الجياد عبر شبه جزيرة كارت ميل إلى أن قدمنا إلى قصر نذرسلاك في وقت مبكر من المساء.

حين اقتربنا من الباب خرج خادم مهرولاً ليتعهد جيادنا. قال: «السير روبرت، وزوجته في الحديقة الواقعة في الوسط يا سيدي، أأستدعي أحدهم ليرشدكما؟»

قال نيكولاس: «لا يهم، أيها الرجل الطيب، ابن عمي يعرف الطريق».

أسرعنا دائرين حول المنزل، ومارّين عبر المروج الممهدة إلى الحديقة الصغيرة القابعة في الوسط بحوافها العطرة المكونة من شجيرات البقس [1]. مشينا خلال الفرجة في وشيع [2] الشجيرات المقلّمة على نحو قصير لنجد السير روبرت

(١) شجيرة البقس: نوع من الشجيرات ذات أوراق صلبة داكنة اللون لا تتساقط خلال الشتاء، غالباً ما تزرع في صفوف لتشكل حائطاً أوسياجاً.

(٢) الوشيع: سياح من شجيرات.

وزوجته في حديث جادّ مع جوديث، التي كانت تقف إلى جانب المزولة في ثوب نسائي ذي لون أحمر ملتهب تمزق زهرة إلى أجزاء بأصابع فظة.

قالت السيدة بليث بلطف محاولة إقناعها: «لا يزال الوقت مبكراً جداً يا عزيزتي»

أجابت جوديث: «أؤكد لك يا سيدتي، لا يمكن أن يكون مبكراً جداً بالنسبة لي!» آنذاك، وعلى نحو مفاجىء، رفعت بصرها ورأتنا. اتّسعت عيناها باشمئزاز شديد أول الأمر، ثم صرخت برعب: «أنتما! لقد اعتقدنا أنكما ميتان منذ زمن بعيد. آه، لم عدتّما؟»

خبت الابتسامة من وجه نيكولاس، وللحظة ألقى يده فوق ذراعي كما لو أنه أراد أن يهدّىء نفسه. انذاك، أسرع السير روبرت والسيدة بليث نحونا ليرحبّا بنا، وفي غمرة الاضطراب العام كان لدى جوديث الوقت لتستعيد رباطة جأشها. إلا أنها لم تزعج نفسها في إخفاء مشاعرها عني. إنها لم تفعل ذلك مطلقاً. وربما كان ذلك هو السبب، رغم كل ارتيابي بها، في أنني كنت أحتفظ بعاطفة تجاهها استمرت منذ أيام الطفولة. ومن الجائز أن ذلك كان لأنني برفقتها كنت، على الأقل، أعرف دوماً موقع قدميّ.

قالت، بينما تحدث نيكولاس إلى أقاربها: «كان عليك أن تبقى بعيداً يا نايجل، لا مكان لك في كريغز».

سألت متجاهلاً تعليقاتها كما كنت أفعل غالباً: «كيف حال جدي يا جوديث؟»

قالت بلا اكتراث: «آه، مات أخيراً، لقد بقي وقتاً طويلاً يحتضر. والآن آسكو سيد في كريغز، وأنا أنوي الزواج منه، لهذا من الأفضل لك أن تمضي بعيداً يا نايجل، قبل أن يفوت الأوان».

استدار نيكولاس فجأة وصاح: «نايجل، لقد أخبروني بأن جدك قد توفي. أنزل الله الراحة والسكينة على روحه! علينا مواصلة السير نحو كريغز لأنك الآن السيد هناك مهما قال آسكو أو فعل».

سألت بمرارة: « هل أنا كذلك؟ وآسكو يجلس في كرسي جدي وفرانك ليمون عند مرفقه؟»

أكّد نيكولاس: «إنك كذلك حقاً! فجسد جدك لم يبرد في قبره بعد، حتى آسكو لا يجرؤ على أخذ مكانك، وبخاصة في حياة الأب بنديكت والعجوز توم هابرستي ــــــ و، وعلى نحو عرضيّ ابن عمك نيكولاس كريغ. ومع ذلك فإنه لا بد لنا أن ننطلق في الحال يا نايجل، وكلما أسرعنا كان ذلك أفضل لنريه بأنك لم تعد الصبي الذي كان يُرهبه بالصياح والعبوس، والذي اعتاد على إخضاعه ساعة يشاء».

قالت جوديث متهكمة: «أو ليس هو كذلك؟ أعتقد أنه من الأفضل لك أن تنتظر إلى أن تراه يعود إلى كريغز يا ابن العم نيكولاس، وستجد بأنه لا يزال نفس الجبان الصغير الذي يتصرف على نحو باعث على الازدراء. إنني أعرفه أكثر مما تعرفه أنت». نظرتْ إلي على نحو ساخر مهين، وكانت عيناها تشتعلان نزوعاً إلى الإزعاج، غير أنني لم أتفوه بكلمة. لم أكن واثقاً بنفسي بما فيه الكفاية. لم أكن، في الحقيقة، واثقاً من أي شيء عدا أن كريغز، ورغم أنني كنت سيدها، كانت لا تزال تملك القوة لتقهرني.

سأل نيكولاس نافد الصبر: «كم يبلغ ارتفاع المد؟ متى يحين أقرب وقت نستطيع أن ننطلق فيه؟»

ألّحت السيدة بليث: «ارتاحا هنا لهذه الليلة على الأقل، تبدوان متعبين جداً بعد رحلتكما، وعليكما ألا تعبرا الرمال في الليل، ابقيا هنا وأخبرانا ماذا حدث لكما، لكن لا تتكلما في السياسة مع السير روبرت، لأن تلك الأيام مضت، وسيكون من الحكمة جداً لنا أن ندفنها».

قالت جوديث ساخرة: «إن ابن العم نيكولاس لا يعتقد ذلك، بمقدوري أن أقسم بأنه ذهب إلى سانت جيرمان ثانية، أليس كذلك يا ابن العم؟»

قال نيكولاس: «للمرة الأخيرة، يا ابنة العم جوديث، لأدفن ماضيّ».

بعدئذ ولجنا إلى داخل المنزل، إذ قُدّم العشاء في البهو الكبير. بعد ذلك، عزفنا الموسيقا سوية. بدأ صوتي يتعب، فجلست وأصغيت بينما أنشدوا هم، وفكرت كيف أن الموسيقا كثيراً ما تبوح بما لا يجرؤ الكلام على البوح به.

حين شعروا بالتعب، تكلمنا عن أميريكا، وكان من عادة نيكولاس أن يزعم أن شيئاً ما عظيم كان في طور الولادة هناك. هتف: «إننا لن نعيش لنشهده، وربما لن يشهده أبناؤنا كذلك. إلا أننا سنكون قد شاركنا في إيجاده تدريجياً، وتلك مهمة تستحق أن يقوم بها الرجال والنساء الأحرار»

قالت جوديث: «حسن جداً، من الأفضل لك أنت ونايجل أن تذهبا إلى هناك وأن تكونا من الرجال الأحرار، لكن لا تطلب مني أن أكون إحدى نسائكن الحرّات. سيكون من الأفضل لك أن تتخذ لنفسك أميركية من الهنود الحمر».

قال السير روبرت بوقار: «إن سخريتك من ابن عمك هو تصرف فظ يا جوديث».

قالت جوديث: «لقد تصرف على نحو فظ حين سخر مني، الرجل الذي يعيش وقلبه في سانت جيرمان لا يملك سوى سبب ضئيل ليتذمر إن هو عُومل باستخفاف».

قال نيكولاس: «لقد أخبرتك بأنني قد دفنت ماضيّ يا جوديث».

قالت جوديث: «ربما يكون الأمر كذلك، وكيف لك أن تعلم أنه لن ينهض من بين الأموات مثلما فعلت أنت ونايجل؟»

قال نيكولاس متسائلاً على نحو متجهم: «أكنتِ أكثر سعادة لو أننا بقينا أمواتاً مدفونين تحت الثرى؟»

هزت جوديث كتفيها غير مكترثة وقالت: «ربما كان ذلك أفضل لكما».

قالت السيدة بليث: «دعونا نتسلى بمزيد من الموسيقا قبل أن نفترق لنخلد للنوم، إنكم جميعاً مرهقون ولا تفقهون شيئاً مما تقولون. إن أغنية ستجعل من مزاجكم أفضل للنوم».

شرع نيكولاس يدندن مقطعاً أو ما شابه من أنشودة «المغنية الرقيقة ذات الصوت العذب». إنني لم آبه على الإطلاق بغنائها منذ ذلك الحين. إلا أنه لا زال بمقدوري سماعها كما غنوها في تلك الأمسية، وأن أرى جوديث تنشد بمرح كعصفور، ونيكولاس تائه في جمال الأغنية، ذاك الجمال الذي سيكون على الدوام سرمدياً لا يُبليه كرّ الأيام.

«المغنية الرقيقة ذات الصوت العذب التي كانت مفعمة بالحياة

لم يكن يعرفها الكثيرون

وحين اقترب الموت ... حرر حنجرتها الصامتة من القيد

وهكذا ... ومسندة صدرها إلى الشاطىء المكسوّ بالقصب

أنشدت أغنيتها الأولى والأخيرة ... ثم لم تنشد بعد ذلك مطلقاً

وداعاً يا كل الأفراح! آه ... أصبحت أرى الموت نصب عينيّ

يعيش الآن عدد من المغفلين أكثر من الشعراء

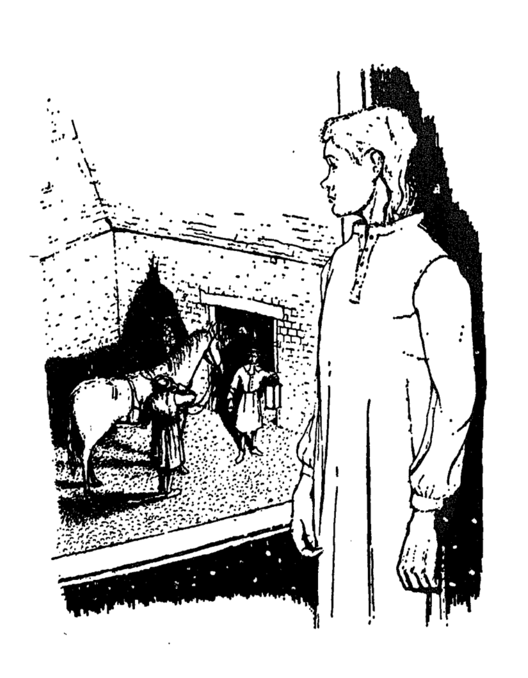
وعدد من الحمقى أكثر من الحكماء».

انخفضت الأصوات تدريجياً مع اقتراب نهاية الأغنية، وبعدئذ ساد الصمت. كان أريج الحديقة ينساق للداخل من خلال النوافذ المفتوحة، ورغبت أن تستمر تلك اللحظة للأبد تماماً في البرهة نفسها التي انفلتت فيها بعيداً عني.

قالت جوديث: «عليك ألا تغني هكذا يا نيكولاس، وإلا فإنك ستكون كأورفيوس ويوريدايس الساحرة خارج جهنم».

قال نيكولاس: «إنه لمبرر معقول للغناء بالتأكيد؟»

قالت جوديث: «جائز، إلا أنه ومع ذلك، فقد يوريدايس». قامت بانحناءة كبيرة جداً حين ودّعته متمنية له ليلة سعيدة. ولدى مرورها بي، توقفت ونظرت إلي في وجهي مباشرة ثم قالت: «ما كنت لتمدّ يدَ المساعدة للفاتنة يوريدايس خارج جهنم، أليس كذلك يا نايجل؟»



أجبت: «كلا، ليس إن أرادت هي البقاء هناك».

ضحكت جوديث، وأسرعت السيدة بليث متقدمة إيانا لتستدعي الخدم الحاملين للشموع ليُنيروا لنا الطريق إلى الأسرّة، تريثت أنا وكل من السير روبرت ونيكولاس من بعدهم لنتناول كأساً أخيراً قبل أن نمضي، غير أن الكأس كان مُرّ المذاق، وكنت سعيداً لأتركهما كليهما معاً وأصعد وحدي السلم المتلوية.

صعد نيكولاس لاحقاً، وكان لا يزال يدندن لنفسه بصوت خافض، وسرعان ماغطّ في النوم. استلقيت تحت ضوء القمر وقد جافاني النوم وتملكني إلى حد كبير، قلق من أنني لا أستطيع النوم. وحين ترامت إلى مسمعي أصوات حركة قادمة من فناء المنزل في الأسفل، امتلأ قلبي ريبة. لقد ذكرتني بكريغز وزوّار العم آسكو السريين الذين كانوا يفَدون مع حلول الليل. لكن هذه لم تكن كريغز، إذ أنه في أسرة مطيعة للقانون كهذه لم يكن ثمة مبرر لأي شخص أن يكون خارج فراشه في مثل هذه الساعة.

دفعني الفضول لأنسلّ بهدوء من الفراش إلى النافذة المفتوحة المزودة بشعرية. كان هناك خادم آتياً من الاسطبلات يحمل مصباحاً زيتياً، وتبعه آخر يقود جواداً. امتطى صهوته المسرّجة ثم كبحه.

قال الرجل الحامل للمصباح الزيتي: «تناول كأساً اخر من الشراب قبل أن تمضي أيها الغلام جاك. ستعصف الريح قارسة البرودة عبر منطقة الرمال».

قال الآخر: «أجل يا يعقوب، سيحدث ذلك، بمقدوري الاكتفاء برشفة من البراندي الخاص بالسيد إن كان بوسعك الحصول عليه».

ولج يعقوب للداخل وعاد بعد وقت قصير بكأس تجرّعه جاك قبل أن يركب جواده.

قال يعقوب: «ما كنت لأمضي في هذا الوقت من الليل، ولو كان ذلك من أجل جميع الآنسات الموجودات في العالم والمدعوات جوديث. لم لا يكون بإمكانها أن تدع رسائلها الغرامية تنتظر حتى الصباح؟»

قال جاك، مدخلاً يده إلى جيبه بسرعة: «لقد قالت أن هذه الرسالة استثنائية، وقد دفعت لي كذلك مبلغاً استثنائياً».

قال يعقوب: «ذلك حسن جداً، لأنك لن تحصل من السيد آسكو على الكثير من الشراب، حسب معرفتي به. حسناً، ها هو الحظ قد أتاك، أيها الصبي. سوف تحتاجه».

انطلق جاك خارج الفناء بسرعة من يمشي، وآنذاك سمعت وقع حوافر حصانه يتسارع بينما كان يحثّه ليعدو بسرعة. عاد العجوز يعقوب مدمدماً إلى داخل المنزل، وعمّ السكون كل شيء من جديد. التفتُّ للوراء إلى الغرفة، ورأيت ضوء القمر يسقط مباشرة على وجه نيكولاس بينما استلقى هو نائماً. بدا شديد الاطمئنان كما لو كانت أحلامه سعيدة. تساءلت عما إذا كان علي إيقاظه وإخباره بما قد سمعت خلسة، غير أني، في نهاية الأمر، تركته يتابع نومه. اعتقدت أنه أكثر سعادة هكذا.



الفصل الرابع عشر

لا تخف بعد الآن



انطلقنا في الصباح التالي، وفور انحسار المد، إلى كريغز، وأتت جوديث معنا. لم تُجدِ كل تحذيراتي لنيكولاس نفعاً معه.

اعتقدَ أنني ربما رحلت بالمشهد الغريب في فناء الاسطبل في الليلة السابقة، وحين أكدت له بشدة بأنني لم أكن أحلم، كان لا يزال مصراً بأن ذلك لا يقلقه، لأنه من المؤكد أن جوديث حرة في أن تراسل آسكو في أيما ساعة تختار.

سأل: «لو أنها، كما تتصور، قد أرسلت له نبأ قدومنا، فما علاقتي أنا بذلك؟ إن الموضوع يتعلق بك أكثر يا نايجل، لأن الإرث الذي يرغب باغتصابه هو إرثك وليس إرثي. أما بالنسبة لأية مجازفة أكثر خطورة ـــــ فلماذا يا رجل، إنه لا يجرؤ! إن جميع أنحاء الريف تعلم أنك الوريث القانوني. علاوة على ذلك،

أنت لم تعد طفلاً. إننا نسير في اطمئنان، إلا أننا نسير مسلحين، وحتى في كريغز نفسها لدينا من يناصرنا بأعداد كافية. إن اسكو ليس بالأحمق يا نايجل!»

لم أستطع إقناعه بأن علينا أن نتخوّف من أي شيء. ولم يتبقّ لي سوى أن أسير برفقته مهما كان القدر يخبىء لنا في كريغز. وبينما نحن في هذه الحالة، قدمت جوديث بيننا. كبحت جماح فرسي وتراجعت وراءهما، وعبرا سوية منطقة الرمال. وحسبما أذكر، أخذت تمزح بينما كانت تسير بجوادها، وكان نيكولاس مبتهج الفؤاد. راقبته وهو يسير بجواده كما لو كانا شخصاً واحداً، وتذكرت يوم رأيته يربّت على رقبة حصانه المتعب وكيف أن تلك الإيماءة قد غيرت حياتي وحياته.

ما كنت لأستوعب الأمر بطريقة أخرى. غير أنه في ذلك الوقت، بدا أنه لا شيء سوى الأحزان كانت في انتظارنا كلينا.

أخذت صخور كارت ميل تصفر بينما ازدادت الصخور المتوضعة على الجانب البعيد وضوحاً، إلى أن بلغنا في نهاية الأمر الشاطىء الجنوبي ومشينا في حذر واحتراس عبر سديم الشاطىء نحو كريغز.

سرت بجوادي على نحو بطيء وباحجام، بيد أنه حين أصبح المنزل الرمادي اللون الواقع في مستوى من خط النظر، حثثت جوادي للأمام لأكون، برغم كل شيء، بجانب ابن عمي إذا ما احتاج إلي.

وقف رجلان سوية خارج الرواق المسقوف، ولدى رؤيتي لهما تسارعت ضربات قلبي. أحدهما كان واضحاً بالنسبة إلي. رفع عمي آسكو وجهه المكفهر ونظر إلينا واحداً تلو الآخر في نفس اللحظة التي أخذنا نقترب فيها، وحين أبصرت

النّدب الطويل يمتد أسفل وجنته حيث كنت قد جرحته، امتلأ قلبي ذعراً. غير أنني أمسكت جوادي بين ركبتيّ بإحكامٍ وتشبث وقدّته نحو الأمام. كان من الجليّ أن الرجل الآخر هو سيد نبيل ذو منزلة رفيعة إلى حدكافٍ إذ كان هناك في الخلف خادم يرتدي بزة مميزة يمسك له جواده، غير أن وجهه كان غير مألوف بالنسبة لي. منذ آخر لحظة عشتها في كريغز، لم ألتقِ أسياداً نبلاء من ذوي المنزلة الرفيعة.

أصبح وجه نيكولاس أكثر وقاراً كما لو أنه قد استشعر وجود الخطر، غير أنه تابع السير بجواده على نحو مطّرد ثم ترجل عنه، ورمى العنان إلى توم هابرستي. إلا أنني أذكر أنه نظر مرة للوراء من فوق منكبه، كما لو أنه أراد التأكد بأنني كنت أتبعه. ترجلت جوديث بسرعة وقامت بانحناءة لبقة إلى السادة النبلاء قبل أن تدخل المنزل. لم يتبعها أحد. بعدئذ انحنى نيكولاس لعمي آسكو وللغريب. ردّ السيد النبيل الانحناءة وقدّم يده.

قال: «إنك لا تعرفني، سيد كريغ. إلا أنني كنت أعرف والدك وجدك حق المعرفة. وهذا هو سبب مجيئي. لأنه، ولأكون واضحاً معك، بلغني خبر هذا الصباح بأنك أتيت إلى هنا في مهمة تنطوي على خيانة، وإن كان الأمر كذلك فإنني قاضٍ ولا بد للقانون أن يأخذ مجراه».

قال نيكولاس بثبات: «تلك كذبة يا سيدي».

«لقد سمعت أيضاً أنك زرت سانت جيرمان مؤخراً واصطحبت معك هذا النبيل الصغير، وأنكما، كليكما، تمارسان العمل في السلك ذاته».

قال نيكولاس: «تلك هي كذبة أيضاً يا سيدي، ما عدا أنني زرت سانت جيرمان برفقة ابن عمي لألقي بعض تحيات وداع كان لا بدمنها، وأنني أحضرت

صورة والدتي وسيف والدي معي و ـــــ لا شيء آخر. أقسم بشرفي يا سيدي».

قال القاضي: «أصدقك يا سيدي. لكن، ماذا عن خططك للمستقبل؟»

قال نيكولاس: «إنني أنوي الإبحار نحو العالم الجديد، ولسوف أبني حياتي هناك، بإذن الله».

قال القاضي: «آمين من أجل ذلك يا سيدي. غير أنه حريٌّ بك ألا تتأخر في البدء برحلتك، وبخاصة أن كاتب هذه الرسالة، أياً كان أو كانت، يراقب تحركاتك». أخرج رسالة من جيب صدره ومزقها إلى قطع صغيرة مراقباً وجه آسكو المبهم بنظرة حادة بينما كان يقوم بذلك. سأل فجأة: «ماذا عن الغلام؟»

تردد نيكولاس للمرة الأولى، ثم قال في النهاية: «ابن عمي هو الصديق الوحيد الذي لدي، غير أنه وريث كريغز».

نظر القاضي إليه نظرة ذات مغزى، وقال: «إن كانت إذن لصداقته قيمة عندك، فلا بدّ لك من اصطحابه معك».

استدعى خادمه المُبزّ وركب متن جواده. حضر توم هابرستي للخارج ومعه كأس الركاب (١) هازاً إياه على نحو لطيف.

قال مودعاً: «طاب مساؤكم أيها السادة». ووقفنا حاسري الرؤوس بينما راقبناه ينطلق مبتعداً.

حين سكن في البعيد آخر صوت لوقع حوافر الجواد، وضع نيكولاس قبعته بسرعة على رأسه واستدار ليواجه عمي. إنني لم أره قط يبدو شديد التجهم هكذا.

---

(١) كأس من خمر يتجرعه راكب على وشك الرحيل.

قال بتمهل: «آسكو، لقد قلتُ لدى مغادرتي لهذا المنزل بأنك لص لعين، الآن وقد عدت إليه، فإنني أقول بأنك خائن لعين».

نظر آسكو إليه بوجه كالح، وارتجف الندب الطويل على وجنته للحظة. قال: «إنها لعبارات قاسية يا ابن العم. لو كنت أعتقد أنك رجل نبيل لطالبتك بمبارزة تعويضاً عن الإهانة التي ألحقت بي».

قال نيكولاس بثبات: «أنا في خدمتك يا ابن العم».

سأل اسكو: «الآن؟»

أجاب نيكولاس: «كلما أسرعنا كان ذلك أفضل».

قال اسكو: «ثمة بقعة رمال ثابتة قائمة هناك سوف تفي بغرضنا على نحو حسن جداً». وأطلق التصفيرة الخفيضة التي كان يستدعي بها على الدوام فرانك ليمون. قدم فرانك راكضاً من الاسطبلات ليقوم على خدمة سيده، وانتقل أربعتنا إلى منطقة الرمال.

علق فرانك: «من الأفضل لكم إنجاز عملكم بسرعة أيها السادة، إن شدة الضياء لهذا النهار ستخبو قريباً».

كانت الشمس لا تزال تضرب بأشعتها على نحو قوي فوق الخليج، غير أنه كان بوسعي رؤية السحب الرقيقة تتجمع في السماء كما لو كانت تُعد للغروب. فكرت بأن الضياء سيستمر لبعض الوقت. لقد كان كافياً لما لا بد من القيام به. لكنني حين نظرت عبر الرمال، خطرت لي فكرة على نحو مفاجىء. اقتربت من نيكولاس وغمغمت قائلاً:

«نيكولاس، أصغ، إن آسكو مثاقف بارع. إنك ستواجه خصماً يجاريك كفاءة».

أجاب نيكولاس بهدوء: «أعلم ذلك».

همست: «أجل يا نيكولاس، لكن ذلك هو الخطر بعينه. إنه حين يجد بأنه يواجه خصماً يكافئه في البراعة، من الجائز أن يلجأ إلى أساليب أخرى».

«ماذا تقصد؟»

«ربما حاول إجبارك على الدخول في منطقة الوعث. بحق الله، توخّ الحذر. أصغ يا نيكولاس، لا تُخلِ مكانك له ما لم تكن مضطراً لذلك، وإن اعتقدتُ أنك ستقع في خطر، سأصرخ «كن حذراً!» وعليك أن تنتبه إلي ما دام لحياتك قيمة لديك».

كنا قد وصلنا الموقع في ذلك الحين. خلع نيكولاس قبعته العريضة الحافة، الشبيهة بتلك التي يعتمرها الصاحبيون، ذات الريشة الكبيرة المتجعدة، ومن ثم معطفه.

وقف، نحيلاً، مستقيم الجسد، وعريض المنكبين، وهو يرتدي قميصه وسرواله القصير الخاص بركوب الخيل، وكنت أعتقد، كما سبق لي أن اعتقدت غالباً، أنه رجل أنيق المظهر. إنني لا أطلب رؤية رجل أكثر أناقة. وقف آسكو في مواجهته، طويلاً وقوياً. كان وجهه العابس متجهماً وعازماً على أمر ما.

أضاعا القليل من الوقت في الشكليات. لقد كانت نتيجة الصراع أكثر خطورة من أن يُضاع فيها الوقت في أمور كهذه.

وقفت أنا وفرانك ليمون بينهما للحظة، وفور أن خطونا مرتدين للوراء بدأت معركة الحياة أو الموت.

أخذت أراقب دون أن يكون بمقدوري فعل شيء بينما كانا يندفعان للأمام بقوة ويقومان بالحركات الدفاعية ثم يندفعان للأمام من جديد. كنت أركز على شيء واحد فقط، وهو تحذير نيكولاس عند ظهور أولى علائم الغدر.

لقد ظهرت تلك العلامة، كما كنت أتوقع بأنها ستظهر، غير أنني أدركتها فقط من النظرة الموحية بالارتياح الخبيث التي بدت على وجه فرانك ليمون. صرختُ: «احذر يا نيكولاس!» واستعاد نيكولاس، الذي كان آسكو يهاجمه بضراوة، موقعه بحذق وهاجم بدوره آسكو. لقد كانا ندّين يتعادلان قوة وبراعة إلى حد كبير. كان نيكولاس الخصم الأقوى، بينما آسكو الخصم الأكثر مكراً. لم يتمكن أيٌّ منهما من التأثير في تيقظ الآخر تأثيراً ذا أهمية، ولم يكن أي منهما ليتخلى عن موقعه للآخر. مرة تلو أخرى قام آسكو بمهاجمة نيكولاس دافعاً إياه نحو بقعة الرمال الغادرة والقائمة بالقرب من القناة، ومرة تلو أخرى، حين كنت أصيح «توخّ الحذر يا نيكولاس!» كان يخلّص نفسه من الفخ ببراعة مثيرة للإعجاب.

لم نرَ جوديث مطلقاً. سامحني الله، إنني لم أرها مطلقاً تأتي راكضة خارج المنزل وعبر الرمال، إلى أن سمعت صرختها: «لا يا آسكو، لا! ليس كذلك!». وشاهدتها تندفع بسرعة إلى وسط المعركة وتمسك بآسكو من ذراعه اليسرى. ارتدّ نيكولاس للوراء باحترام بالغ لها كامرأة وأنزل مقدمة سيفه. طرح اسكو بجوديث أرضاً بلعنة قوية ووجّه طعنة لنيكولاس مباشرة في قلبه قبل أن يتمكن من استعادة حذره.

بذل نيكولاس جهداً ملفتاً للنظر ليصدّ الهجوم الغادر. رفع سيفه بسرعة حين اندفع آسكو بقوة نحو الأمام، وأخطأت الضربة قلبه لتطعن كتفه. تراجع للوراء والدم يتدفق من جرحه، وأمسكته بين ذراعيّ وجثوت في ذلك المكان فوق الرمال، مسنداً رأسه إلي. حاولت بلا جدوى أن أرقِيء الدم.

قال آسكو ببرود بينما كان مستنداً إلى سيفه يلهث: «إنك تضيع وقتك يا نايجل!»

أنزلت بصري ثانية إلى نيكولاس، مروّعاً لإدراكي على نحو مفاجيء أن جرحاً كهذا يمكن أن يكون قاتلاً، غير أنه كان بوسعي أن أشعر به يستند إلي على نحو ثقيل أكثر من أي وقت مضى في الوقت الذي أخذت فيه قوته بالتراجع.

آنذاك، فتح عينيه، وللحظة كنا نحن الاثنان وحيدين في الوجود سوية. قال: «نايجل ـــ تذكر ـــ»

أجبتُ: «على الدوام!»، وفكرت«آه يا إلهي، لا تدعه يمت!»

أطبقت عيناه مرة ثانية واتخذ وجهه لوناً شاحباً كشحوب الموتى بينما كان الدم الذي يمده بالحياة يتدفق سدى. قلت: «على الدوام يا نيكولاس!ش

كانت جوديث قد فرت عائدة للمنزل وهي تصرخ. حين بلغت السور البحري المنخفض، خرج الأب بنديكت من الروّاق وسمعته يناديني. رفعت يدي، وأشرت باتجاه السماء علّه يدرك الحال الذي كان عليه نيكولاس.

آنذاك وقف الأب بنديكت ساكناً بلا حراك قريباً من الشاطيء، وكانت جوديث جاثمة عند قدميه تبكي. منحه الغفران وهو يرفع يده في مباركة له.

حين رفعتُ رأس نيكولاس، فتح عينيه من جديد، وبكل وضوح، بلغتنا الكلمات محمولة مع نسيم الماء.

«إنني أُحلّك من جميع خطاياك!»

تحرك نيكولاس حركة ضئيلة لآخر مرة في حياته وأشرق وجهه. قال لاهثاً: «في يدك ـــــيا أبتي ـــــ!»

ومن ثم سقط بين ذراعي ثانية. إنه لم يفتح عينيه أو يتحرك ثانية على الإطلاق. غير أنني كنت أعلم أن جميع أموره على ما يرام.

قال صوت قريب مني أوقع القشعريرة في جسدي: «إنك تضيع وقتك سدى، لقد مات».

مددت ابن عمي برفق فوق الرمال، ووضعت يديه متصالبتين فوق صدره. بعدئذ رفعت ناظري إلى وجه عمي. حينها أدركت أنني أصبحت وحيداً، ولم يعد هنالك أي شخص ليقف حائلاً بيننا بعد ذلك الحين.

أبصرته يبتسم بينما كان يقرأ أفكاري. التفتُّ للخلف إلى نيكولاس في الوقت الذي كان فيه مستلقياً وقد أسلم الروح، وتملكني شعور بالذعر على نحو مفاجىء. كانت تعلو وجهه سيماء اطمئنان بدت أنها تحول بيني وبينه لتتركني وحيداً، بلا حول ولا قوة، في مواجهة آسكو، الذي كان سيفه لا يزال مضرّجاً بدماء ابن عمي. أطبق الهلع قبضته علي، وشعرت بنور عينيّ يذهب مني في حالة الضعف تلك التي عشتها.

فجأة نهضت واقفاً، وقاومت لبرهة لأسيطر على عواطفي وأنا أدير ظهري لآسكو. أنزلت بصري إلى الرمال القاتمة اللون الممتدة من موقع قدميّ كرقعة مترامية الأطراف على نحو لا منتهى له، ولم يكن قد تبقّى أي شيء آخر في الوجود.

فوق الخليج، امتد السكون الذي يسبق عودة المد، وكان الماء اخذاً في الاضطراب في القنوات. هبّت نسمة عليلة، وحين غضّت صفحة المياه في البرك الموحلة، أبصرتها تتوهج بنور منعكس. آنذاك، رفعت عينيّ في نهاية الأمر لأرى أن المهرجان البطيء لغروب الشمس كان قد بدأ، وكانت السحب ذات البياض الثلجي تتحرك برفق فوق الحمرة الوردية وزرقة سماء الغرب، وظهرت تلال ويست مورلاند، ممتدة في سلسلة عبر الأفق، أدكن زرقة في مقابلة اللون الذهبي للسماء.

وفجأة، فقدت كامل إحساسي بالزمان والمكان، أو أي شيء ما عدا ذلك المجد البعيد، وسمعت بالوضوح الذي سمعت به أي شيء في حياتي، من قبل أو منذ ذلك الوقت، صوت روبرت بارو قائلاً: «رغم أنه يقتلني، إلا أنني، مع ذلك، سأثق به». حينها نهضت واقفاً. ليس بوسعي القول كيف كان ذلك، لكن ومنذ تلك اللحظة لم أعد أشعر بالخوف.

قلت: «علينا حمله إلى داخل المنزل».

رفعت كتفيه، وقدم العجوز توم هابرستي باكياً ليأخذ بقدميه. مشى الأب بنديكت أمامنا، مصلياً لروح الرجل المتوفى، إلا أنني كنت أعلم أن نيكولاس مع الله.

حملناه إلى كريغز ومددّناه فوق سرير جدي الكبير العالي القوائم. وقفت لبرهة بالقرب منه ناظراً للأسفل إلى ذلك الوجه الهادىء. عندئذ أبصرت عمي اسكو يقف في المدخل. قام بالإيماءة المعتادة، وأدركت بأن الوقت قد حان. استدرت للخلف مرة أخرى، ودسست يدي داخل جيب صدري لأخرج غصين الخزامى الذابل الذي أعطتني إياه ماري كروس جانب سرير روبرت بارو، ووضعته تحت الأصابع الباردة. وهكذا ودّعت نيكولاس. بعدئذ، خرجت لأواجه عمي آسكو تاركاً الأب بنديكت جاثماً على ركبتيه إلى جانب نيكولاس.

تبعته إلى داخل الغرفة المألوفة. لم أعد أشعر بالخوف منه.

قال: «لقد آن لنا أنا وأنت يا نايجل أن نتوصل إلى تفاهم. إذاً فقد أتيت لتطالب بإرثك؟»

قلت: «هذا صحيح» ونظرت إليه مباشرة في وجهه. إذ أنني كنت قد حصلت لتّوي على إرثي -: الشجاعة التي واجه أجدادي بها الموت في سبيل مثلٍ أعلى. لم تكن ثمة أهمية لأي شيء اخر.

قال عمي: «إذن من الأفضل لك يا نايجل أن تصغي إلي، هناك شروط معينة لا بد من التقيد بها إن كان علينا أنا وأنت أن نعيش سوية في هذا المكان. أولاً، أنا من يجب أن يكون السيد، وفيما يتعلق بالنقطة الأخرى، فلا بد أن أُطاع. سوف يستحق منك الأمر عناء تذكر هذه الشروط يا نايجل».

قلت: «لكن، إن أنا لم أقبل بها».

قال آسكو بإصرار: «إنك لا تفهمني يا نايجل، إنك لا تزال صبياً صغيراً، غير أن الوقت حان لكي تكبر وترى الأمور على حقيقتها. لقد جئت لتطالب بإرثك، ويمكنك الحصول عليه ــ بشروطي أنا».

قلت: «أفضّل الموت».

قال اسكو ببرود: «ثمة سبل مربحة أكثر للتخلص منك يا نايجل» وأومأ بيده.

كان بوسعي أن أشعر بفرانك ليمون ودافت ويلي من ورائي يتحركان صاعدين ببطء، ورغم ذلك فقد وقفت مواجهاً إياه برأس مرفوع.

قال عمي: «من الأفضل لك أن تفكر بسرعة يا نايجل، إنني أعرض عليك أن أقبل بك كوريث لكريغز وفق شروطي أنا. سوف تطيع أوامري، تعمل لدي، تحفظ أسراري، وتشاركني ــ بما أراه أنا مناسباً لتشاركني به».

قلت بثبات: «وإن لم أفعل؟» في الوقت الذي شعرت فيه بفرانك ليمون ودافت ويلي يقتربان إلى الخلف مني.

قال آسكو: «كما سبق أن قلت، هنالك سبل مربحة أكثر للتخلص منك». وابتسم ابتسامته البطيئة القاسية.

سألت: «تقصد أنك ـــ ستبيعني للمستعمرات؟» وتذكرت للحظة الرعب والاشمئزاز الشديد اللذين أصابا ذلك الغلام الصغير حين رأى الجسد المنهك لرجل حُمل للخارج نحو اللّغر [1].

قال آسكو على نحو مقيت: «بالضبط».

فكرت بالوجه المهزول لويل هوكين، وبكتفيه المُسمَّرتين ذواتي العضلات المفتولة والمجلودتين بالسياط، وبصرخته الأخيرة المحتضرة: «قل لها بأنني لا زلت باق على إخلاصي!»، ودعوت الله بألا أحيا إلى ذلك الوقت. عندئذ نظرت إلى عينيّ اسكو مباشرة.

قلت: «سامحك الله يا عمي!» رمقني بنظرة مندهشة حملت في ثناياها مسحة متحفظة من الاحترام.

سأل على نحو يعبر عن الشك: «تقصد بأنك ترفض؟»

قلت: «أقصد بأنني أرفض»

قال عمي: «حسن جداً، وأومأ للمرة الأخيرة إلى الرجلين الواقفين خلفي.

وُضعت يد فوق فمي بقوة، وثُنيت ذراعيّ بعنف إلى الخلف. لم يمض وقت طويل قبل أن أُجرّد من السلاح، وأُقيّد، وأُحوّل إلى ما يشبه تماماً الجسد المنهك للرجل الذي كنت رأيته في طفولتي.

حملاني للخارج نحو السقيفة ورميا بي فوق الأرضية الحجرية وتركاني هناك.

---

(١) مركب ذو شراع رباعي الأضلاع أو أكثر.

تذكرت كيف أنني كنت قد حبست في ذلك المكان منذ أكثر من عام وكيف أنني هربت لأنقذ نيكولاس. لكن هذه المرة لن يكون ثمة هروب. كان فرانك ليمون ودافت ويلي قد احتاطا للأمر على نحو حسن جداً.

مر الوقت، وأصبح الجو بارداً. تألمت أوصالي تحت وطأة الحبال التي كُبّلت بها. وأخذت أتساءل عما إذا كنت سأموت في ذلك المكان قبل أن يأتوا ليرسلوا بي إلى المرحلة التالية من رحلتي المقيتة. فكرت بنيكولاس وبالطمأنينة والهدوء اللذين بديا على وجهه، وللحظة تمنيت لو أن آسكو طعنني بسيفه، في ذلك المكان فوق الرمال في الخارج، ومكّنني من أن أشارك نيكولاس ذلك الموت وتلك الطمأنينة. إلا أنني في تلك اللحظة تذكرت بأنني قد حصلت على إرثي، وأن علي مواجهة ما ينتظرني من أمور حتى النهاية.

لم يخرق سكون الليل شيء سوى نعيق البوم في أشجار الطقسوس المسنة القائمة فوق البستان. كان المد سيبدأ قريباً، وعندها سيأتي اللّغر خلسة صاعداً إلى أعلى الساحل لينتظر عند مدخل الجون، وسأغادر كريغز إلى الأبد. كان الألم يزداد في ذلك الوقت، وأعتقد أنني لا بد فقدتُ الوعي للحظة.

لم أسمع مطلقاً أي صوت في الخارج. لكن فجأة، رُدَّ لسان القفل برفق إلى الوراء. وفي لحظة عاد إلي صفاء ذهني من جديد، وأخذت أُعِدّ نفسي لما كان لا بد من وقوعه. دخلتْ المكان خطوات بحذر، وسمعتُ شخصاً ما يشعل شمعة. بعدئذ شعرت بالعجوز توم هابرستي يمزق قيودي، وأثناء ذلك أخذ يشتم ويسبّ بحماسة، وبابنة العم إيزابيل تزيل الضماد عن عينيّ بأصابعها النحيلة.

قال العجوز توم هابرستي: «آه، سيد نايجل، حمداً لله أنني وجدتك» بينما كان يحرك عقدة الحبل العنيدة وكأنه في صراع معها، وآنذاك سحب مديته لقطع الحبال ويحررني. «كنت أشبه بالمجنون منذ أن فقدتك. لقد أخبروني بأنك قد

فررت وأدركتُ أنها كذبة، فأخذت مصباحاً زيتياً وخرجت إلى منطقة الرمال لأنقذك في حال كانوا قد قرروا في عقولهم الشريرة أن يرموا بك في الوعث. وعندها، بحثت عني السيدة إيزابيل في الخارج وأخبرتني بأنها قد رأتهم يحملونك من غرفة السيد آسكو. وأدركت أننا لا بد سنجدك هنا».

كانت ابنة العم إيزابيل قد أحلت الضماد عن عينيّ، ونظرتُ بعينين طارفتين نصف مفتوحتين في ضوء المصباح الزيتي الذي كانا قد وضعاه على الأرضية قريباً مني. بعدئذ حاولت حلّ الكِعام [1] قدر استطاعتها.

كانت العقدة أوثق من أن تقدر على حلّها، إلا أنها في نهاية الأمر انتزعتها، ووضعت إلى شفتي زجاجة براندي.

حين شرقتُ، بعض الشيء، بالشراب وحاولتُ المقاومة لأحرر نفسي، أطلقت ضحكتها المعتادة العالية ووضعت الزجاجة إلى شفتيها. قالت: «لكن يا نايجل عليك أن تشرب أنت أيضاً، وذلك لأن الشيطان كان ولازال يمتص دمك».

كان العجوز توم يفرك أوصالي المتوجعة محاولاً أن يثير الحياة فيها من جديد. قال: «تعالي، سيدة إيزابيل، لا بد أن تمدي يد المساعدة في هذا العمل. بحق الله، سيد نايجل، حاول أن تستيقظ. إن المد قادم».

استجمعت قواي بجهد كبير جداً. تناول العجوز توم زجاجة البراندي من ابنة العم إيزابيل وأعطاني إياها.

فجأة، انفصلت ابنة العم إيزابيل عنا وأخذت ترقص على نحو جامح حول السقيفة.

---

(١) شيء يقحم في الفم لإبقائه مفتوحاً أو لمنعه من الكلام أو الصراخ.

قال العجوز توم: «هس، سيدة إيزابيل! هس، وإلا سمعك السيد آسكو».

سألت: «أين هو؟»

توقفت ابنة العم إيزابيل عن الرقص ووضعت إصبعاً إلى شفتيها. همست: «في غرفته، لقد رأيته في ذلك المكان، لكنه لم يرني. كان يغطّ في النوم وزجاجة البراندي إلى جانبه. إن إبليس يذهب للنوم في بعض الأحيان، كما تعلم، وحينئذ يكون علي أن أرقص فوق قبره».

قلت مداعباً إياها بطريقتي المعتادة: «آه، كلا يا ابنة العم إيزابيل، إنك ستخرجينه من قبره إن بدأت بالرقص فوقه، وعندها ستكون العاقبة وخيمة، خصوصاً بعد أن سرقت البراندي».

قالت ابنة العم إيزابيل: «إنني لم أسرق الأشياء الأخرى، إنها ملكك أنت». نظرت من حولها بوجه خالٍ من التعبير ومن ثم اندفعت كالسهم نحو الباب.

كانت واقفة بالقرب منه في الوقت الذي أوقفني توم هابرستي أخيراً على قدميّ. استندتُ إلى ذراعه رامياً أغلب ثقلي بينما مشيت باتجاهها. قدّمت لي حقيبة صغيرة ملأى بالذهب وقالت: «إحرص عليها من أجله يا توم، لم أعد أريدها. فقط لا تدع إبليس يحصل عليها». عندئذ أخرجت سيف نيكولاس. حين أعطتني إياه، كانت الدموع تترقرق في عينيها. قالت: «إنك الرجل الأفضل في عائلتنا والأهلُ لارتدائه يا نايجل».

ولم تكن تبدو أنها مجنونة على الإطلاق. بعدئذ، غادرتنا وهامت عائدة إلى المنزل. سمعناها، للحظة، تغني إحدى أغنياتها القديمة الصاخبة ـــــ.

«لقد مات ورحل يا سيدتي،

لقد مات ورحل».

أنصتنا بتركيز، غير أن أحداً لم ينتبه إلى الخطر، كما كان يبدو.

لم يكن، برغم كل شيء، أمراً جديداً في كريغز سماع ابنة العم إيزابيل تغني إلى ساعة متأخرة من الليل.

أطفأ العجوز توم مصباح الزيت. لم نجرؤ على إظهار أي ضوء. وزحفنا في الظلام الدامس هابطين نحو الجون، وآملين بأن نجد القارب ونتمكن من الفرار من قبل أن يستيقظ رجال آسكو ويشرعوا في ترقّب اللّغز. غير أننا حين أخذنا نقترب تدريجياً وباطراد من مكان الإرساء، ترامت إلى مسمعنا أصوات فتجمدت أقدامنا في مواقعها.

كان فرانك ليمون ودافت ويلي يمشيان الهوينى سوية في المجاز الضيق. وكان ويلي يحمل في يده مصباحاً زيتياً. انسللنا للخلف باتجاه ظل المراحيض الخارجية وأنصتنا.

قال دافت ويلي: «لقد فات موعد وصولها، ربما يكون من الأفضل لك أن توقظ السيد اسكو».

قال فرانك: «ليس حتى تكون في ذلك المكان وتظهر إشارة ضوئية، إن إيقاظي له دون مبرر يكلفني حياتي. لقد كان يشرب».

اقترح ويليّ: «حسن إذن، دعنا نحضر الصبي ونطرحه داخل القارب ونُعدّه».

أمسك العجوز توم بيدي بإحكام وتشبث إلى أن المتني وهمس في أذني: «كن مستعداً!» وأدركت بأنه يقصد أن علينا أن نكون جاهزين لنندفع نحو القارب إن هما أظهرا أية علامة تدل على انعطافهما في جهة السقيفة.

قال فرانك ليمون: «من الأفضل تركه حيث هو».

قـال دافت ويلي ضـاحكاً: «أتصـور أنه لم يلاقِ بعـد كل مـا هو مـخبـأ له». واستـدارا عائدين ومشيا في اتـجاه الشاطىء. ولمع، في تلك اللحظة تماماً، ضوء على نحو باهت بعيداً في الخليج.

قال ويلي عندمـا حـمل مصباحه الزيتي عالياً مستجيباً للإشارة: «هاهي، وهنالك أيضاً وقت كاف. هل ستذهب الآن وتوقظ السيدآسكو؟»

قال فرانك ليمون: «توقف عن الكلام وتولّ أمر القارب، أنا ذاهب».

لم يبلـغ ويلي القـارب مطلقاً، إذ نـاوله توم هابرسـتي لطمـة سريعـة جعلتـه يدور، وسقط فاقد الوعي بالقرب من الجون بينما اندفعنا نحوه بسرعة وجموح.

قلت: «لا تتركه هناك يا توم! ربما وصل المد إليه».

عاد العجوز توم متذمراً ليسحب الرجل للأعلى إلى حيث الأمان. بعدئذ، وثب إلى داخل القارب إلى جانبي وقال:

«أسرع، سيد نايجل! تولَّ المجدافين بينما أتدبر أنا أمر الشراع، وبحق الله جدّف من أجل حياتك. إنهم قادمون».

وبينما أخذتُ أجدف أسفل الجون وبعيداً باتجاه القناة، نسيت أمر أوصالي المتألمة. كان توم هابرستي يعمل على نحو سريع في الظلمة. كان يعلم مكان كل شيء في أي قارب وهو معصوب العينين. وعندما جذب الكرّ[1] وثبته بإحكام، سمعنا صراخاً قادماً من الجون وأصواتاً كما لو كان أحدهم يُنزل قارب تجديف في المياه. لكننا في ذلك الحين كنا بعيدين في الخليج، وأخرجت المجدافين من الماء وأدخلتهما إلى المركب في الوقت الذي استقر فيه العجوز توم في مؤخر المركب وفررنا مع الريح صوبَ الحرية. لم يكن ثمة حاجة لنخاف أن يتبعنا أحد.

(١) حبل لرفع راية أو شراع وخفضهما.

نظرت للخلف نحو كريغز وأبصرت ضوءاً يتحرك، وأدركت أن ذلك هو الوداع الأخير لابنة العم إيزابيل.

كان بوسعنا أن نرى إلى الوراء منا مصباح الزيت يرسل إشارات من اللّغز بينما أخذ يتحرك بحذر نحومدخل الجون.

فكرت أنه كان بإمكانها تفريغ ما تشاء من حمولة، إلا أنه لن يكون ثمة جسد هامد ملقى داخل عنبرها في تلك الليلة. فجأة، شعرت بإرهاق لا يوصف. بِتُّ أشعر من جديد بالألم في أوصالي وبالرضوض فوق جسدي.

وتملكني للحظة اكتئاب تشاؤمي. شعرت بعدها بطعم الملح على شفتي قادماً من البحر الواسع وبالرياح المؤاتية تهب من خلال شعري، وأبصرت في الضوء الخافت العجوز توم هابرستي بيده القوية فوق ذراع الدفة.

أدرت ظهري عن الماضي الحزين ونظرت نحو المستقبل. كانت أمريكا أرض المستقبل، هكذا أخبرني سولومون كريسون. إن نجحت أنا وتوم في الوصول إلى بريستول في أي وقت، استطعنا في النهاية عبور الأطلسي بمساعدة ناثان فراير، وهناك ربما أوجه مجرى حياتي في مهنة ما تكون جديرة بابن عمي نيكولاس.

كان قد قال: «إننا متجهان نحو العالم الجديد!» وفي ذلك الوقت شعرت بأنني أدين لأميريكا بحياتي.

إنني لم أمضِ فارغ اليدين. كنت قد تركت كريغز من ورائي، وتركت معها كامل ثروتي ما عدا الذهب الذي أكتنزته ابنة العم إيزابيل والسيف العزيز إلى جانبي. وبرغم ذلك، فقد كنت أحمل معي ميراثاً أفضل من ذاك الذي فقدته، ولقد جاء إليّ من رجال حملوا اسم كريغ.

لقد أدركت الآن أن خسران المرء للعالم بأكمله لهو أفضل من أن يخسر

نفسه. ورغم أنني لم ألقَ من أمنحه ثقتي التامة، إلا أنني وجدت الشجاعة التي يتوجب علي إيقاظها في نفسي ثانية.

هذا ما قاله نيكولاس حين التقينا للمرة الأولى: «أبقِ رأسك مرفوعاً يا صبي»، ـــــ كان بوسعي إلى حد كبير، أن أشعر باللمسة الرفيقة ليديه فوق كتفيّ.

«أبقِ رأسك مرفوعاً يا صبي، تذكر، إنك وريث كريغز».



محتويات الكتاب

١٥٠٠ ط١/١٢/٢٠٠٠

تجري أحداث قصة «وريث كريغز» في أواخر القرن السابع عشر، عهد المؤامرة السيتوارتية والمستوطنات الأولى في أميريكا .

يلعب نايجل دور الوريث، وهو يتيم يأتي في سن صغيرة إلى منزل كريغز المقيت، والمشيد في جزء منعزل من ساحل لانكاشاير ، ليعيش فيه.

يهرب نايجل بصحبة ابن عمه نيكولاس من كريغز ومن عمه الماكر ويستقل سفينة نحو العالم الجديد.

تطارد الأخطار والمغامرات ابني العم أينما يذهبان، إذ تتحطم سفينتهما على ساحل أميريكا الشمالي ويقعان في أيدي هنود عدوانيين.

في نهاية الأمر يبلغ ابنا العم بلدة تشارلز وبالتالي يكونان في أمان، ويعود الفضل الكبير في ذلك للإيمان الراسخ وللحيلة الواسعة التي تمتعت بها زمرة من الصاحبيين الذين كانوا برفقتهما على نفس السفينة المتحطمة.

بيد أن معاناتهما لا تنتهي عند هذا الحد، وبعد أن يقوما بزيارة إلى قصر الملك جيمس الواقع في سانت جيرمان يعود كل من نايجل ونيكولاس إلى كريغز ليصلا بذلك إلى الفصل الأخير من مغامراتهما.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق - ٢٠٠٠



سعر النسخة داخل القطر
١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٣٠٠ ل.س